سنوات الحب والدم

على هامش الذكرى

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـم الكتاب: سنوات الحب والدم
اســـم المؤلف: أسماء عبد الراضي
التصنيـــــف: رواية
الحجـــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 280
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 13200 / 2025
الترقيم الدولي: 978 - 977 – 971 – 190 – 4

تدقيـــق لغوي: أسماء عبد الراضي
تصميم غـــلاف: منى الموجي
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

سنوات الحب والدم

على هامش الذكرى

أسماء عبد الراضي

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الأرواح التي تقتات على الحكايات لتبقى على قيد الحياة ..

أسماء عبد الراضي

****

وبعضُ الجروحِ ضاربة في العمق، ملامِسة للروح، غير قابلةٍ للشِّفاء، فقط تغشاها سحابة بُرءٍ لا تلبث أن تنقشع مع أول أنَّةٍ للقلب، بعض الجروح شُهود عُدول على فُرصٍ خسروها كما خسروك..

راوية العمري

****

(صفر)

في ليلةٍ اختبأ فيها القمرُ خلف سحبٍ كثيفة، ضاعفت الشعور برطوبة يوليو، تجمّعت الغيوم في تشكيلات هندسيّةٍ متتابعة، كأنّها قصر سحابي يرتفع في السّماء. في إحدى قرى جنوب مصر المشتعل جوّها مثل فوَّهة تنّورٍ فائر، تجمّع الرّجال في دار مناسبات عائلة (الزهايرة)؛ لحضور حفل زفاف ابنة كبيرهم. تتوافد أكواب الشاي وزجاجات الكولا، يحملها الصغار من البيت، يقدّمونها للرجال الذين امتلأت بهم المندرة حتى فاضت، فجلس بعضهم على الدّكاك خارجها.

في البيت، اجتمعت النّسوة في صحن الدّار الواسعة، جلسن في حلقات متفرِّقة، يلتهمن وجباتِ حكي لا تنضب. تسترق أعينهنّ النّظر إلى (راوية العمري)، المرأة التي عادت إلى أحضان قريتها بعد غياب طويل، بدت لهنّ في أناقتها ككائن هبط من كوكب آخر، رغم أن بين الحاضرات من تفوقها أناقة، أو على الأقل تماثلها.

تتابع راوية مراسم العُرس، بينما تزعجها عيون النّسوة وتحاصرها كهدف تُمطره السهام بإتقان. ومن بين هذه العيون، كانت عيون سِلْفتها، أم العروس!

تحاول راوية إظهار الهدوء والاندماج مع أجواء الفرح. منذ أن وطأت قدماها بيت الزهايرة وهي تشعر بالقلق. تذرّعت بالتعب تارة، وباختلاف جوّ الصعيد عن أجواء القاهرة التي اعتادتها تارة أخرى. بالأمس -وهي تدخل بيت الزهايرة، أهل زوجها- عادت إلى ذاكرتها لحظةَ رحيلها، محمّلة بأطنان الحزن والغضب. ذاكرتها العنيدة تأبى مصافحة النسيان، تعيد إليها الذكريات كوجبة طازجة، وتُرغمها على التهامها دفعة واحدة.

المكان يفوح بأريج الغائبين، رغم ما طرأ عليه من تغيير. في كل زاوية هنا لها ذكرى، وفي كل ركن حكاية.

هنا جلستْ مع زوجها، اقتسما الضحكات معًا، وهنا حبَسَاها حياءً وحذرًا. هنا سمعتْ كلمة (ماما) لأول مرة من ابنها البِكْر، بينما تهدهده على حِجْرِها. هنا بكى رغبة في الخروج مع أبيه، وهنا ودَّعتهما يوم خرجا دون عودة. حتى الغبار هنا له رائحة مختلفة، الأبواب، النوافذ، الفضاء الفسيح، والخُضرة. كانت تتذوق الأماكن والأشياء، وتحكي معها بلا صوت.

بينما راوية عالقة في زحام الذكريات، جاءت ابنتها (ليلى عمر الزهيري)، مالت نحو أمها مبتسمة تحكي عن مظاهر الاحتفال بالعرس، كالخيول الراقصة على صوت المزمار، والرجال يلعبون العصا، كلها أشياء لم ترها ليلى من قبل إلا على شاشة التلفاز.

تستمع راوية لحديث ابنتها وهي ترمقها بنظرة معاتبة:

- لا تغيبي عن عيني، اتصلت بكِ، أما سمعتِ تليفونك؟

- لم أنتبه.

قالت ليلى وهي تتفقد هاتفها، فأكملت أمها بانفعال:

- لذلك أقول لا تغيبي، يكفيني أن أخاكِ بعيد الآن.

وهي تزمُّ شفتيها، قالت ليلى:

- ماما.. ابنك الدكتور آدم يجلس مع الرجال، على بُعد خطوات منكِ، لماذا تؤرّقين نفسك دون داعٍ؟ دعينا نتمتع بهذه الأجواء. أرجوكِ يا رورو.

كانت ليلى تتحدث، وعينها على هاتفها الذي أضاء برقم ابن عمها، الذي يقف على بُعد خطوات منها. وقعت عينا راوية عليه، أحسّ الشّاب بالحرج، فانسلّ عائدًا إلى المندرة حيث مجلس الرجال.

تُحدِّث راوية نفسها، وهي ترقبه يختفي بجلبابه الأنيق:

«تُرى.. هل أخطأتُ حين قررت العودة؟ هل أخطأتُ لمّا قبلت دخول هذا البيت مرة أخرى بعد كل هذه السنوات هل .. هل ..؟»

أنقذها رنين الهاتف من شحنات القلق التي تسيطر عليها، لكن أصوات (الدي جى) أعاقتها عن سماع صوت المتصل. تركت مكانها في محاولة للابتعاد عن مصدر الصوت، غير أن ضجيج الأغاني كان يدوّي في أرجاء البيت، بل يلعلع في الشارع بأكمله.

- عمك يونس يحاول الاتصال، لم أسمع منه كلمة واحدة، يبدو أنه لم يصل إلى الآن!

جاءت الفتيات يسحبن ليلى للرقص معهن، حاولت التملّص منهن، نظرت إلى أمها، فلمّا أومأت إليها ذهبت معهن.

ليلى، الطالبة في كلية الهندسة جامعة القاهرة، استطاعت إقناع أمها بما أرادت. من أجلها، قبلت راوية العودة إلى قريتها. يوم فرارها، كانت ليلى لا تزال مضغة في بطنها.

كتب المأذون الكِتاب وأعلى الجواب، فانطلقت الزغاريد تصدح في فضاء البيت الواسع، تتعانق مع عدد من الطّلقات النَّارية لا بأس به، ليعلنا سويًّا الفرحة بإتمام العُرس.

ارتجّ قلب راوية لحظة سماعها صوت الرصاص، كاد يقفز من بين ضلوعها. تذكرت آخر مرة سمعت فيها صوت الطلقات المتتابعة هكذا، فاختل توازنها وكادت أن تسقط لولا سِلْفتها التي كانت تفصلها عنها بضعة سنتيمترات. تلقّفتها وهي تقول بنبرة ذات معنى:

- ما لك يا راوية؟ سلامتك يا حبيبتي، ألف سلامة!

في دهاليز عيني سِلْفَتِها (حُسْن)، تاهت. هي تعلم حقيقة ما تكنّه حُسْن لها. هل السنوات التي غيرت معالم المكان قد غيرت قلب حُسْن أيضا؟! وافقت راوية على حضور عُرس ابنة حُسْن لتثبت لنفسها أنها نسيت الماضي. فهل حقًا نسيت؟!

تذكّرتْ أنها الآن في فرح، وأن هذه عادة أهلها عندما يفرحون، فهدأت قليلًا. عادت إلى متابعة العرس، وهي تراقب ابنتها تتراقص مع الفتيات. تذكرت نفسها حينما كانت في مثل سنها، وقالت بصوت لا يسمعه غيرها:

«آه يا ابنتي، شتان شتان!»

في لحظة خاطفة فاصلة، تحوّلت الزّغاريد إلى وَلْوَلة؛ لحظة انحراف إحدى الطّلقات عن مسارها السِّلمي في فضاء الفرح، لتستقر في قلب الدّكتور (آدم). وصل الخبر إلى أسماع راوية فسقطت مغشيًّا عليها، وفي غمضة عين انقلب العُرس مأتمًا.

في مستشفى قنا العام بالكيلو ستة، حيث تبلغ حرارة الجو ذروتها وسط أنَّات المرضى ورائحة العقاقير، انتشر الزهايرة كالفَراش المبثوث في قسم الطوارئ. أبناء العمري أيضا جاءوا إلى المشفى، وما كان للعائلتين، الزهايرة وآل العمري، أن يجتمعا بعد سنوات من القطيعة لولا هذا الحادث؛ فالمصاب هو حفيد العائلتين، وحلقة الوصل التي عادت لتلتئم من جديد.

انهارت ليلى، دمعها الحار احمرَّ بفضل سخونته وجهُها الأبيض كالثلج، وذبُلت عيناها العسليّتان. أصابت الطلقةُ أخاها فطرحته أرضًا، وفي ذات اللحظة سقطت أمها هلعًا عليه.

كان (زين) يواسي ابنة عمه في مصابها، هو الذي عاد بزوجة عمه وأبنائها إلى القرية بعد موافقتها على زواجه من ليلى. جاءوا جميعًا لحضور

حفل زفاف أخته كبرهان صدق على ترك الماضي جانبًا، وفتح صفحة جديدة بيضاء. أيكون قد أتى بهم ليلقوا حتفهم هنا؟!

أما والده (صالح)، كبير الزهايرة بعد وفاة أبيه وأعمامه، فيروح ويجيء في عصبية مفرطة بجلبابه البلدي وعِمَّتِه المرتكزة فوق رأسه كعلَم، يضرب الأرض بعصاه، يفكّر فيمن تجرّأ ورفع السلاح في وجه ابن أخيه وعكّر صفو فرحته بعُرس ابنته.

فرِح صالح بعودة زوجة أخيه وأولادها؛ فاضت عيناه بالدموع عندما أخبره زين قبل أسبوع بموافقة راوية على زواجه بابنتها. قال وهو يضرب بكفه على كتف ابنه:

«عفارم عليك يا زين يا ولدي.»

«كله ببركة دعاك يا حاج.»

دمعت عينا صالح:

«يوم رجوع أولاد عمك للبلد يوم عيد يا ولدي، مكتوب أملِّي عيني منهم قبل الموت.»

ها هو اليوم يغلي قلبه خوفًا على ابن أخيه الذي اغتالته الرصاصة دون رحمة.

وصل الدكتور (يونس) إلى المستشفى، يطوي الأرض طيًّا تحت قدميه النحيفتين، مرتديًا بذلة رمادية، وحذاء رياضيًّا أبيض، تتلالأ آيات الوقار على محيّاه. تعرَّقت جبهته القمحية، وحقيبة صغيرة مستقرّة خلف ظهره. توجّه مباشرة صوب غرفة الأطباء، على بابها التقى بأحدهم. بعد حوار

دام دقائق، شكره ثم سار نحو العائلتين المنتظرتين في الاستقبال. ما إن لمحته ليلى حتى هرولت نحوه باكية، فاحتضنها بين ذراعيه، لتسقط الحقيبة من يده.

قالها زين وهو يلتقط الحقيبة:

- ماذا يخفي الأطباء يا عمي؟ لا أحد منهم يقول جملة مفيدة.

اختصر يونس ما عرفه من الطبيب الذي التقى به، قال إن راوية أصيبت بنوبة قلبية وهي الآن تخضع للعلاج في العناية المركزة، أما آدم فقد دخل العمليات، وسيفعل الأطباء ما في وسعهم لإنقاذه.

علا نشيج ليلى، بينما قال صالح وهو يضرب الأرض بعصاه الغليظة:

- لن يهدأ بالي حتى أعرف ابن الكلب الذي فعلها.

فتساءل يونس:

- ماذا؟ ألم تكن رصاصة طائشة في الفرح كما قلتم؟!

قال زين مرتبكًا:

- النيابة تُحقّق الآن، وغدًا يتضح كل شيء.

عاد نحيب ليلى، وإن كان قلبها اطمأنّ قليلا بحضور الدكتور يونس، ابن عم أبيها، والذي كان -لأكثر من عشرين سنة- السند الوحيد لأسرتها في القاهرة.

انتحى زين جانبًا، أخرج هاتفه، واتصل بوالدته:

«نساء العمري كلهن جاؤوا إلى المستشفى. وأنت يا أمي..؟»

أجابته حُسْن وهي تسحب نفسًا من النرجيلة التي أثقبت كركرتها طبلة أذنه:

«صحّتي لا تتحمل المستشفيات.»

«لكن تتحمّل الجوزة ودخّانها!»

«ثم إن اليوم صباحيّة أختك.»

«صباحية! وابن عمي في المستشفى؟»

«الأصول أصول. بنتي عروس واليوم صباحيتها، لا علاقة لها بهذه الأمور!»

«أمي، صارحيني، هل لكِ يد فيما حدث؟»

هبّت من جِلستها طارحة النرجيلة من يدها بغضب:

«هاتِ لي مصيبة لغاية عندي..»

«جاوبيني بهدوء، ألم تفكري فيها؟»

«تعصبني وتقول هدوء! فكرت فعلًا، لكن.. اقتنعت بكلامك، ونسيت الأمر، وإن فعلتها، هل أفعلها يوم فرح ابنتي؟!»

أغلق زين الخط ودمه يغلي كقِدر فخاري يشتعل النار أسفله. يرجو أن تكون أمه قد صدقته القول، لكن قلبه يحدّثه بخلاف ذلك.

.....

كانت شمس الصعيد قد انكسرت شوكتها قليلًا، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة قبيل مغيب اليوم الثالث، حين أجمع الأطباء أن حالة آدم تزداد سوءًا، وأنه تم إجراء عملية واحدة من أصل ثلاث من المفترض إجراؤها له.

«يبدو أنه لا مفر من الانتقال إلى القاهرة.»

هكذا قال الدكتور يونس لنفسه قبل انشغاله بإجراء بعض المكالمات الهاتفية. ثم طلب من زين أن يصرف الناس الذين يمتلئ بهم المشفى لليوم الثالث على التوالي.

- واذهب أنت أيضًا، خذ ليلى معك، ودعها على راحتها إن أرادت الذهاب مع أخواتِها.

راوية

عند البئر التي جفّت ماؤها وأضحت بُعْبُعًا يُخوِّفون به الصّغار، يقف ابني أمجد يلهو بِلُعبِه، وفجأة يصرخ مذعورًا عند رؤيته أفعى ضخمة. يصيح بأبيه، فيهمُّ عمر بالجري نحوه، لكنه يكتشف أن قدميه مقيدتان. يصيح أمجد بحرقة، ويزحف أبوه نحوه، محاولًا تخطّي قيوده. محاولاته تتعثّر، يده تمتد، وصيحات ابني تملأ الفضاء.

«عمر، انتبه! أمجد.. أمجد يا عمر، لا تأخذه معك هذه المرة، لأجل خاطري!»

«سآتيكِ به يا راوية، سآتيكِ به، لا تقلقي..»

«الأفعى! الأفعى يا عمر!»

يسقط ابني في البئر، فيقفز عمر خلفه. أركض بهلع، لأجد ظلام البئر قد ابتلعهما معًا. تنطلق صرخاتي التي لا تجد لها مجيبًا إلا الصدى.

على سرير المشفى، كنت أهذي بكابوس لا يفرّق بين نوم ومرض. ليخبره أحدكم أني لست نائمة الآن ليأتيني. عشرون عامًا عجزت أيامها ولياليها عن القضاء على كابوس أضحى رفيق مناماتي. لا أكاد أهنأ بنوم في ليل أو نهار. وها هو يأتيني الآن وأنا بين الحياة والموت، وكأن روحًا تسحبني إلى الأسفل، بينما صوت داخلي يستجدي البقاء. أشعر بجسدي مرهونًا لأسلاك وأجهزة تنبض بإيقاع متقطّع، وكأنها تعلن استسلامي.

يحلو للذكريات أن تتهادى على متن رائحة عجيبة تُضَرِّجُ الجو بلفْحها. المكان يضجّ بالأبيض، ألأنني في المستشفى؟ لكن لماذا تصرّ الذاكرة على إعادتي إلى أيام كان الأسود لونها المميز؟

تتداخل الصور. أشباح يحيطون بي، جميعهم هنا، لم يتغيّب منهم أحد. أحاطوا بي كأخطبوط ضخم يهاجم فريسته، كل الذين آذوني مذ كنت طفلة يلهو الهواء بضفائري، وحتى ذلك اليوم الذى كُسِر فيه ظهري ووهن العظم مني، وكبرت ألف سنة.

في ركن قصِيّ، تجلس وحيدة، تتجنّب النظر في عيني. لماذا لا تقترب؟ التقت العيون .. تنظر إليّ بحب وخوف ولهفة.

معقول؟

زينب!

اشتقتُ إليكِ كثيرًا يا زينب. اقتربي يا ابنة العم وشقيقة الروح. لن يحميني منهم اليوم سواكِ. أنتِ ملاكي الحارس مذ كنّا صغارًا. غيابك كان أول ندبة تُنكت في قلبي الصغير، أول ألم أتحمّله وحدي، بدونك.

تتلاشى صورتها، كأنها لم تكن.

ثم تظهر جدّتي، أمي التي ربَّتني، نجم لا يأفل أبدًا. يدها الحنون تمتد نحوي، كفّها يشعُّ دفئًا وأمانًا. لكنني أصرخ:

«لقد هزم مكرهم طيبة بنت ولدك يا جدة.»

تمدّ يدها أكثر، فأحاول التمسك بها، لكنها فجأة تتبخر، تاركةً فراغًا يبتلعني.

أتاني صوت خالي يقرأ سورة (يس) التي أحبها:

{يس﴿1﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿2﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿3﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿4﴾}

صوت حنون كقطرة ماء باردة على جمر روحي المتقدة. يتسلل عبر هذا الجحيم. تلاشى صوته، لكنني سمعت صوتًا آخر، دافئًا خافتا، كأنه قادم من بئر عميقة. يشدو:

كن حيث ما شئتَ من قربٍ ومن بُعد فالقلب يرعاك إن لم يرعك النظرُ

غَنَّى بذكرك قلبي حين بان له لكنَّ طرفي إلى رؤيـــــاك مفتقرُ[1]

هذه الأبيات .. وهذا الصوت.نعم.. عمر، هذا صوت عمر.

أين ابني يا عمر؟ لماذا لم تأتِني به كما وعدتني؟ ضيعتَه وضِعتَ معه، وها أنا الآن أضيّع أخاه. آه .. بل ألف آه لا تكفي.

«استيقظي يا رواية، قاومي مِن أجل مَن تبقّى!»

«لا أريد أن أعود! لا أريد أن أعيش الألم مرة أخرى!»

اختفى طيفه .. وانقطع الصوت..

نظرات الشماتة تملأ عيونهم، عيون سوداء لا بياض فيها. لماذا يحيطون بي هكذا؟ ليس بإمكاني الثبات أمام كل هذا السواد. أصرخ، لكن صوتي لا

[1] الأبيات للخبز أرزي، شاعر عباسي.

يخرج. أركض بعيدًا، سوادهم يضيّق عليّ الخناق، ويمزّقني أنين الذكريات بلا هوادة. يمرّ الماضي أمام عينيّ كشريط سينمائي لفيلم قديم بالأبيض والأسود، مشاهدُه تتراقص على شاشة الذاكرة.

.....

في قريتنا التي تبعد عن مدينة قنا بضعة كيلو مترات، أعيش في بيتنا الواسع مع جدتي وإخوتي الثلاثة: سعد وعاصم وعبد الناصر. كما يشاركنا السكن عمي محمود وأسرته، وعمتي سناء أيضًا تقيم معنا في البيت نفسه. شجرة التّبق العتيقة في حوش البيت، تتشابك أغصانها فتظلل البيت كأنما تحتضنه من الخلف، وتظل أجمل ما في بيتنا على اتساعه.

جدتي الحاجة (نعمات) هي التي ربّتني بعد أن دفعت أمي حياتها قربانًا لمجيئي إلى هذه الدنيا.

«لا أحد منكم يزعّل بنت ولدي، راوية بنت الشهيد..»

كانت كلماتها تسكن ذاكرتي كأصداء تعود إليها دائما. شملتني تفاصيلها؛ عباءتها السوداء التي لا تتغير إلا بأخرى أكثر سوادًا، جلدها القمحي كرمشته الهموم، وشعرها الناعم الذي تواظب على تخضيبه بالحنّاء، تضع رأسها على وسادة من صنعها، محشوَّة بقطع القماش القديم. كنت آخذ المشط وأتسلّى بتصفيف شعرها، وهي تستمع إلى إذاعة القرآن الكريم عبر راديو ترانزستور اشتراه لها عمي أيام كان يسافر.

من الطقوس المقدّسة لدى جدتي والتي ظلّت تواظب عليها طيلة حياتها، إطلاق البخور في البيت قبيل مغيب الشمس كل يوم. أما يوم الجمعة، فيمتلئ البيت بأريج بخورها من طلعة الشمس. كنت أشتري لها (الفَكُوك، وتراب العلبة، والزعفران، ولبان الدكر) من العطار. تجوب البيت بمبخرتها النحاسية العتيقة، وهي تتمتم بأدعية تحفظها عن ظهر قلب. تُوقفني أمامها وبالمبخرة ترسم دوائر الدخان فوق رأسي، أسألها عن جدوى بخورها فتقول:

«ليحفظك الله ويُحبّك، ويحبّب فيكِ خلقه.»

كنت في عامي الثاني عندما اندلعت حرب أكتوبر، الحرب التي أخذت مني أبي لأصبح بعدها بلا أب أو أم. حكت لي جدتي منذ أن كنت طفلة عن أبي الشهيد. لم أكن أعرف وقتها معنى الشهادة، لكن التقدير الذي ألمسه في معاملة الناس ونظرة الفخر حين يُذكر أبي، كل ذلك جعلني أفهم أنها شيء ذو قيمة. لا أذكر أبي. صورة باهتة الملامح بالأبيض والأسود، تجمعه بصديق له وهما يرتديان الزي العسكري، رأيتها مرة مع أحد إخوتي، ثم عدت فطلبتها من جدتي. أخذتني حيث تحتفظ بها في صندوق خشبي كبير، تخبّئ فيه أشياء لها قيمتها عندها للحد الذي يجعلها تغلق عليها بقفل لا تعطي مفاتحه لأحد. لا أعرف محتويات الصندوق، استطعت هذه المرة رؤية بعضها، رأيت مفتاحًا قديمًا، بضع أوراق أكلت السنوات كلماتها،

زجاجة عطر شبه فارغة، وصورة أبي هذه. قالت جدتي إن أبي كان الوحيد من بين إخوته الذي قضى فترة تجنيده بالجيش خمس سنوات كاملة.

أما عمّتي سناء، فغرفتها كانت حصنًا منيعًا لا يُسمح لنا، نحن الصغار، باقتحام أسوارها. لا يجوز لأحد مشاركتها النوم في غرفتها مهما كانت الظروف. تعتزلنا معظم الوقت. رفض عمي كل من تقدّم لخطبتها حتى تجاوزت الأربعين. تقول زوجة عمي إن بضعة قراريط تملكها عمتي كانت وبالًا عليها، وحرمتها من أن تصبح زوجة كبقية النساء. ورثتْ عمتي حِفْنة قراريط عن جدي، لكنها لم ترث عن جدتي حنان. هي لا تشبهها في شيء، أراها كعمي في قسوته، بل أحيانًا أشدّ منه جفاءً.

بعد صلاة العصر، أذهب رفقة زينب، ابنة عمي، إلى الكُتَّاب. نحفظ القرآن على يد خالي الشيخ سليمان الشافعي، إمام المسجد الذي يقام الكُتَّاب في إحدى زواياه. كنت سريعة الحفظ وكان خالي فخورًا بي.

«لو ظلّت هِمتك عالية بهذا الشكل يا راوية، أعدكِ أن تختمي القرآن قبل الإعدادية.»

يناديني بـ (الشيخة راوية) أمام الصغار الذين أقوم بالتسميع لبعضهم أحيانًا نيابةً عنه، وهو ما يثير غَيرة البنات اللائي يحلمن بهذه المَهمّة ممن يكبرنني سنًّا وسبقنني في الالتحاق بالكُتَّاب. أعتز بلقبه الذي علّقه على رقبتي كقلادة ذهبية، يُشعرني بالقوة والكثيرِ من السعادة. زينب أيضًا

تناديني به أحيانا، وسر فرحتي باللقب أنه يعوضني عن شعور النقص الملازم لي في المدرسة.

(عمرو بن العاص الابتدائية المشتركة) هي مدرستي التي تبعد عن بيتنا مسيرة نصف ساعة، أقطعها سيرًا على قدميّ الدقيقتين بصحبة زينب. قد ينقذنا أخي سعد إذا صادف خروجه خروجنا، يحملنا على سيارته نصف النقل، فيكفينا عناء السير في طريق ترابي طويل نقطعه يوميًّا ذهبةً وأوبة.

في (مريلتي) رقعتان لا تخطئهما العيون مهما بالغتُ في إخفائهما، وأنتعِلُ في قدميّ حذاءً قديمًا متهالكًا، لا أذكر أنني ارتديتُ حذاء جديدًا في الابتدائية. كلمة (جديد) لم تكن في قاموسي حينها. تنصحني زينب ألا أعبأ بأحد، وألا ألقي بالًا لمضايقات البنات. ليتني أمتلك بعض شجاعتها أو قدرتها على مواجهة الناس.

يدخل الإخصائي الاجتماعي الفصل فيسأل بصوت أجش لا ينخفض أبدًا:

- مَنْ منكم تُوفي أبوه يا أولاد؟

أقف وقلبي يمضغ مرارة اليتم ويلفظها في وجهه الجامد. في يده ورقة مكتوب فيها أسماء الأيتام، فلماذا يأتي ليسأل السؤال نفسه كل فترة وكأنه لا يعرفنا؟ تنهشني العيون فأنزوي في مِقعدي حتى أتلاشى. يغيب أيامًا ثم يعود لينادي:

- راوية مصطفى العمري، هاتِي شنطتك وتعالي.

تعاود العيون التهامي، يتهامس زملائي فيما بينهم عن سبب مناداة المعلم لي. يملأ الفضول أعينهم، أُسرع الخطى حتى أتخلَّص من سِياط نظراتهم. أعود إلى الفصل أجرجر قدميّ المثقلتين بالخجل، وثوب وُضِع في حقيبتي القديمة فانتفخت كبطن فقير لم تعتد كثرة الطعام فضرَّها. يبدأ الغمز واللمز، يقطعه سؤال المعلم يراجع الدرس، يضرب هذا ويوبّخ تلك، أُجيب عن السؤال فيثني عليّ. أشعر بعد ثنائه أنني أخلع ثوب المهانة الذي ألبسنيه اليُتم، لكنَّ نظراتهم تؤكد دائمًا أنني أقل منهم.

سلوى، زميلتي على المِقعد نفسه، تملَّكها الفضول حول الانتفاخ المفاجئ لحقيبتي. سألتني عن سبب استدعاء المعلم لي، وهي تنظر إلى الحقيبة بنصف ابتسامة ماكرة. قلت لها إنهم يستدعون المتفوقين إلى حجرة التربية الاجتماعية في الطابق الأول، ولكي أغيّر وجهة الحديث سريعًا، سألتها:

- أجبتِ عن السؤال عندما أتى دورك؟

سألتها رغم معرفتي الإجابة. حدجتني بعينها الحولاء، ثم عادت بظهرها إلى الوراء، شبَّكت ذراعيها على صدرها، ونظرت إلى السبورة.

من امرأة عجوز تجلس أمام المدرسة بمقطفها المصنوع من سعف النخيل، اعتدنا شراء قراطيس الترمس وثمار الدوم، نستعين بهما على طول الطريق ووعورته. بالقروش الخمسة التي تعطينيها جدتي أشتري قِرْطاس الترمس رغم حبي للدوم، لكنني لا أمتلك خمسة أخرى لشرائه، إذ تبيعه

العجوز بعشرة قروش. تشتري زينب ثمرة الدوم، تأخذ منها قضمة أو قضمتين على الأكثر، ثم تعطيني إياها. تقول إن طعمه لا يروقها، لكنني أعرف أنها تفعل ذلك لعلمها بحبي له، تمامًا كما تعلم عجزي عن شرائه.

في عالمنا الصغير، كانت المشاجرات بين الأولاد أمرًا معتادًا. نتابعها - نحن البنات-بصمت المتفرج. سلوى، زميلتي صاحبة العين الحولاء، ومنى وسمر من تلميذات الصف السادس ومعهن زينب، يشكلن جزءًا من هذا المشهد اليومي. هذه المرة كان المشهد مختلفًا.

اندلعت معركة بين زينب ومني لا أعرف كيف بدأت، وجدت نفسي طرفا فيهاعندا انضممت مع سمر إلى جانب زينب، بينما اصطفت سلوى للدفاع عن ابنة خالتها، منى.

أدركت لاحقًا أن هذه المعركة خاضتها زينب من أجلي، عندما عيَّرتها منى بابنة عمّها اليتيمة التي مَنَّ عليها الأستاذ بثوب جديد. سألت نفسي مذهولة:

«من أين علمت منى بأمر الثوب؟!»

لكن هكذا كانت الأمور دائما بين تلميذات الصف السادس؛ لا تخفى عليهن خافية في المدرسة، ولا خبر يفلت من آذانهن.

انتهت المعركة بوصول كل واحدة منّا إلى بيتها، عدنا إلى البيت بثياب مُتَّسِخة، وشعر منكوش، يظهر علينا جليًّا آثار الحرب الضروس التي خضناها في طريق العودة.

عند مدخل البيت، كان أخي سعد منهمكًا في إصلاح عطل بسيارته، يساعده أحد أصدقائه. غابت زينب سريعًا عن الأنظار قبل وقوع عين أخي عليها، لم أكن محظوظة مثلها. رآني سعد فناداني بصوته الجهوري، وحين وقفت أمامه مرتبكة، سألني عن سبب اتِّساخ ملابسي، تتلعثمتُ لم يمهلني وقتًا للإجابة، صفعني على وجهي بغضب.

بكيتُ بمرارة حدّ انتفاخ عينيّ وذبول وجهي. هدّأتني جدتي وعاتبت سعدًا على فعلته، واستني زينب، وحاولت تهوين الأمر باللعب تحت شجرة النَّبق. والحق أنني لا أبكي بسبب صفعة أخي، لم تكن قوية إلى هذا الحد. كنت أبكي إحساسي بالعجز أمام نظرات زملائي.

كنت أكثرهم تفوقًا في المدرسة، أحقق الدرجات الأعلى، وأفوز في مسابقات القرآن، لكن ذلك كله لم يكن كافيًا ليمنحني قيمة في أعينهم. كنت أبكي اليُتم الذي أعوزني إلى أخذ ثوب من الأستاذ ذي الصوت الأجش، ثوب تعيّرني به سلوى الحولاء التي تعجز عن كتابة الحروف، ثوب فَرِحَت به جدتي وقالت إنه أجمل مما اشتراه عمي لابنته زينب من بندر قوص الاثنين الماضي، وأفضل قماشًا من ذلك الذي اشترته جارتنا من (البيّاض)[2] أول أمس. لكنني كرهت هذا الثوب كما لم أكره شيئًا في حياتي،

[2] بائع يتعامل بنظام المقايضة، يبيع للنساء سلعًا معينة كالأقمشة والحُلي ويتقاضى ثمنها بيضًا.

حتى راودتني فكرة إحراقه. هل أشعل فيه النار؟ فكرت. غير أنني لم أجد في نفسي الجرأة الكافية لتنفيذ ذلك.

تحت شجرة النبق، تحاول زينب أن تهشَّ بعصا حُبّها عصافيرَ الحزنِ المعشِّشة بصدري، جلبت لي قطعة كبيرة من البسبوسة التي تُعِدّها زوجة عمي بالسمن البلدي والرايب. تحتويني زينب دائمًا، تهدهد أحزاني كأم، الفارق العمري بيننا لا يتعدى سنة واحدة، تسعة أشهر كما أخبرتنا جدتي ذات ليلة وهي تحكي لنا حكايةً قبل النوم، تدهشني زينب بقوة شخصيتها، لا أحد يجرؤ على مضايقتها، هي المحامي الخاص بي في كل مكان نذهب إليه.

نجلس على الدّكّة تحت ظلال شجرة النبق نلعب، ونحكي، ونذاكر أيضًا. تهفو ظلالها فوق رأسينا، تتسلّل أشعة الشمس من بين الفروع الكثيفة المتشابكة، وتعزف العصافير مقطوعة بديعة وهي تتنقّل بينها، وكأنها تواسي قلبي الصغير.

ولأنها أكثر تميّزا مِنّي في الدراسة، بعد إنهاء واجباتها، تساعدني فيما يصعب عليّ فهمه، ولا بأس بلحظات مرح تتخلّل ساعات الجد، كأن تقوم زينب بتسلّق شجرة النبق، تنتفض الفروع الخضراء بين يديها فتنهمر الثِّمار، تُسعِدها فرحتي برؤية الثمار تتساقط بغزارة فوق رأسي، أغبِطها على قدرتها المدهشة على تسلق الشجرة رغم جسدها الممتلئ قليلًا مقارنة بجسدي النحيف. كنت أعجز عن تسلّق الشجرة، رهبة تسري في جسدي لمجرد تَخَيّل الأمر.

تحت هذه الشجرة العتيقة، حيث تخلق زينب عالمًا من الحب والضحكات، كنت أنسى الأحزان والأوجاع التي غرسها اليتم والحرمان في قلبي.

خالي سليمان يعاملني كابنته، ولم يكن له ولد من صُلبه. عشرون عامًا مضت على زواجه من الحاجة جُوهَرة، تلك المرأة التي تبدو كأنها ملاك يمشي على الأرض. تمتلك قلبًا من حب توزعه على الجميع دون مقابل. يعرف خالي قدرها جيدًا، ولذلك يعاملها كملكة، ورغم إلحاحها عليه بالزواج بأخرى لينجب ولدًا يحمل اسمه، ويستند إليه في شيخوخته، رفض قائلًا:

«أنتِ عكّازي يا جُوهَرة، أنتِ سندي يا طيّبة.»

أما أخي سعد وزوجته آمنة، فلم يمض على زواجهما سوى عام واحد، إلا أن الله لم يرزقهما من الصبر والرضا ما وَهَب خالي وزوجته. آمنة تصغرني ببضعة أشهر، لكن من يراها يقسم، غير حانث، أنها تكبرني بسنين طويلة. عائلتها اعتادت تزويج البنات مبكرا، حتى إن بلوغ إحداهنّ العشرين دون زواج يُعد من النوادر. ولأنها كانت صغيرة عند الزواج، أجروا (السُّنّة)[3] على أن يتم تسجيل العقد بعد بلوغها السن القانونية.

يوم زفافها، سألتُ نفسي متعجبة:

«كيف لرجل تخطّى العشرين بسنوات خمس أن يتزوج طفلة كانت تلعب معنا في الشارع منذ أيام؟»

[3] (إجراء السُّنّة) أمر تعارف عليه الناس عند زواج الفتاة دون السن القانونية.

لكنها، حين دخلت بيتنا عروسًا، وكأنها خلعت وجه الطفلة التي أعرفها أمام باب البيت، وارتدت ملامح امرأة كاملة النضج، فبدت لي زوجة أخ لا ريب فيها.

لفترة طويلة، كنت أعتقد أن حرمان أخي وزوجته من الأبناء هو عقاب إلهي على قسوة قلبيهما، لكن ذلك التصوّر سرعان ما تبدد أمام سؤالي لنفسي:

«إن كانت الأمور تسير وِفق هذا المنطق الساذج، فلماذا حُرِم خالي وزوجته من الأبناء وهما اللذان يملكان من النقاء والطيبة ما لا يمكن إنكاره؟»

آمنة، مع ذلك، لم تكف عن الإلحاح على أخي ليتبع كل طريق تؤدي نهايته إلى تحقيق رغبتها في امتلاك طفل. حين أخبرهما الطبيب بعدم وجود ما يمنعهما طبيًّا من الإنجاب، لجأت آمنة إلى كل وصفة شاعت بين النساء عن أفعال تُرجى منها البركة. كل ما قيل لها من أفعال تأتيها النسوة طلبًا للحمل من (شقٍّ) في الأسواق والمقابر.

ذات يوم اخبرتها إحدى الجارات عن برَكَة (الشيخ حسّان) وساحته الكبيرة التي تضجّ بأصحاب الحاجات. روت الجارة قصصًا عن النساء اللائي يذهبن إلى الساحة المباركة، يتقلَّبن في ترابها، فتتحقق أحلامهنَّ بسماع كلمة (ماما). كيف؟ لا أدري!

لم تيأس آمنة أو تمل. ظلّت تزنّ على أذن أخي حتى وافق، فأخذها إلى الساحة مصطحبًا الذبائح والقرابين إلى ساحة الشيخ في بلدة مجاورة.

أصبحت تلك الزيارة وِرْدًا يتكرر كل بضعة أشهر. ذات مرة كنت معهما في زيارة للساحة. كان المكان يغمره مزيج من السكينة والرهبة والغموض، شعرت بشيء لا أستطيع وصفه؛ إحساس غريب يتأرجح بين الإيمان والخوف.

أما في الإجازة الصّيفيّة، فتبدأ صباحاتنا مع آذان الفجر. قبل بدء خيوط النور في التمدد والانتشار فوق الحقول، نخرج إلى الأرض المجاورة لبيتنا، حيث تلتفّ أشجار النخيل والكافور والجازورين حول بعضها كأنها تحرس المكان. نخرج في الصباح الباكر، نجمع البلح الأخضر (النَّارخ) الذي يسقط ليلًا. نخرج آحادًا وجماعات، وسعيد الحظ هو مَن يُوفَّق للخروج مبكرًا قبل الجميع، فيفوز بالقدر الأكبر من تلك الغنيمة.

تتناثر بعض أشجار الأتل والسنط هنا وهناك، تحيط بالأراضي الزراعية الممتدة قبيل الجسر الغربي، تبدو كأنها تراقب الحياة من حولها. يقضي الصبية أيام الأسبوع في جمع القَرَض[4] لبيعه في سوق القرية. كان أخي سعد يرفض خروجي، أنا وزينب، لجمع القرض كبقية الأطفال، لكننا تمردنا وفعلناها ذات يوم دون أن يدري.

قصّت علينا سمر مغامراتها بحماس. جاءت وفي عينيها بريق الفرح الذي لا يُخفى، تحكي عن جوال القرض الضخم الذي باعته بخمسة جنيهات، وكيف تمكّنت بجنيهاتها الخمسة من شراء السمك الصغير والتفاح والجلاب من

[4] ثمار أشجار السنط، كان يستخدم في التداوي وصبغ الجلود

السوق. أغرانا حكيها، فقررت زينب أن نجمع القرض بعيدًا عن عيني أخي، رغم ترددي، إلا أن شجاعتها قوّت قلبي، قررنا أن نستغل ساعات غياب أخي عن البيت ونخوض المغامرة.

كانت زينب تختار الشجرة العجوز التي تجاور الوابور القديم، تلك الشجرة المحملة بعناقيد القرض. قليلون هم الأولاد الذين يجازفون بالاقتراب؛ لخوف البقية من الوابور والأساطير التي تُحاك حوله. أشاركها وقلبي يرتجف خوفًا مما يُشاع بين الأولاد عن العفريت الذي يسكن الوابور، ويخرج ليلا ليتسلّق الشجرة فيملؤها بالقرض، لكن زينب تسخر من كلام الأولاد، غير مبالية.

جاءت الجمعة لتجدنا قد جمعنا من القرض ما ملأ جوالًا كبيرًا. بالكاد استطعنا إخفاء فرحتنا عندما علمنا ببقاء أخي سعد الليلة في الأقصر لعملٍ اقتضىٰ مبيتَه فيها، لن يعود إلا ظهر السبت. قضينا الليلة نستعطف أخي ناصر-وكان وقتها في الثانوية الصناعية- ليأخذنا معه إلى السوق. وافق بعد إلحاح طويل، وبِعنا الجوال بخمسة جنيهات. اشترينا السمك الصغير الذي نحبّه، وكذلك الجلّاب والمشبّك وغيره من الحلوى، بعثرنا الجنيهات الخمسة، وعدنا مُفعَمينَ بفرحةٍ من نوع فريد.

ازداد شغفنا بتكرار المغامرة، ومع غياب سعد، كنا نتسلل لساعة أو أكثر نجمع القرض كيفما اتفق. جمعنا ثلاثة أجولة، كدّرت الحيرة فرحتنا بها. جلسنا نفكّر كيف نبيعها دون أن يكتشف سعد. طلبنا المساعدة من

ناصر، هو أيضًا يخشى غضب سعد، وقد رآه كثيرا ينهانا عن الخروج لجمْعه. ومع إلحاحنا، وافق ناصر على مساعدتنا بعد أن أخذ منا وعدًا باقتسام الثمن الذي يعود به بيننا وبينه!

شغفي باللعب في طفولتي ارتبط بزينب. يوم فقدتُها فقدتُ معها شغفي بالحياة. كان فقدانها أول صدمة أواجهها بمفردي. يوم تركتني ابنة عمي بالطريقة التي تركتني بها نُكِتتْ أول نقطة سوداء في قلبي تجاه هذا البيت، الذي أصبح فارغًا من البهجة بعد رحيلها.

.....

دخلتُ المدرسة الإعدادية، فرحتُ بالزي الجديد: قميص أبيض،تنُّورة زرقاء، وطرحة بيضاء ارتديتها بقرار مني، تمامًا كما فعلت زينب العام الماضي. كنّا ندرك، دون أن يخبرنا أحد، أن الإعدادية هي إعلان ضمني عن وداع الطفولة، وأننا صرنا فتيات لا يجوز أن نخرج دون غطاء رأس. تفنّنّا في طرق ارتداء الطرحة، فكل يوم كانت إحدى البنات تبتكر طريقة جديدة، سرعان ما تنتشر بيننا، قبل أن تزيحها موضة أخرى. هكذا كنّا نستعجل الكِبَر، غير مدركات أن الكفولة ستصبح ذكرى نشتاق إليها قريبًا، قريبًا جدًا.

«كنت أعلم أني سأجدكِ هنا، لديّ خبر جميل! ماذا ستعطيني لأخبرك به؟»

لم أنتظر ردًّا منها. تتراقص الفرحة على وجهي فاندفعت كلماتي:

«طلعتِ الأولىٰ على مجموعة نصف القرآن، وأنا الأولى على مجموعة القرآن كله!»

كانت هذه أول مسابقة أخوضها منذ أن أتممت حفظ القرآن الكريم العام الماضي، فيما تجاوزت زينب النصف بجزأين. كنا قد توقّفنا عن الذهاب إلى الكُتّاب، وخصَّنا خالي بحلقة أسبوعية في البيت.

قالت بهدوء:

«مبروك يا راوية».

مبروك! هكذا فقط، لم تحتضنني كعادتنا عندما نفرح. ألم يُسعِدها الخبر؟ روحها المرحة غائبة. شيء ما يعكّر مِزَاجها، وفي عينيها نظرة حزن. وجهها كله حزين.

«ما بكِ، زينب؟ هل حدث شيء؟»

ارتبكت وهي تحاول إخفاء دمعة نبتت في عينيها البُنّيّتين. لا بد أن أحدًا قد أحزنها، هل عمي؟ أو ربما أحد إخوتها. لأول مرة أرى زينب بهذه الحالة. قلتُ ويدي ترفع خصلات شعرها المتدلية على وجهها:

«قولي يا زينب، ماذا يحزنك؟»

نظرتْ إليّ بعينين غائمتين ووجه شاحب لا دم فيه، مزّقتْ كراسة كانت بيدها وألقت بالقصاصات:

«لن أذهب إلى المدرسة بعد اليوم!»

«كيف؟ يعني .. لماذا؟!»

سألتها بينما ألملم قصاصات الكراسة.

«كما سمعتِ.»

رأت الدموع في عيني، فقالت بنبرة باهتة بالكاد سمعتها:

«سأتزوج...»

خرجت مني شهقة عالية بعد سماع كلمتها. كيف يعني؟ تتزوج زينب في هذه السن؟ وتترك المدرسة؟ وتدفن حلمها بأن تصبح طبيبة؟!

ارتعدت وأنا أتخيّل المدرسة من دون زينب. لم أستطع استيعاب الفكرة، وزاد ذهولي حين همست:

«هل تعرفين مَنِ العريس يا راوية؟ متولي الجزار!»

كدت أُجن. متولي؟! الجزار الذي أخشى المرور من أمام دكانه في أول شارعنا؟ متولي هذا يكبرنا بـ ... لا أدري بكم سنة يكبرنا، لكنه يكبرنا بسنوات كثيرة.

«وأنتِ موافقة يا زينب؟!»

«رأيي لا يهم. عمّك وافق، واتفق على كل شيء، حتى إنّه حدد موعد الفرح. هم فقط أخبروني اليوم حتى لا أتفاجأ بالفرح الخميس القادم.»

كانت كلماتها تخرج مصحوبة بحشرجة كأنها خناجر تُمزق أحشاءها. ملأت الدموع عينيها ففاضت على وجهها الذي اصفرّ كأنّ مرضًا ألمّ بها فجأة. زينب المتفوقة في الدراسة وتحلم بأن تصير طبيبة مشهورة، كيف يطلبون منها الآن أن تدفن أحلامها؟ بين يوم وليلة يقال لها: كوني عروسًا!

«متولي الجزار أكبر مني بخمسٍ وعشرين سنة!»

بحرقة قلب، ودموع لا تتوقّف قالت.

«اطمئني يا زينب، زوجة عمي لن يُرضيها ذلك، أكيد ستفعل شيئًا.»

«أمي؟ أمي لا تملك سوى البكاء يا راوية.»

قلت لها سنتحدث مع جدتي، بإمكانها إقناع عمي ليعدِل عن رأيه. لم تتبدّل نظرة اليأس في عينيها. هي تعرف أباها جيدا، لن يتراجع عن قرار أخذه. أنا أيضًا أعرف ذلك، لكنني أبحث عن أيّ شيء أواسيها به.

«انتبهي لنفسك يا راوية..»

قالتها وتركتني مع حيرتي وعجزي تحت شجرة النبق وسط الكتب والكرّاسات حتى إنها لم تلملم أشياءها.

دخلت المطبخ حيث تقف جدتي تعدّ طعام الغداء، أثرُ البكاء بادٍ في احمرار عينيّ، سألتني، فأجبتها، قالت بأسى المغلوب على أمره:

«عمّك راكب دماغه، ومصمم على رأيه.»

«والمدرسة يا جدة، زينب متفوقة وتحب الدراسة!»

شردتْ وهي تقلّب ما تطبخه في القِدر فوق السّبِرتايه[5]، يبدو أنها تذكرت شيئًا ما:

[5] أحد وسائل الحصول على الطاقة الحرارية لأغراض الطهي عن طريق حرق الكيروسين، عبارة عن مجسم معدني، قاعدته مستديرة، يوضع به الغاز الذي يساعد على الاشتعال، ويصعد في تجويف بشكل عمودي متصل بالقاع الذي يمده بالغاز، عن طريق خيوط قطنية (فتيل).

«جدتي، حاولي مع عمي. لأجل زينب ولأجلي حاولي معه. كيف يعني تتزو..»

«عمِّك أعطى الرجل كلمة وانتهينا. كفّي عن الكلام في هذا الموضوع. أنتِ ما زلتِ صغيرة!»

ما زلتُ صغيرة؟! وزينب.. هل كبرت؟

عام واحد هو الفارق بيني وبينها، أم لأن جسدها ممتلئ قليلًا. هل امتلاء جسدها سيكون لعنة تجعلها تَكْبر في نظرهم قبل الأوان؟!

أردت أن أصرخ بكلامي هذا في وجه جدتي. لم أستطع، لُذتُ بالصمت لمّا رأيت دموعًا عالقة بجفونها المتهدلة. حاولتْ إخفاءها، لكنني رأيتُها.

في الليل، فتحت عيني على يد تهزُّني برفق. كانت زينب. فركتُ عيني:

«زينب!»

«اخفضي صوتك، لا توقظي جدتي.»

همستُ إليها:

«الجوَّ باردٌ، االقترببوخذي طرفًا من البطانية.»

«لا، سأعود إلى غرفتي، لكن..»

«زينب، ما لك؟ وما هذه الرائحة؟»

تجاهلت أسئلتي ومدت إليّ حقيبة:

«خذي هذه الحقيبة. هي لكِ بكل ما فيها.»

«لكن.. هذه حقيبتكِ!»

«نسيتِ؟ لن أذهب إلى المدرسة.»

قالتها بنبرة هادئة تخفي انكسارًا مؤلمًا. حاولت أن أواسيها:

«سنحاول يا زينب، تحدثت مع جدتي سـ ...»

لكنها وضعت يدها على كتفي وربتت عليه برفق:

«دعكِ من هذا الآن. اسمعيني، لا تسمحي لأحد أن يضايقك، كوني قوية. لا تلتفتي لكلام البنات. اهتمي بمذاكرتك، ها.. لا تنسي، اهتمي بها كثيرًا.»

«هل جئتِ الآن لتقولي هذا الكلام؟!»

وهي تقاوم دموعها:

«لا، جئت أيضا لأراكِ.»

«لا تبكي يا زينب، لأجل خاطري. لا أستطيع رؤية دموعك.»

بيدها الحنون مسحت دموعها، ثم مسحت دموعي قائلة:

«نامي الآن.»

«نامي بجانبي، الصبح اقترب..»

«لا، سأعود إلى غرفتي.»

طبعتْ قبلة على جبيني وانصرفتْ. غادرت الغرفة تاركة وراءها رائحة من حزن عميق وشعورًا بالعجز كان يثقل صدري. لولا سلطان النوم الذي سيطر على جميع جوارحي، لتمسكت بردائها لتبقى معي حتى الصباح.

قضيتُ السنوات التي أعقبت تلك الليلة أعضّ أناملي ندمًا، متسائلة مع كل لحظة ألم: كيف تركتها تنصرف؟ ليتني أمسكت بيدها، ليتني رفعت صوتي فأيقظتُ جدتي، ليتني فعلت شيئا، أيَّ شيء، يمنعها من المغادرة.

قبيل الفجر، أفقتُ فزعة على صرخات مدوِّية، نحيب زوجة عمي وصوت جدتي تهرول نحوها. ركضت خلفهت، وما إن وطأت قدماي الحوش حتى شعرت بسواد يبتلعني، سواد لا نهاية له، حُفِر في ذاكرتي وكأنما نقض على صخر.

كانت زينب كتلة متفحمة ملقاة بجانب حزم البوص التي أكلتها النار وأحالتها رمادًا. زوجة عمي تلطم وجهها حتى تَضرّجَ كُلّه بالدّم. تشقّ ثوبها إلى منتصفه، وتتمرّغ في الأرض، يخالط التراب والرماد وجهها، وعمي يجرى كالمجنون، عمامته ساقطة، متلطّخة برماد زينب. إخوتي وأبناء عمي حملوها على سيارة واندفعوا إلى الخارج قاصدين أقرب طبيب، وجدتي تنوح، يعلو نشيجها وهي تقبض على يدي تارة، وتارة تضع يدها على عيني، وكأنها لا تريد لهذه المشاهد أن تخزّن في ذاكرتي. تكلّست الدموع في عينيّ وانعقد لساني. تركت يد جدتي وتقرفصت في أحد الأركان.

أما عمتي، فكانت تجلس على عتبة غرفتها، تردد كلمات غريبة، لولا لطماتها المتتالية وصرخاتها الفجائية المتقطعة لقلت إنها كانت تغني!

وصلت الشرطة، اقتادت عمي وزوجته، غابا لساعات، عادا بعدها، لكن زينب لم تعد. قالوا للناس إن حريقا شبّ في البيت، وكانت زينب من جملة ما أكله الحريق.

دموع جدتي وكلماتها لعمي لا تزال تتردد في أذني، قالت له وهو جالس فوق الدِّكة ينظر بعين غائمة إلى الفراغ:

«ارتحت يا وليدي؟ روح يا محمود ربي وقلبي غضبانين عليك.»

بقيتُ أياما لا أتكلم. ثَقُل لساني، وكأنه فقد القدرة على الحركة. أستيقظ من نومي فزِعة فتخِفّ جدتي إليّ. طلبتْ من خالي أن يرقيني، جاء وقرأ الرُّقى. لم تكن لدي طاقة إلا على البكاء. بكيت زينب الأخت، الصديقة الوحيدة، والأم أحيانًا حين تبالغ في إرضائي. بكيت ذكرياتنا معًا. بكيتها تحت شجرة النبق، هي أيضًا بكتها معي. نعم، رأيتُ دموعها! ألم تقل لنا معلمة العلوم إن النبات كائن حي؟ كانت شجرة النبق ثالثتنا. تحت أغصانها قضينا أسعد لحظاتنا.

بكيت زينب في السر والعلن، بكيتها في حضن جدتي، وبكيتها وحدي ليلًا. كنت أبكي نفسي أيضًا، أبكي وحدة ستلتهمني بعدها، وخوفي من العالم الذي عليّ مواجهته وحدي. كرهت عمي، وكرهت متولي الجزار ودكانه. في كل مرة أمر بها أمامه أتجنّب النظر إليه، تمنّيت لو كان للشارع مدخلٌ آخر حتى لا أمرُّ أمامه أبدًا.

«كيف فعلتِها يا زينب؟»

سؤالٌ ظل يلازمني، يؤرق ليلي ونهاري. للآن لم أعرف له إجابة تشفي غليلي وتطفئ نارًا أُضرمت داخلي برحيل زينب. تمنيت لو تعود حتى أسألها. كانت ستجيبني كما أجابتني عن كل سؤال سألته لها حتى اليوم.

سؤال آخر وددت لو أنها تجيبني عنه: عندما أشتاق إليها، ماذا أفعل؟!

جمعت صورها، الخاصة بها وتلك التي جمعتنا معًا. عندما طلبتها من زوجة عمي، ضمّتني إلى صدرها وهي تبكي. أعطتني الألبوم قائلة:

«أنتِ أحقّ الناس به، يا ابنتي.»

كانت جدتي تحاول جاهدة تعويضي عن غيابها. بمبخرتها النحاسيّة العتيقة التي تعبق بخلطة بخورها الخاصة، تطوف حولي كل يوم، تقنع نفسها أن في بخورها الشفاء. كنت أعيش صراعًا داخليًا. يوم قلت لجدتي إنني اشتقت إلى زينب، خِفت أن أخبرها برغبتي في الرحيل مثلها. أتذكّر كلمات خالي الشيخ: «قتل النفس من أكبر المحرّمات.» هل أرتكب أكبر المحرمات وأنا الحافظة لكتاب الله؟ لكن، ألم تكن زينب تحفظه أيضًا؟ لكنهم أجبروها. نعم، لم يتركوا لها مجالًا للاختيار، أرادوا تزويجها لرجل في عمر أبيها وهي الطفلة التي لم تعِ شيئًا بعد. قالوا كبُرت لمجرد امتلاء جسدها. ليتها كانت نحيفة مثلي ما كان لهذا الجزَّار أن يرى فيها زوجة فيطلبها.

قبل رحيل زينب كنت أُوصف بالانطوائية، ليس لي من الأصدقاء سوى ابنة عمي، وبعد رحيلها أصبحتُ الانطوائية الكاملة. لا أصادق أحدًا

أو أختلط بأحد. سمر فقط حافظتْ على مسافة من الود وفاءً لصديقتها، وكنتُ أسمح لها بتلك المسافة كرامةً لزينب أيضًا. ظلّت كذلك حتى افترقنا بدخولها الثانوية الصناعية.

.....

من بين الأشياء القليلة التي كنت أفخر بها، وسام الشهادة الذي ارتبط باسم أبي. عندما يهلُّ شهر أكتوبر كل عام، يخصص معلم اللغة العربية حصة التعبير للحديث عن الانتصار العظيم. يملؤني الزهو وأنا أتحدث عن أبي، أحد الذين قدّموا أرواحهم ثمنًا لهذا النصر العظيم. في العام الماضي أخذتُ معي الصورة التي تجمعه بصديقه من صندوق جدتي بعد أن استأذنتها فأذنت. أريتها لزملائي في الفصل، وحكيت لهم عن أبي الشهيد وزيّه العسكري، وعن صديقه المجهول بالنسبة لي، الذي ربما استشهد كما استشهد أبي، أو ربما لا يزال حيا. وبينما كنت أحكي لهم، شعرت كأنني أروي خطة محكمة لانتصار عظيم في حرب لا تنتهي.

جاء هذا العام مختلفًا عن سابقيه؛ كان آخر عام أتذوق فيه طعم الزهو بالشهادة!

كنّا في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية عندما انضمت طالبة جديدة إلى فصلنا، انتقلت مع أمها للسكن في قريتنا بعد أن كانت تعيش في إحدى محافظات وجه بحري. حكت لنا تلك الطالبة كيف يتم تكريم

أسرتها كل عام بمناسبة ذكرى الحرب. وأخذت تُعدد ما يُغدَق عليهم من عطايا كرامة لأبيها الشهيد.

وقفت، عاجزة عن الحراك، وأنا أستمع إليها، وكأن كلماتها طعنتني في الصميم. ما الفرق بيني وبينها؟ ألس أبي أيضًا شهيدًا كما تدّعي جدتي؟ حكيت لجدتي. قالت كلامًا كثيرًا لم أقتنع بحرف منه. ظلّ السؤال يطاردني، حتى عرفت فيما بعد أنه ليس كل من يموت في الحرب يعدّ شهيدًا ..

أنهيتُ الإعدادية بتفوّق، وحصلت على مجموع كبير يؤهلني لدخول الثانوية العامة، لكن عليّ أولاً إقناع إخوتي بالأمر.

«ما لها والثانوية يا خال؟» قال أحدهم.

«في النهاية مصيرها إلى البيت والزواج، لماذا وجع القلب؟» أضاف آخر.

زادت آمنة من تعقيد الموقف حين أضافت:

«الثانوية مصاريفها كتير، الثانوية لمن يريدون دخول الجامعات.»

وددتُ لو أصرخ في وجهها:

«بأي حقّ تتدخلين في مستقبلي؟ من تكونين لتفعلي ذلك؟»

لكن صفة في شخصيتي أكرهها وأتمنى لو كان بإمكاني التخلّص منها، وهي أنني لا أقوى على مواجهة الناس. أُعِدُّ ردودًا تقصف جبهة من أمامي، آخذ بها حقي (تالت ومتلّت). سناريوهات طويلة أنتصر فيها لنفسي، لكنها تظل داخلي، لا يسمعها أحد سواي. في المبارزات الكلامية كنت ضعيفة، ضعيفة جدًا.

لم يفعلها أيّ من بنات العائلة أو شبابها، لم يدخل الثانوية سوى ابن عم لي، لكن سرعان ما تركها بعد رسوبه مرتين.

عارض إخوتي الأمر بشدة، وكأنني أرتكب حطيئة عظيمة ستجلب العار على العائلة!

وسط هذه العاصفة التي قوبل بها حلمي بالاستمرار في الدراسة، كانت جدتي وخالي هما المصدر الوحيد للسكينة، وقد نجحا في إقناع إخوتي. دخلت الثانوية وأنا أزهو بفرح عارم وهِمّة قوية، بينما كانت جدتي تُشيِّعني كل صباح بجرعة وصاياها اليومية:

«امشي في الشارع مِشية عسكري. لا تتكلمي مع أحد، ولا ترفعي صوتك أثناء الحديث.»

«هذه الطرحة قصيرة، لا تذهبي بها، لملمي شعرك جيدًا. لو رأيت خصلة منه خارج الطرحة سأقصها، سمعتِ؟»

لكن انشغالي بالمذاكرة لم يرق لآمنة أو فوزية ابنة عمي، التي تزوّجها أخي ناصر بأمرٍ من سعد. لم يكن ناصر موافقًا على هذه الزيجة لكون فوزية أرملة وهو لم يتزوج بعد، لكنه لم يقوَ على رفض قرار سعد. ظننت أن علاقتي بفوزية ستكون مختلفة، بحكم ما بيننا من قربى، لكن سرعان ما خاب ظني، وعرفت أنها لن تختلف عن آمنة في كثير أو قليل. كان التعليم بالنسبة لزوجات إخوتي رفاهية محضة، أتمتع بها فقط لأن جدتي دللتني أكثر من اللازم.

ظلت جدتي نعمات الملاذ الآمن والحصن الذي ألوذ به عند كل نازلة. تقف إلى جانبي صلبة كجذع شجرة عتيقة. في أيام الدراسة تحرص على ألا يشغلني شيء سوى المذاكرة. أما في الإجازات، فتحرص على تعليمي كل صغيرة وكبيرة في شؤون البيت:

«حتى لا يقول الناس: خيّبتْ بنت ولدها.»

رغم حبي العميق للأرقام وميلي للمواد العلمية، التحقت بالقسم الأدبي. لم يكن ذلك اختياري الحر، بل جاء كنتيجة حتمية اقتصادية، كنت أعلم أنني لن أستطيع الحصول على دروس خصوصية أو الاشتراك في مجموعات التقوية التي يحتاجها القسم العلمي، هذا يعني تكاليف إضافية سيضيق بها إخوتي الذين بالكاد يكافحون لتغطية احتياجاتنا.

وحين قاربت على الانتهاء من دراستي الثّانوية، بدأت معركة إقناعهم بالتحاقي بالجامعة. كان البكاء سلاحي، امتنعتُ كذلك عن تناول الطعام، ولجأتُ لخالي. بقدرته الفذة على الإقناع، نجح في إقناع عمي بالفكرة، ثم استعان به على تليين قلوب أبناء أخيه.

كانت أمنية خالي أن ألتحق بكلية التربية:

«أرى فيكِ معلمة بارعة يا راوية».

لكنني أخبرته برغبتي في الالتحاق بكلية التجارة، فتمنّى لي التوفيق.

اقتنعت جدتي بفكرة الجامعة، لكنها على مضض تقبّلت سفري إلى أسيوط. غيابي عن البيت أسبوعًا كاملًا أو أكثر كان كابوسًا يسرق النوم من عينيها. تبدلت وصاياها لتناسب فتاة تقف على مشارف العشرين.

«خدي بالك من نفسك، صاحبي بنت الناس المؤدبة، ولا تأمني لأحد لا تعرفيه..»

«لا تثقي في أحد بسهولة، جربيه مرة واثنين.»

«شرف البنت زي عود الكبريت، ما يولع غير مرة واحدة. راعي لنفسك يا بنتي، واحرسي روحك من الغريب.»

في مساء من أمسية الشتاء الباردة، ألمّ بجسدها وهنٌ لم تعره اهتمامًا. اشتكت من مغص ظنته عابرًا. قالت لي:

«حبّة برد ويروحوا لحالهم، اعملي شاي أخضر بالليمون.»

رفضت جدتي زيارة الطبيب، واكتفت بمشروباتها العلاجية، شربت الشاي بالليمون، والينسون. ولكن الألم اشتد عليها، فاضطر عمي لإحضار طبيب إلى البيت. ثلاثة أيام فقط بعد زيارة الطبيب الذي كتب أنواعًا من العقاقير تكفي لعائلة بأكملها دون تشخيص واضح، رحلت جدتي تاركة بداخلي فراغًا لم يملأه أحد. كان فقدانها بمثابة خريف مباغت اجتثّ جزءًا من روحي.

بينما كانت تحتضر على فراش المرض أوصت إخوتي:

«حطوا أختكم في عيونكم يا سعد، ما لها غيركم يا وليدي، لا تفعلوا بها كما فعل عمك بعمتك.»

أخي سعد لم يقصّر في تضييع وصيتك يا جدة!

حاول منع استمراري في الدراسة. كنت أطأطئ رأسي لريح غضبه حتى تمر، علّمني خالي كيف أفعلها.

أحببت الدراسة في كلية التجارة، ازددت تعلقًا بأسيوط والسفر بالقطار. في السكن الجامعي تعرّفت على كثيرات، ظلّت علاقتي بهنّ سطحية، كنّ لي مجرد زميلات يجمعني بهنّ سكن أو دراسة. أخشى الاقتراب الشديد من الغرباء، وأفضّل الحفاظ على مسافة آمنة بيني وبينهم.

بعد رحيل جدتي بشهور ستة، فقدت خالي الشيخ سليمان الشافعي. أحسست أن نور الدنيا قد انطفأ. حزنت على فراقه، سأشتاق قلبه الذي أحبّني، علمه الذي أعطانيه، ورائحة أمي التي أشتمها فيه.

أما الحاجة جُوهرة فكان لوفاتها أثر كبير في النفوس. توفّيت زوجة خالي الحنون الوفيّة بعد رحيل زوجها بأسبوع واحد، أسبوع قضته على فراش المرض، لم تلبث بعده أن أسلمت الروح لخالقها لتلحق بزوجها الذي لم تتحمّل فراقه سوى أيام معدودات.

دراستي لم تكن تعني لإخوتي شيئا يُذكر، إلا عاصم الذي يكبرني بثلاث سنوات فقط. كان الوحيد الذي يكترث لأمري، يسألني عن دراستي

وأحوالي في الجامعة، ويصاحبني إلى محطة القطار صباح كل سبت، منتظرًا عودتي آخر الأسبوع. كان اهتمامه شعاعًا دافئًا في أيام خبا فيها النور.

الحياة في قريتي هادئة إلى حد كبير، الهدوء فيها يبعث على التأمل، تبدو وكأنها بيئة خصبة للإبداع. لكن خلف هذا الوجه الجميل يقبع ألف وجه للقبح. في القرية، يتدخل الناس في حياة بعضهم البعض تدخلًا سافرًا في أشد الأمور خصوصية. من الطبيعي أن يرى المرء ألف أنف محشورة في حياته، بشكل يدعو إلى الغثيان، وربما يسمع، لأول مرة، قصصًا هو بطلها.

كنت سعيدة لكوني لا أشغل بال أحد. أختفي أسبوعًا كاملًا، أو أكثر، ثم أعود لأقضي ساعات معدودات، أرجع بعدها إلى أسيوط. حتى جاء ذلك اليوم.

يوم تقدم لي أحدهم، لم أهتم بمعرفة شيء عنه. رفضت الموضوع برمته؛ لن أرتبط حتى أُنهي دراستي، هذا قراري. أما سعد، فكان له رأيٌ آخر.

من سيقف بجانبي ضد سعد هذه المرة؟ لم تعد جدّتي هنا، رحل خالي أيضًا. شكوت لعاصم وأخبرته برغبتي في إنهاء دراستي أولًا. اقتنع برأيي وطمأنني، لكن هل يقوى عاصم على مواجهة سعد إن وافق؟

لدى عودتي من أسيوط في الأسبوع التالي، عرفت من عاصم أن الموضوع انتهى؛ لأنهم عند سؤالهم عن الرجل، علموا بزواجه من أخرى. لم

يرفض سعد لكون الرجل متزوجًا، بل لأنه أخفى أمر زواجه. ليكن ما يكون، المهم أنني تخلّصت من الأمر.

لم تكن عمتي أتمّت الستين من أعوام عزلتها، عندما جاء المساء الذي طرقت فيه فوزية باب حجرتها مرة ومرتين وثلاث، وهي تمسك بصينية العشاء. لم تُجبها. زادت حدة الطرقات، ثم استنجدت بإخوتي. كسر سعد الباب المغلق من الداخل، ليجد عمتي ملقاة على الأرض، غائبة عن الوعي.

كنت أعطيها العلاج بعد الغداء، لحظة همست في أذني:

«اطمئني يا راوية، حظك لن يكون كحظ عمتك، ستدركين ذات يوم أن الفقر نعمة يا ابنة أخي.»

فارقت عمتي الحياة ذات صبيحة غائمة، فاضت روحها المثقلة بالهموم حيث لا هم ولا تعب ولا أحزان.

هل كنت أكثر حظًّا منكِ يا عمتي؟ أسأل نفسي الآن ولا إجابة لدي!

تزوجت ابنة أخيكِ، وأنجبت، وذاقت السعادة التي حُرِمتِ منها. لكنها سعادة مرقت كحلم، حلم استحال كابوسًا يا عمتي، كابوس رافقني طوال العمر.

راوية

«القلب ضعيف جدًا، لا يستجيب.»

قالها الطبيب الواقف فوق رأسي.

عبثًا يحاولون إرجاع الحياة لقلب فقدها منذ زمن طويل

قلبي لم يضعف الآن، أصاب الضعف قلبي منذ لحقته لعنة الفراق قبل أكثر من عشرين عامًا. أَعجب له، كيف صمد قلبي طوال هذه السنين؟ كيف قاوم؟ يحاصرني الأطباء كعاصفة ثلجية، فهل هؤلاء مَن سيعيدون لقلبي نبضه؟ فأيّ نبض دون ولدي؟!

آدم، يا قلب أمك، كيف أحيا إن تركتني؟

رفضت العودة إلى الصعيد، لكنني أقنعتك، قبلتَ إكرامًا لي وجبرًا لخاطر أختك. لم أكن أعلم أنني ألقي بك في النار التي حاربتُ حتى أجنِّبك إياها طوال عشرين سنة.

أَتَذْكُر حين سافرت إلى سوهاج لمؤتمر طبي كنت ستحضره هناك؟

كم اعتصر قلبي قلقًا عليك. سخِرت مني أختك وقتها واتهمتني بالمبالغة.

لا أزال أتذكّر تلك اللحظات كما لو أنها حدثت الآن ..

.....

فتحت عيني وقد تكسّرت عظام ظهري من أثر النوم على كنبة الصالون.
صوت ليلى تسألني:
- هل نمتِ هنا، يا ماما؟
مسحت وجهي براحة يدي، ثم سألتها:
- أخوكِ اتصل؟
أجابتني وهي تلتفت إلى هاتفها:
- اتصلت ميرنا، وقالت إنّه بخير، وصل قبل ساعة.
قلت بنبرة مملوءة بالغضب:
- اتصل بزوجته قبلي؟
- حاول الاتصال بنا، لكن الشبكة سيئة هناك بسبب الأمطار، أرسل لها على الواتساب.
- قلت له يطمئنني بمجرد وصوله.
قالت وهي تلوِّح بالـ (هاند فري) في يدها:
- الدكتور آدم عمر، المرشّح لمنصب نائب مدير المستشفى الاستثماري الكبير، أمه قلقةٌ عليه وتعنِّفه لعدم اتصاله بها لمدة ساعتين كاملتين. خبر مثير، أليس كذلك يا ماما؟ قلقك غير طبيعي يا رورو، غير طبيعي.
أمسكتُ هاتفي لأعرف الساعة، كانت تقترب من الحادية عشرة مساء.
طوَّقت مشاكِستي بذراعي، وقلت:
- قلب الأم لا يعرف البديهيات، يا باش مهندسة.

رأيت في عينيها تأهّب أعرفه، ستفتح سيرة أهل أبيها. ابنتي وأعرفها، عنيدة، لا تسمع سوى صوت رأسها.

- هل كل نساء الصعيد قلوبهن رقيقة هكذا؟

ضحكتُ، ليس من سؤالها، بل من اعتقادها أن طريقتها هذه ستنطلي عليّ. ثمة شيء يعبث برأسها. منذ شهرين وهي تحشر سيرة الصعيد وأهله في حديثها بشكل ملحوظ. لم تكن تبدي اهتمامًا بالسؤال عنهم من قبل. لست أدرى ما الذي جرى فجأة، فأضحى سؤالها عنهم يتكرر. حدثتها كثيرًا عن أبيها، لكن أهله دفنت سيرتهم منذ زمن بعيد، وإن كانت الذكرى بداخلي حيَّة، تتغذَّى على صحَّتي وأعصابي، تلتهم جزءًا مني مع كل يوم ينقضي. تظل الذكريات المؤلمة نابضة بالحياة مهما اجتهدنا في وأدها.

قبل يومين كانت تجلس قبالتي، تتابع حلقة من «مسلسل صعيدي». أثار الأمر استغرابي؛ فليس من عادتها أن تنشغل بمشاهدة الدراما العربية. شعرت أنها تفعل ذلك عمدًا لتجد مدخلًا للحديث معي. نظرت إلى الشاشة، ثم إليها، وتسللت نظراتي بين المشهدين، ورغم ترددي جلست أشاركها المشاهدة. مع ذلك، سرعان ما تملّكتني نفحات الضيق. الأداء المبالغ، اللهجة المشوّة، والحكايات الغريبة كانت أكثر مما أتحمله. قمت وكأنني أهرب من عبء لا طاقة لي به.

أعجبُ لأولئك الذين يدّعون أنهم ينقلون الواقع عبر فنهم، وهم في المقابل لا يكلفون أنفسهم عناء النزول إلى هذا الواقع، لم يطأوا أرضه

يومًا، لم يسمعوا حكايات أزقته، ولم يشتموا رائحة الحقول عند الغروب. الصعيد يختلف عن هذه النمطية المخجلة، والأداء الكاريكاتوري المبتذل الذي يثير السخرية. أشعر حين أراقب الممثلين وهم يؤدون أدوار الصعايدة وكأنني في حضرة كائنات غريبة تنتمي إلى عالم خيالي بائس، عالم قائم على المبالغة دون أدنى فهم.

الصعيد يا ليلى؟!

منه هربت أمُّك، محتمية بظلام ليلِه الأكحل. هربتُ بأخيك في يدي، وأنتِ جنين يتحرك بين أحشائي. أيقنت ليلتها أني سأفقدك، لكن الله أراد لكِ الحياة رغم قسوة الرحلة.

تريد أمكِ يا ليلى الهروب من الذِّكرى، وتصرّين أنتِ على فتح الجراح.

نساء الصعيد؟!

صغيرة أنتِ مهما كبرتِ. نعم.. من لا يعرف يظل طفلًا، فالمعرفة مؤلمة، تُدمي القلوب وتُثقِل الأجساد فتشيخ قبل أوانها. ذكَّرني سؤالها بـــ حُسْن، آه لو عرفتِها يا ليلى، ما كنتِ تسألينني هذا السؤال.

كم هو سهلٌ طرح الأسئلة!

أما الإجابات، فدائمًا ما تثقل الروح. والإجابة عن سؤال كهذا تتطلب العودة إلى الماضي، يؤلمني يا ابنتي الرجوع إلى الوراء. يذكّرني بما لا أريد تذكُّره، ويحيي في داخلي ما أسعى إلى وأده.

تحمل ابنتي بين ضلوعها قلبًا رقيقًا مُحبًّا رغم عنادها وصلابة رأسها. حاربت حتى أربِّيها وأخيها في مجتمع كنت عنه غريبة. أذكر عندما دخلَتِ الثانوية وازداد قلقي عليها في كل مرة تخرج من البيت..

«ضروري يعني أتصل بكِ كل مرة أخرج فيها من الدرس يا ماما؟ أنا كبرت!»

«ألا تثقين بي؟ ليس بين صديقاتي من تتصرف أمها مثلك!»

أدركت أن في الأمر (إنّ)، احتضنتها، ثم أجلستها أمامي:

«من ضايقك، يا ليلى؟»

قالت إن إحدى زميلاتها تسخر منها بسبب اتصالها بي كلما انتهت من درس، أو تحركت من مكان لآخر.

«قولي لها: ليس لأنكِ صغيرة، أو لأنني لا أثق بكِ، هذا بديهي في زمن تضاءل فيه الأمان وانتشرت الحوادث»

«لكنك تبالغين، تقيّدين حريتي بتصرّفاتك!»

«حريّتك لا تتعارض مع خوفي عليكِ، قلب الأم لا يُسأل يا ليلى، لا يخضع لمنطق ولا تجري عليه مقاييس البشر.»

عبثتْ بشعرها، هدأت ثورتها قليلا:

«أعرف يا ماما، لكن تسخر منّي البنات، يضحكن من قلقكِ الزائد.»

أمسكت كفيها وعيني تبتلع دمعها:

«غدًا عندما تصبحن أمهات، وتجربن شعور الخوف على الضَّنا، ستفهمن. قولي لهن إن أمك (دقّة قديمة) أخبريهن أن لأمك قلبًا يفرفط قلقًا كلما خرجتِ وفارقتها، ولا يهدأ إلا بعودتكِ.»

ربَّيتها على حريّة الاختيار وتحمّل مسؤولية خِياراتها، كدت أندم وأعتبر نفسي فشلت في تربيتها لمَّا وجدتها ترفض الحجاب، وتقول إنه يقيّد حريّتها ويقوّض مساحتها الخاصة! لكنني فوجئت بها قبل عامين ترتدي الحجاب من تلقاء نفسها، وتنشر (بوست) تحكي فيه عن شعورها في أول يوم لها بعد ارتدائه!

وفي الجامعة، اختارت دراسة الهندسة وتخصَّصت في العمارة. هي أيضًا رسّامة بارعة. (م.ف. ليلى عمر) هكذا تكتب اسمها منذ كانت في الإعدادية. وعندما أسألها عن دلالة هذين الحرفين، تجيب بثقة:

«واضحة يا ماما، المهندسة الفنانة ليلى عمر!»

كانت في الثانوية يوم جاءتني فرِحة تُرِيني بعض الصور:

«هذه محطة قطار ستراسبورج بألمانيا، وهذه منصة التزحلق في إنسبروك بالنمسا، تعرفين من صممت هذه التحف المعمارية يا ماما؟ المعمارية العراقية زَها حديد. قريبًا ابنتك ستكون مثلها!»

كانت تربيتها وأخيها أكبر تحدٍ في حياتي، لولا لطف الله بأَمَتِه ورفقة الصالحين الذين سخّرهم لنا. وحده يعلم ماذا كان مصيرنا ليكون حينها. كان عليّ أن أستوعب ما وصلتُ إليه جيدا، أرملة شابة مسؤولة عن طفل

في التاسعة وجنين لا يزال في علم الغيب، في مجتمع لا أدري عن أبجدية أهله شيئًا. هل كانت جدتي، رحمها الله، لِتصدّق أن حفيدتها المنطوية على ذاتها ستفعل ما فعلت؟قق

كان تحقيق رغبتي في ترك قنا بأكملها انتصارا أزاح عن كاهلي الخوف مما سألاقي في قادم الأيام. سيطر الغضب عليّ، تملّكني شعور الانتقام، نعم.. لم يكن هروبي من البلد خوفًا من الموت الذي أغرق الجميع كطوفان، النساء لا يُقْتَلْنَ في مثل هذه الظروف. لكنني رأيت في الهروب انتقامًا من إخوتي الذين سيُعيَّرون برحيل أختهم، قلت: غدًا تأكل النّاس وجوههم. وكان أيضا انتقامًا من أهل عمر؛ حرمانهم من أحفادهم كان جزاء وِفاقًا بعد حرماني من ابني وزوجي دفعة واحدة.

عندما ذكرتْ ليلى أهل أبيها أول مرة قبل شهرين، تجاهلتُ سؤالَها، فأعادته بطريقة أخرى كعادتها معي عندما أتجاهل. غضبتُ يومها وصرخت في وجهها، تفاجأتْ من غضبتي، اعتذرتْ وانصرفتْ إلى غرفتها.

«تعرفين يا ليلى أنني غلَّقت الأبواب في وجوههم منذ زمن.»

«لم تكوني على وِفاق معهم يا أمي، أعرف، لكنهم في النهاية أهلي. من حقي أن أعرفهم على الأقل.»

أهلك؟!

كانت كلمتها مُدْيَة غُرِزَت في قلبي، أعادت إليه مذاق الطعنة الأولى. لا تعلم هي من الماضي شيئًا، لا تعرف ما حدث لأبيها وأخيها. ليس في

حساباتي إخبارها. أصبح لدينا حياتنا الخاصة هنا، ما لنا ووجع القلب هناك؟! حياتنا هنا وليست في أي مكان آخر. حاربتُ الجميع حتى أصل إلى هذه النتيجة. تحاملتُ يومها على جراحي، ودفنت نيران الذكرى في قلبي، أعطيتُها ردودًا سطحية لم تُشبِع فضولها، ولم تُرح عقلها الذي لا يكفّ عن التساؤل. أوقن أن ثمة ما يشغلها وتخفيه عني.

- ماما، كل هذا الشرود بسبب سؤال؟ هو صعب لهذه الدرجة؟

- قلوب الأمهات واحدة، يا ليلى. لا تعرف مكانًا أو زمانًا، قلوبهن طيبةٌ في كل حين.

تركتها قبل أن ترهقني بأسئلة أخرى. لستُ في حال يسمح لي بالمزيد من التماسك. يكفيني ما فعله أخوها اليوم وما يعتصرني من القلق عليه.

دخلتُ غرفتي لعلّي أظفر بلحظات نوم قصيرة. وضعتُ رأسي على الوسادة، يلهج لساني بأذكار النوم التي تواسي روحي المضطربة، بينما قلبي يتقلب بين نيران الأرق. لولا مرض السكري لأدمنت المهدئات. لم أكن تجاوزت الأربعين عندما بدأت رحلتي مع مرض السكري الذي سرعان ما استدعى إخوته: الضغط والقلب ليستوطنوا جسدي. اقترح عليّ آدم تسوية معاشي، رفضت وأقنعته أن أمه لا تزال قوية، لكن المرض أرغمني على فعلِها.

أتذكر الكابوس والحالة التي تعصف بي بعده، فيفرّ النوم من عينيّ. نهضت من السرير، متجهة نحو الشرفة بعد ارتداء معطف لمواجهة البرودة

النسبية لديسمبر. الساعة تخطّت الواحدة بعد منتصف الليل. الشوارع شبه خالية من المارة، وحركة السيّارات تكاد تنعدم. ليلة غائمة يطلُّ القمر فيها على استحياء، يحمل على أكتافه سنوات العمر الماضية، يُدبِر كحلم لم يتحقق، وتُحلِّق الغيوم حوله كمجموعة من القصائد العابرة.

منذ عام ونصف تقريبًا، انتقلنا إلى هذه العمارة التي تبدو خالية من الروح في مدينة السادس من أكتوبر. أصرّ آدم على ذلك، أيَّدته ليلى فرضختُ لرغبتهما. كانا يريان أن الحياة بحيّ السيّدة زينب لم تعد تليق بنا. هل هكذا هو الإنسان عندما تتغيّر حياته للأفضل؟ يجحد أول ما يجحد حياته القديمة وما يذكّره بها. شقّة السيّدة هي الحضن الذي تلقّفنا عند مجيئنا إلى القاهرة. استأجرها لنا يونس في العمارة نفسها التي تضم عيادته. شهدت تلك الشقّة أيام حزني الأولي، خوفي على أبنائي، ودموعًا وآلامًا دامت لعشرين عامًا.

في صمت الليل الثقيل، يحلو للذكريات الانفراد بي. لا تتركني حتى تزيد الروح رهقًا على رهق. أستجيب لها، رغم علمي بكيدها، هي تعرف جيّدًا كيف تسحبني إلى الفخ!

بداية تُسلِّط عليّ لساني فيتمتم بأبيات يحفظها عن ظهر قلب:

كن حيث ما شئتَ من قربٍ ومن بعد ... فالقلب يرعاك إن لم يرعك النظرُ
غَنَّى بذكرك قلبي حين بان له ... لكنَّ طرفي إلى رؤياك مفتقرُ

قرأت مرة قولًا للرافعي:

«والحبيب يتحوّل إلى كلمةٍ أو قِبلةٍ أو معنى من المعاني، إذا أراد مُحِبُّه أن ينقله معه إلى أي مكان وهو باقٍ في مكانه.»

عمر وهذان البيتان أصبحا عندي نعتًا ومنعوتًا، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر. أذكر لحظة سمعتُهما من عمر لأول مرة، لطالما أسرتني طريقته في إلقاء القصائد!

«الله، كم جميلة هذه الأبيات! لمن؟»

«للخبز أرزي.»

«من؟»

«اسم الشاعر، الخبز أرزي.»

«اسم غريب، تعرف سر التسمية طبعًا!»

تُزيِّن وجهه ابتسامة صافية، وتلمع عيناه ببريق الحب، ثم يبدأ في المساومة:

«لا معلومات دون مقابل.»

أضحك وأنا أقبِّله بين عينيه:

«سأدفع ما تريد.»

فيسترسل في حديث عذب أتمنى ألا يتوقف أبدا:

«اسمعي يا ستّي، الخبز أرزي أو الخبز رزي، شاعر عراقي، علت شهرته حتى صار يُعرف بين الناس بالخبز أرزي، اسمه الحقيقي نصر بن أحمد بن نصر

بن مأمون البصري، وسُمي بالخبز أرزي لأنه كان يخبز خبز الأرز في دكانه، وينشد أشعاره في الغزل، فيزدحم الناس عليه و...»

يقول ويقول حتى ينسى نفسه كعادته عندما يتعلق الكلام بالشعر والأدب، عالمه الذي عشقه وعاش فيه، فاستكثروه عليه.

طرْفي إلى رؤياك اليوم مفتقر، يا عمر. عشرون عامًا ونيف من الافتقار إلى رؤياك تكفي لأن يُصاب القلب بأمراض الدنيا. على أبواب الخمسين الآن زوجتك. امرأة شاخت قبل أوانها. لك أن تتخيل حجم ما أصابها من تغيّر. لم يعد ذلك البريق الذي تغزلت فيه يسكن عينيها، انطفأ كل بريق بغيابك. كنت أفزع إليك حين تظمأ روحي أو يغرب عن دنياي الأمل، وبعد غيابك، كم أتى عليّ غروب، وكم أصاب روحي الظّمأ حتى انصهرت في بوتقة الحنين أو كادت.

مذ رحيله وإلى اليوم، تنتابني كل صباح رجفة شوق قاسية، رجفة لا ترحم، برودة تسري في خلاياي تتلهّف إلى دفء أنفاسه. احتياج يجتاحني بلا هوادة، يناديه كي يغمرني بكفيه الدافئتين، يجيبني طيفه الرحيم، فيمدّ نحوي ذراعين ملؤهما الحب والاحتواء، يلُفَّاني برقة في حضنه الدافئ. كنّا روحًا واحدة في جسدين، ليس زوجي فقط، كان عمر أبي وأخي وأحيانًا كثيرة ابني. عرفت معه كيف يكون الحب، أدركت معنى الأمان أول ما أدركته بين يديه. المعنى الحقيقي لأن أكون أنثى يحبّها رجل كعمر. كنت الصحراء التي تشقّقت أرضها عطشًا، وهو الماء البارد الذي أشبع عطشي

فاهتزت روحي ورَبَت. عشر سنوات عشتها معه كانت مثل عشر سنبلات خضر كل ما أتى بعدهنّ يابس. أصبح فؤادي فارغًا وشاخت روحي بعد رحيله. تشيخ الروح فجأة إذا ما فقدت إلفها، تبلغ من العمر عِتِيّا بينما شمس شبابها لم تشتد بعد، وماذا بعد فقد الروح للروح غير الموت!

«آه يا راوية!»

أنسى أدويتي، وأحيانًا كثيرة أنسى أين خبّأتُ الأشياء، لكنني أبدًا لم أنس الهموم التي تهشَّم قلبي على صخورها كعصفور ضعيف تكسّرت أجنحته. كلّما تهاجمني الذكرى، أشعر كأنني أغرق في تيارها الجارف من جديد، أتلمّس تفاصيلها بيد مرتعشة كأنها لوحة لم تجف ألوانها بعد.

أتذكَّر؟

وهل نسيت حتى أتذكَّر؟!

كم تمنّيت نسيان شعوري ساعة خبّروني بمقتل زوجي وابني البِكْري أمجد، زهرة عمري التي لم تكمل عِقدها الأول. كم تمنيت أن تُطفأ تلك اللحظة في رأسي كما تُطفأ الشموع الهشة. لكنها تأبى إلا أن تتوهّج في ذاكرتي، كنار لا تهدأ.

اللحظات بتفاصيلها ترتع في رأسي، لحظة خروجي إلى الشارع حافية في عباءة البيت، لا أرى ما أمامي، ولا أشعر بما حولي. رائحة الدم على ثياب أمجد لا تزال عالقة بأنفي كلعنة تأبى الزوال. تشبّثتُ به يومها، احتضنته بين ذراعي كمن يحاول اعتصار الحياة من بين أنياب الموت، كأن

دفئي سيعيد النبض إلى جسده البارد. صرخت كالمجذوبة وتركت نفسي فريسة لدوامة من الهلع والعجز. لطمت الخد وكِدت أشقّ الثوب. نسيت القرآن الذي حفظته، خانني الصبر، وبدا الإيمان حينها كالخيال، يهرب مني كلما مددت يدي إليه. كانت الصدمة الأولى أقوى من قدرتي على الاحتمال. عند المصائب الكبرى تنكشف حقيقتنا كصخور عارية بعد انحسار الموج. بدا جسده الصغير كزهرة اقتلعت من جذورها، ممددة بلا حياة، وجسد أبيه كان كجبل انهار فجأة، وكنتُ بينهما كمن تاه بين جرحين ينزفان. لا أدري فوق أيهما أنهار، وعلى أيهما أُسرف في النحيب. كلاهما قطعة مني، وكلاهما غادراني في لحظة واحدة، تركا قلبي يتأرجح بين فقدين كطائر كُسّرت أجنحته عالق بين السماء والأرض.

انطلقت ألسنة النسوة يولولنَ، صوت أم عمر وهي (تُعدّد) لا يزال صداه بأذني إلى اليوم:

«يا عود طري واتلوى.. مَيّل ومال ع الأرض، إمبارح كان وسطنا.. والليلة تحت الأرض.»

كم تمنيت نسيان الماضي، أخلعه عن ذاكرتي كما يخلع المرء ثوبًا ممزقًا. هجرت كل سبيل يصل بيني وبينه. لأول مرة أكتشف فوائد لفقدان الذاكرة!

ليس فقط أهل عمر، أهلي أيضًا قطعت علاقتي بهم. لم يبق لي منهم سوى عاصم فقط، أصغر إخوتي وأطيبهم قلبًا، حاول جاهدا أن يعيد وصل

ما انقطع. ظلّ يزورني كلما سنحت له فرصة المجيء إلى القاهرة، منذ سنوات لم أره، نتواصل فقط عبر الهاتف.

يشغلني ما تخفيه عني ليلى. تُرى، ما الذي تخفيه عني ابنتك يا عمر؟ كبرتْ، وما عاد بمقدوري مجاراتها، أتعبتني أكثر مما أتعبني الولد.

انتشلني من قبضة الذكريات، إشعار رسالة على الواتساب من يونس، آه يا يونس! لم يعد قلبي قادرًا على تحمل هموم جديدة.

«ستبقين عندي كما أنتِ، أنت وأبناؤك جزءٌ مني. ربما أخطأتُ فيما قلته لكِ في آخر لقاء بيننا. كان يجب عليّ الاحتفاظ به لنفسي، لا أدري ما الذي دفعني للبوح بما أخفيته لسنوات طويلة، ربما هو الضعف الذي يسرقنا أحيانا في لحظات اليأس، فليسامحني قلبك الذي اعتاد العطاء..»

رسالة يونس كانت كموجة تداعب جرحًا قديمًا، فتعيد فتحه بمهارة موجعة تثبت أن الذاكرة عدو لا يرحم وأن الألم لا يموت، بل يختبئ كرماد تحت نار خامدة، منتظرا أنفاس الزمن لتشعله من جديد.

يونس

على ألحان مقطوعة لموزارت، كنت أغرق في بحر من السكينة المزيفة قبل النوم، كأن كل نغمة تحاول تضميد جرحًا لا يندمل، وتخفي خلفها صخبًا داخليًا لا يهدأ. زوجتي رانيا تضيق ذرعًا بهذه الموسيقى، تضع سدّادة أذن من السليكون لتمنع عنها الصوت، رغم أنني أخفضه إلى أدنى مستوى. هي تستمع إلى الموسيقى، لكنها لم تفهم يوما ما الذي يأسرني في عالم موزارت وبيتهوفن، في ذوقي غرابة تثير استياءها.

لم أكد أضغط على زر الإرسال برسالتي إلى راوية، حتى جاءني صوت رانيا مثقلا بالنوم:

- خيرًا، ماذا يُقلقك هذه الساعة؟

صوتها المتشبع بالنوم كان كخيط واهن يمتد بيننا، لا يحمل سوى فتور الكلمات وسكونها. منذ متى وهي تهتم لما يقلقني؟ شردتُ قليلًا وأنا أتأملها مستلقية بجانبي، همست بصوت منخفض:

- لا شيء، نامي.!

تقلبت بحدة، وسحبت الغطاء بعصبية، كأنها تهرب من صقيع جلبته كلماتي. في آخر مُشادة بيننا صرخت فيها:

«متى ستفهمين يا راوية؟»

اخترقتني نظراتها كسهم مسموم، تمنّيت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني حتى أهرب منها. قالت بوجع لن أنساه:

«لست راوية، أنا زوجتك يا دكتور!»

الخلافات بيننا دائمًا متأجّجة، بيتنا كجسدٍ أجبر على تقبّل جرعة دم لا توافق زمرته، فظلّ يحاربها كعدوى فيروسية. رانيا كانت خِيار أبي، مراد الزهيري، الذي لا يرى الزواج إلا صفقة نسب وجاه.

«بنت أخت الشيخ سليمان؟ مستحيل. أنت الدكتور، حفيد العُمَد. كيف ترضى بواحدة أقل منك؟!»

كان هذا رده يوم أخبرته برغبتي في خطبة راوية العمري!

وقعت لقائي براوية كضربة برق اخترقت سماء روحي. أمام محطة القطار في قنا، وقعت عيني عليها لأول مرة، فشعرت بنبضاتي تتجاوز الحدود الآمنة. طُبِعت ملامحها في قلبي بكاميرا ثلاثية الأبعاد، سمارها الفاتن يُثمل الناظرين إليها قسرًا. (الحَسنَةُ) الغافية على خدها كانت كبصمة جينية فريدة، تؤكد أن لا أحد يشبهها في هذا العالم. عيناها سوداوان لحجري لؤلؤ، لم تكونا مجرد نافذتين للروح، بل مشرطين يشرّحان دواخلي دون مخدر، ويتركانني عاريًا أمام نفسي.

سألت عنها، عرفت أنها ابنة أخت الشيخ سليمان الشافعي، إمام مسجد النور في قريتنا. فاتحت والدي في الأمر فرفض رفضا قاطعًا غير قابل للنقاش. كيف وهو سليل العُمَد لا يختار لابنه زوجة غنية تليق به؟ يجب

أن تمتلك أسرتها على الأقل خمسين فدانًا، ويكون من بين أقاربها رتبة أو رتبتان.

«كنت جبانًا»

نعم، هذه حقيقتي، لم يدُر بخلدي أن أواجه العاصفة كما فعل عمر. تحدّى عمّي الذي لا يختلف تفكيره عن تفكير أبي، وخالتي التي تخطط لتزويجه من ابنة أختها. واجه الجميع ليفوز بها. وفاز.

يوم لاحظتُ نظراته إليها في القطار امتلأتُ غضبًا، وكان أبي قد رفض وأغلق الموضوع. ازداد حنقي يوم أمسكت بها تبادله ذات النظرة، واسودت الدنيا في وجهي تمامًا عندما أخبرني بإعجابه بها. لم أعرف لحظتها بم أجيب، سكتُّ فرأى في سكوتي عدم اهتمام بأمور الحب التي عادة ما تشغل الشعراء أكثر من غيرهم.

«يا أخي جاف أنت كدراستك، قليل من الرومانسية لن يضر!»

تحمّلت جملته صامتًا مخبّئًا وجعي خلف ضحكة باهتة. سألته بقلب مفطور:

«تعرفها؟»

أجاب بحماس أعرفه جيدا:

«اسمها راوية، راوية العمري، بنت أخت الشيخ سليمان الشافعي، كان يُحَفِّظُنا القرآن في المسجد زمان. تتذكّره؟»

يوم إتمام الخطبة كنت غارقًا في امتحانات الجامعة، قررت عدم العودة إلى القرية. الجميع يعلم رغبتي في الاستقرار بالقاهرة بعد الانتهاء من دراستي في طب أسيوط.

استوت بعدها الأمور في عينيّ، وعندما حدثتني أمي، ذات زيارة، عن ابنة صديق أبي القاهرية:

«رانيا الدميري، جميلة وبنت أكابر ومن بحري، يعني تناسبك يا ولدي بالتّمام والكمال.»

لم أعترض، كان عليّ أن أتزوج كما يتزوج أولاد الناس، كأن الزواج إجراء روتيني، بروتوكول علاجي يتّبعه الجميع، فعمر الذي يصغرني بعامين أصبح أبًا.

تزوّجتُ رانيا، والنتيجة، زوجان مختلفان حتى في طريقة التنفس. لم يتكبّد أحدنا عناء دراسة الآخر أو فهم شخصيته. كنت غارقًا في عملي في مستشفى القصر العيني، ومنشغِلًا بتأسيس عيادتي الخاصة، بينما هي منشغلة بحساب عدد الأنظار التي تلاحقها في كل مناسبة.

تهتم رانيا بالشكل الاجتماعي اللائق والمظاهر الكذّابة. أيام الخطوبة لم تخلُ من المنغّصات، تشتكي في كل مرة أزورهم فيها من عدم اهتمامي بها كما يليق باثنين مخطوبين، وكم أن صديقتها (فلانة) محظوظة، وقريبتها (علّانة) أكثر حظًّا؛ لأنهنّ فزن بخطيب لا يملّ الفسح وحضور المناسبات.

تستنكر احتفاظي بعيادتي في حي السيدة زينب، وتضجر من عدم انتقالي إلى مكان راق:

«بإمكانك الانتقال إلى حيّ أرقى، لكنك تفضّل البقاء في حي وسط أجواء لا تليق بك.»

هي لا تعلم أنه كما السمك الذي يموت إذا ما خرج من الماء أصبح زوجها، أجواء السّيدة التي لا تعجب زوجتي باتت عنصرًا أساسيًّا من الأكسجين الذي أتنفَّسه، ذكرياتي هناك من الصعب التخلّي عنها بسهولة. تلك العيادة ليست مجرد مكان عمل، بل أشبه بغرفة إنعاش لروحي المتعبة. هي المكان الوحيد الذي أتنفس فيه حياة حقيقية بين البسطاء الذين يعطونني شريانًا نابضًا وسط حياة تخنقني بمظاهرها الفارغة.

ابني مهاب، أول فرحتنا، كان متميّزًا منذ الصغر. اختار دراسة الصيدلة وأنهاها بتفوق منذ عامين، اتخذ قراره بالسفر إلى أمريكا لاستكمال دراساته العليا في جامعة هارفارد. قرار عارضته رانيا، مفضلة أن يعمل مع عمها في إحدى شركاته. حاولتِ الضغط عليه لكنه كجهاز مناعة قوي، قاوم ورفض الانصياع. وبعد استيفائه لشروط القبول في تلك الجامعة العريقة، سافر إلى كامبردج.

على النقيض، كانت مايا، ابنتي التي أفسدها تدليل أمها، فتعيد للمرة الثانية عامها الثاني في كلية التجارة. الدراسة لا تعنيها كثيرًا وسط انشغالها بالسفر والسهر. هي سبب جوهري في خلافاتي المتكررة مع أمها.

لا أنكر أنني كثيرًا ما أعقد المقارنات بين راوية وزوجتي، بعضها علني والكثير منها بيني وبين نفسي. صحيح أنني أحببتها، لكنني بعد ذلك أحببتُ حبها لعمر ووفاءها له بعد عشر سنوات فقط عاشتها معه، فرفضت الزواج من بعده، واكتفت بالعيش على ظلال ذكراه، أحببت قوّتها ووقوفها في وجه أهلنا في الصعيد، وتنفيذها لرغبتهما في العيش هنا. أحببت حرصها الشديد على أبنائها. لكنني كتمت ذلك في قلبي، كتمت حتى أضناني الكتمان فانفجرتُ فجأة. رأيت أثار الصدمة ترتسم على ملامحها، أعرف أنها تفاجأت بكلامي الذي قذفته في وجهها دفعة واحدة. ليتني استمرَرْت في الكتمان، ولم أصرّح لها بشيء.

رنّ هاتف رانيا بنغمته الصّاخبة، أيقظها الصوت، نظرت إليّ بنصف عين، مدّت يدها تتحسَّس الهاتف فوق الكمودينو، وبصوت ضعيف أجابت المتصل، لكنها انتفضت فجأة، قالت بفزع:

«اهدئي حتى أفهم .. وأين أنتِ الآن، اطمئني، حالًا، حالًا.»

وقبل أن أسألها، قالت بتلعثم وهي تنفض عنها الغطاء وتفتح خِزَانة الملابس لتبدّل ثيابها:

- مايا.. عمـ.. عملت حادثة، قم معي بسرعة.

«مايا..! الساعة الثانية صباحًا.. ! حادثة!»

- لكنكِ قلتِ إن البنت ستقضي الليلة عند خالها، حادث على الطريق الثانية صباحًا يا هانم؟

بعد دقائق، كنت أقود السيارة بعصبية مكبوتة، بينما رانيطا جالسة بجانبي تتنقل بين الاتصالات، اتصلت بعمها، شرحت له المأزق بكلمات متقطعة لا تزيدني سوى قلقًا. ابنتي المدلّلة دهست رجلًا بسيارتها أثناء عودتها من عيد ميلاد إحدى صديقاتها. هذا ما عرفنا أولًا، لكن في قسم الشرطة كُشِفت الحقيقة كاملة.

كان القسم يعج بضوضاء متداخلة، كأنما يعكس الفوضى التي تمور داخلي. هناك رأيت مايا جالسة، ملامحها شاحبة، وعيناها غارقتان في الدموع. عندما رفعت رأسها ورأتنا صاحت بفزع:

- ماما، اِلْحقيني..

كانت كفّي التي هوت على خدها أسرع إليها من حضن أمها. انتزعتْها رانيا من بين يديّ وهي تجزُّ على أسنانها:

- ارحمني يا يونس، هل هذا وقته أو مكانه؟

«فعلًا، يبدو أن الوقت قد فات.»

ثم جاء صوت الشاويش حاسما، كطبيب يعلن تشخيصًا لا رجعة فيه:

- أنصحكم أن تبحثوا لها عن محامٍ متمكّن، قضية تعاطي، لكن بهذه الكمية قد تتحول إلى إتجار.

قالها وهو يسحب مايا داخل مكتب الضابط النوباتشي. وقفت للحظة مشدوهًا، كمن تلقّى صدمة كهربائية فجّرت أعصابه. نظرتُ إلى رانيا، التي عصف القلق بثباتها المصطنع، بينما تمتمتُ بصوت خفيض:

«تعاطي .. إتجار! هل سمعته جيدًا؟»

-1-

عبر الواتساب كانت ليلى تُدَرْدِش مع صديقتها سالي:

أمي بدأت تشك في دوافع أسئلتي! ✓ ✓

جربي أن تحكي لها؟

خوفي من ردة فعلها يمنعني. ✓ ✓

ما الذي يمكن أن يبرر قطيعة بهذه القسوة؟!

سألتها كثيرًا، قالت: خلافات قديمة من حياة بابا. ✓ ✓

قبل شهرين فقط، لم يكن الأمر يشغل ليلى في كثير أو قليل، لم تكن تعرف من أهل أبيها سوى عمها الدكتور يونس، الذي اعتادت وجوده في حياتها منذ طفولتها. أما الآخرون، فقد ظلوا مجهولين؛ أمها لا تتحدث عنهم، وهي لم تكن تسأل.

بعد انتهاء دردشتها مع سارة، وضعت ليلى هاتفها جانبا، ثم فتحت جهاز اللاب توب وشغلت ألبوم أصالة نصري الأخير (في قربك)، تاركة الموسيقى تنساب بهدوء في أرجاء الغرفة، بينما أمسكت دفتر يومياتها وبدأت تكتب، كأنما تبحث بين السطور عن ملاذ لأفكارها المتزاحمة.

«تؤمن سالي بقيمة العائلة، أبوها من الصعيد، بينما أمها قاهرية، تقضي أسرتها شهرين من كل عام عند أهل أبيها في أسيوط، إحدى محافظات الصعيد الذي لا أعرف عنه شيئا. عندما تتحدث عن (العِزْوَة) والأهل، لا

أعبأ بحديثها كثيرًا، أشعر أنها تتحدث عن لوحة لن أتمكن من رسمها يومًا. شيء مجهول بالنسبة لي، قرأت عنه مرة في رواية قديمة بمكتبة أمي، شعرتُ بالنقص، فلم أقرَب الروايات بعدها.

بَنَتْ أمي أسوارًا عالية بيننا وبين أهلنا في الصعيد. عندما تذكر قنا، وهذا يحدث فقط في حضور عمي يونس، تسميها (البلد)، وكأنّها لا ترغب في مجرد ذكر الاسم على لسانها.

لا أعرف عن أبي إلا ما حكَتْه لي أمي، حديثها عن حبهما رسم له صورة فريدة في مخيلتي، صورة تختلف عن تلك التي تحتفظ بها أمي في سلسلتها الذهبية الملتفة حول عنقها كذكرى لا تفارقها، صورة رسمتها بريشتي جعلت منه ملاكًا ليس بمقدور أحد أن يأخذ مكانه. عمي يونس حاول تعويضي عن أبي، لا أنكر أنه كان سندًا حقيقيًا لأسرتي الصغيرة، لكنه ليس أبي!

لم يكن الصعيد يشغل تفكيري يومًا إلى أن التقيت زين، زين صالح الزهيري، كان لقاؤنا الأول أشبه بضربة فرشاة عشوائية على لوحة بيضاء، لم يرد بذهني وقتها أنها ستتحول إلى لوحة معقدة التفاصيل. بدأت القصة بتعليق تركته على منشور لمايا، سجّل زين إعجابه بالتعليق، ثم وجدته بعدها يكتب لي على الخاص يعرّفني بنفسه. علمت أنه يكبرني بعام، ويدرس في السنة الثالثة بكلية الحقوق في جامعة القاهرة.

في البداية، لم أعره اهتمامًا، حتى إنني لم أقبل طلب الصداقة الذي أرسله. ومع بداية الدراسة، وجدته يظهر أمامي في الجامعة. في وجهه رأيت صورة أبي، يشبهه إلى حد كبير. كنتُ أتجاهله، لا أدري لماذا؟ ربما لأنني خشيت غضب أمي التي لا تكره شيئًا بقدر كرهها الحديث عن الصعيد وأهله، وربما لأسباب أخرى لا أدركها. كنت أبالغ في تجاهله، وكان يبالغ في لفت انتباهي.

حتى جاء ذلك اليوم...

رنّ الهاتف، وكان صوت دكتور يونس على الطرف الآخر:

«ألو.. أين أنتِ يا باشمهندسة؟»

«في الجامعة، يا دكتور.»

«دكتور!»

«خلاص عمو، لا تغضب.»

عمي يونس، لا تعجبه الألقاب بيننا، يراها جدارًا يمنع دفء حبّه. قال إنه في (كافيه) قريب من الجامعة، سمَّاه لي. عندما وصلت وجدته جالسا مع زين. صمتا فور رؤيتي، وبعد تبادل الأسئلة الروتينية عن الدراسة وأحوالها، قال عمي بلهجة هادئة:

«زين ابن عمكِ يا ليلى، ليس غريبًا عنكِ.»

نظرتُ إليه نظرة فهمها، فأردف مطمئِنًا:

«لا علاقة لكما بأمور الكبار.»

هززت رأسي دون كلام، لكنني اقتربت منه هامسة:

«وراوية؟»

ابتسم وقال:

«اتركيها عليّ.»

لكنني طلبت منه بعد ذلك ألا يخبرها بشيء؛ لا داعي لإثارة غضبها، الآن على الأقل.

بعد تلك المقابلة، بدأا أتعامل مع زين بشيء من الأريحية. قبلت طلب صداقته على فيسبوك، وعندما أرسل مقطعًا من أغنية (ليلى)، ابتسمت في حيرة. الأغنية نفسها سبق أن شاركتها أمي -فور صدورها- على صفحتي. تساءلت: هل بحث في صفحتي حتى وجدها، أم أنها محض مصادفة؟

وعندما أرسل لي على الواتساب لاحقا، انزعجت قليلًا، لكنَّ شعورًا جديدًا انتابتيتسلل داخلي. زين ابن عمي، ليس غريبًا.

ابن عمي!

منذ متى تفرق معي هذه الأمور؟ أهي عدوى أحاديث سالي عن العِزْوة والعائلة؟ أم أنني فقط مفتونة بمفردة جديدة دخلت قاموسي؟ ابن عمي .. كلمة لم أعتد قولها من قبل!

وأمكِ يا ليلى؟

أمكِ التي يتكدر صفو بشرتها وتفقد طمأنينتها كلما قلتِ أمامها: أهلنا في الصعيد.

كيف أجعلها تحكي؟

أشعر برغبة شديدة في معرفة أسباب هذه القطيعة. مهما حاولت لا تستسلم للحكي، أتعمّد إثارة الموضوع كلّما سنحت فرصة، لكنها تتقن المراوغة وتغيير مسار الحديث في كل مرة. فكّرت أن أسأل عمي يونس، لا أدرى كيف سأبدأ معه الحديث، لكن لم لا؟

ربما أسأله ذات يوم.

راوية

وكيف لا أسامحك يا يونس؟!

يكفي أن تكون صديق عمر لأسامحك، فكيف وأنت أقرب الناس إليه وخير سند لي من بعده؟ أنت فقط حرَّمت عليّ التعامل معك بأريحية كما اعتدت. كنت أراه عِوض الله لي عن إخوتي الذين فقدتهم وهم على قيد الحياة، ليته أبقى شعوره طي الكتمان ولم يبح بما باح به!

ما يثير دهشتي أن شيئًا من هذا الشعور لم يظهر في تعامله معي. لم أشعر يومًا أنه يحمل لي بين جوانحه شعورًا خاصًّا كهذا. عاملني طوال السنوات الفائتة كأخت، كنت أرى في رعايته لي ولأبنائي وفاءً لعمر. ألهذا الحد يمتلك القدرة على الكتمان؟!

الآن فقط عرفت سر نفور رانيا ومشاعرها الباهتة تجاهي. لطالما بررتُ فتور علاقتنا باختلاف شخصياتنا وطبائعنا، الناتج ربما عن اختلاف البيئة، البيئة التي حاولت الهروب منها رغم فراري منها، لكنها لا تزال ملامحها محفورة على وجهي حتى اليوم، تبدو في لهجة لا تزال طازجة تعلن عن هويتي، كمن يحمل وطنه في كلماته. يتعدى الأمر هذا إلى طريقة تفكيري، وأسلوب حياتي المتحفّظ والذي يتناقض تماما مع حياتها وعالمها

الحر المنفتح. لكن.. ألا تشعر الزوجة بقلب زوجها مهما بالغ في إخفاء سريرته؟

بلى والله تشعر!

هل يكون هذا سبب الحاجز النفسي الذي ألمسه بيني وبينها؟ إذن من حقّها. الغيرة تفعل الكثير!

حُسْن، زوجة صالح عم أولادي، صنعت منها الغيرةُ كائنًا متوحشًا مستعدًا لفعل أي شيء، استعمر الحقد قلبها، فراحت تدبِّر لي المكائد الواحدة تلو الأخرى، كأنها في حرب لا هدنة فيها.

كنت في عامي الثاني، حين جاءني عمر طالبًا يدي. كان ارتباطي بشخص مثله حلما يداعب أنوثتي مذ بدأت الإحساس بها، لكنه بدا بعيد المنال. رفضت فكرة الارتباط أثناء الدراسة. لكن، حين يدقُّ القلب، ينمحي كل أثر لما قرَّره العقل سلفًا. وافق إخوتي، ولأوّل مرّة يتوافق رأيهم ومراد قلبي. تزوّجنا في الإجازة الصيفية بعد وعد من عمر بأن أُكمل دراستي. وعد صدق فيه، لكنه كان بداية لمسار آخر لم أكن أدركه.

لا أنسى أول موقف سخيف وضعتني فيه حُسْن. موقف على سذاجته، كشف لي عن حقيقة قلبها، وبشاعة ما ينتظرني في بيت الزهايرة.

ما زالت كلمات تلك الجارة العجوز ترنّ في أذني وقد راعها ما رأت على وجهي من تعب لا يليق بعروس لمّا تزل في أيام عرسها الأولى:

«انتبهي يا ابنتي، غيرة السلايف نار قايدة، وعلى رأي المثل: مركب الضرايز سارت ومركب السلايف غارت!»

ابتسمت حينها ابتسامة واهنة، لم أهتم لكلامها. كنت أؤمن أنني أكبر من التورط في صراعات تافهة، يكفيني ما أنا فيه مما لا تعلمه حُسْن أو غيرها. لكن ما حدث بعد ذلك، أعادني لقول تلك الجارة وذكَّرني به.

لم يكن نقش الحناء قد بهت في يدي حين طلبت حُسْن من أم عمر تقسيم أعمال البيت مناصفة بيننا. لم تهدأ حتى تمَّ لها ما أرادت.

في أول يوم لي، أعددت كل شيء وحدي. جهّزت الطيور التي أحضرتها الحاجة (زهوة) من عُشّتها، واخترت الأصناف التي تناسب مِزاج عمي (أمين الزهيري) والد عمر، ووضعه الصحي.

جدتي- رحمها الله- علمتني أصول الطبخ، وورثتُ عنها (التّفس الحلو)، كذلك كان يقول خالي كلما أكل من صنع يدي، وأكد عمر ذلك بعد أول مرة أكل فيها من يدي في (عزومة) ببيتنا أيام الخطبة.

بعد الانتهاء من إعداد الطعام، صعدتُ إلى شقتي لأبدّل ثيابي. وعند بسطة السّلم لمحت حُسْن تتسلل خارجة من المطبخ وهي تتلفت يمينًا وشمالًا كمن يُخشى أن يُضبط متلبسًا. أثارني منظرها. دخلت المطبخ بعد خروجها، ألقيتُ نظرة سريعة، كل شيء في مكانه كما تركته. شعرت بالارتياح، لكن لم أفهم مغزى تصرفها.. إلا بعد تحلُّقنا حول المائدة.

جلس الجميع على مائدة واحدة يتوسطهم عمي أمين. لم نكد نبدأ حتى انفجر صوته فجأة:

«الأكل مر علقم! كم مرة قلت الأكل يطبخ بدون ملح؟»

جفلتُ من زعقته المفاجئة. أحسّ عمر برجفتي فوضع يده فوق يدي، رعشة أقوى سرت في جسدي على إثر لمسته الأولى منذ تزوجنا، فرفع يده سريعًا بينما سمح لعينيه أن تنظرا نظرة طمأنة ربَّت بها على قلبي، لكن والده لم يُنهِ غضبه:

«يا حاجة، أنتِ ما عَرّفتِ العروسة بنظام أكلي؟»

ازدادت دقَّات قلبي اضطرابًا. كيف حدث هذا؟ لقد أعددت الطعام دون ملح كما أوصتني أم عمر. رفعت بصري إلى حُسْن، فوجدتها تخفي نصف ابتسامة على شفتيها. فجأة، تذكرت تسللها من المطبخ بالحال التي رأيتها به، وتوقعت أيامًا لن تخلو من المكائد، لكن ما حدث لي بين جدران ذلك البيت فاق كل توقعاتي.

أكثر ما كان يؤلمني وسط كل هذا السُّخف، أن معركة كبري أعاني ويلاتها لا يدري من في البيت عنها شيئًا.

خمسة عشر يومًا مرّت على زواجي بعمر، أسبوعان كاملان مضيا وهو لم يقربني بعد. عندما حدث ما حدث في ليلتنا الأولى، حاولت تهوين الأمر عليه، لكنني لم أفلح. صحيح أنني قرأت عن هذه الأمور، لكن يبقى خوض التجربة شيئًا مختلفًا عن المعرفة النظرية. رأيت احمرارًا في عينيه،

شعرت بالغضب يكاد يتفجّر من جميع جسده، لكنه أمسك لجام نفسه. ترك الغرفة وانتقل إلى أخرى، سمعتُ خبطه ورزعه للباب، لم أفهم ما حدث. هل هذا مجرد عارض سيزول بعد بضع ساعات أو أيام؟ أم أنه أبعد من ذلك؟ في تلك اللحظات، تذكّرت أمّي التي لم أرها، تمنّيت لو كانت معي، بكيت جدتي، أكثر من عام مر على رحيلها، لكنني شعرت كما لو أنها ماتت هذه الساعة. لو أنها بجانبي الآن..!

وفي الصباح، جاءت زوجات إخوتي ليفعلن ما يتوجب عليهن، يحملن (الصباحيّة) بكل ما يُجلب فيها من أطايب الطعام. اجتهدت في تقمص دور العروس يوم صباحيتها. باغتتني آمنة:

«عيني عليكِ باردة، وجهك ولا القمر.»

هل أجدتُ التمثيل إلى هذا الحد؟ أم أنه كلام يتحتّم عليها قوله؟

بعد انصراف الجميع وانتهاء طقوس الصباحيّة، دخل عليّ عمر الحجرة، كنت أزيل عن وجهي الحمرة التي بالغت في صبغ وجهي بها. نظر إليّ نظرة بألف كلمة، عيناه مرتبكتان، رأيت فيهما الشك والخوف والقلق. بادرته:

«اطمئن! أنا لا أعطي سرّي لأحد أبدًا.»

كان يتململ في جلسته وكأن نارًا تحته تحرّقه. قال:

«راوية، أرى في غرفتنا جحيما مسعّرة، إن دخلتها ستحرقني.»

قال إنه سيذهب إلى أحد المعالجين بالقرآن يستفتيه في الأمر. ذهب إلى أحدهم، لكن لم ينفع بشيء، ازداد الأمر تعقيدًا؛ عصبيّة مفرطة واختلاق

مشاكل معي ومع غيري. كنت تائهة. أسأل نفسي، ماذا أفعل؟ ماذا تخبأ لي الأيام؟ لا أتقن سوى البكاء، البكاء الشديد حد انقطاع النفَس، كأن قوة خفية تُرغم عينيّ على سفك الدموع بلا توقف طوال الليل. الاضطراب والضيق تزداد حدتهما إذا ما اختلينا، أما خارج غرفتنا فكان الأمر محتملًا بصورة ما.

سألتني أم عمر ذات صباح:

«خير يا بنيتي، وجهك ذابل، وزوجك مزاجه معكّر؟»

تلعثمتُ، لم تكن لديّ إجابة لسؤالها. لن أخبر أحدًا بالأمر تحت أيّ ظرف، لا أدري هل كان ذلك رغبة مني في كتمان سر زوجي؟ أم لأنني لا أملك من أثق به لأبثه سرًّا كهذا؟

وفي اليوم التالي، قال عمر إنه حكى لأمه. أخبرها لمّا ألحّت في السؤال وأقسمت عليه أن يَصدقها، غضِبت منّا لإخفائنا الأمر عليها، بكيت بكاءً شديدًا، حاول عمر تهدئتي، أمسك يدي، وقبل أن تمسّ يده الأخرى ذراعي، قام فجأة، وكأنَّ عقربًا لدغته..!

«ما في غيرها، أختك سحرت ولدي.»

تعاملني أم عمر بلطف، لكنه لطف المغلوب على أمره، ولا شيء بإمكانه أن يغلب الحاجة زهوة على أمرها إلا حبها لابنها الأصغر، زوجي الذي فرضني عليهم جميعًا، إذ كانت ترغب في تزويجه لابنة أختها (نجيّة) زوجة

(العمدة منصور)، خاصمتها أختها بعد زواجنا، وها هو والد عمر يتّهمها بعقد الأسحار لابنه.

ذات صباح، أصرّت أم عمر على ذهابي معها حيث يسكن رجل تعتقد ببركته وقدرته على تيسير كل عسير. رفضتُ، فإذا بها تصرخ في وجهي وتتّهمني بكل سوء ألمّ بابنها حتى اليوم.

اضطُررت لمرافقتها حتى أفرّ من لهب كلماتها الذي أشعل فتيله في أعماقي!

عدت لا أذكر شيئًا مما حدث، لكنني عدت بغير الحال التي ذهبت بها؛ وجه متورّم، كأنما تعرض لسلسة من الصفعات واللكمات، وجسد مُترَع بالكدمات. ما إن أفقت حتى انفجرت أصرخ من الألم المبثوث في جسدي.

لامني عمر وصاح غاضبًا:

«كيف تفعلين هذا وأنت الحافظة لكتاب الله، كيف؟!»

لا قدرة لي على أخذٍ أو ردّ، حتى صراخي كتمته وابتلعت دموعي!

صرخ في وجه أمّه وأنَّبها وهو الابن البار الذي لا تخرج العيبة من فمه.

أحضر الطبيب، اشترى العلاج، وجلس يضمد جراحي بيده، لكنه لم يستطع أن يكمل، ترك العلاج بجاني، همس إليّ قبل خروجه:

«سنسافر بعد غدٍ إلى القاهرة، استعدّي.»

دلّه أحد أصدقائه على شيخ يعالج بالقرآن هناك، كثيرون لجأوا إليه وعادوا مجبورة خواطرهم.

شهرٌ كاملٌ مرّ على زواجي بعمر، ثلاثون يومًا مضت لا أعترف بها، خصمتها من عمري كأن لم تكن. بعد أول غمسة لي في حِضنه نسيت ما كان، وما عادت تلك الأيام ترِد على ذهني إلا من قبيل الذكري التي أقاوم حضورها، فتتلاشى ببطء يومًا بعد يوم حتى كادت تختفي تمامًا.

كشفتْ حُسْن عن وجهها وأرتني حقيقته دون خجل، تعاند في كل تصرف، تختلق مشاكل من أتفه الأسباب، ولولا نصائح عمر لي بتجاهلها ما احتملتها ولو ليوم واحد. ذات مساء، بعد عودتي من الجامعة التي أذهب إليها مرة واحدة في الأسبوع، سمعتها تُفرغ سُمّها في أذن أم عمر:

«هل ستخرج زوجة ولدك كل يوم والثاني هكذا، وتقضي النهار كله خارج البيت؟ الناس أكلت وجهنا يا عمتي!»

ولمّا لم تجد لكلامها عن دراستي أثرًا يريح قلبها، بدأت تحشر أنفها في أشد الأمور خصوصية. راحت تُبدي رأيها فيما أرتدي، وتعيب خروجي من دون نقاب. لقد اعتاد كثير من نساء القرية ارتداء النقاب بعد الزواج. فلماذا لا ترتديه راوية كغيرها..؟!

كانت حُسْن ترتدي النقاب، تضعه على وجهها حال خروجها، ثم ترفعه لدى وصولها المكان الذي قصدتْ. كرهتُ الانضمام إلى صفوف من يفعلن ذلك، وقال عمر إنه يميل إلى ارتدائي النقاب شريطة أن يكون نقابًا حقيقيًّا له ضوابطه. قلتُ إنني لا أستطيع فعلها الآن، احترم رأيي ولم نتحدث في الأمر مرة أخرى.

لم تيأس، بدأ حُسْن تلوّح على كل مائدة تجمعنا بكلام عن النقاب، وضرورة ارتدائه، وكلام الناس الذي كَثُر، وكأنها نسيت أنها لا ترتدي النقاب بدافع التديّن أو الحشمة، وأن ما ترتديه مجرد (نقاب عادة).

قالت لي:

«صراحة لا أعرف كيف تستطيعين الخروج بوجهك هكذا أمام الناس؟ كيف تتحملين عيونهم التي تِنْدَب فيها رصاصة؟»

ورغم شِدة والد عمر، لكنه لم يتدخّل في أمر كهذا. مكانة عمر عنده فوق ذلك، فهو يقدّر ابنه ولا يناديه إلا بالأستاذ.

كنت أعدُّ طعام الغداء حين تسلّل عمر إلى المطبخ، لم أشعر به إلا لحظة اصطدام أنفاسه برقبتي. همس في أذني:

«لو الجميل محتاج مساعدة أنا في الخدمة وتحت النظر.»

شهقتُ وأنا أدفعه ليبتعد، وأقول ضاحكة:

«لو عمتي رأتك هنا، ستنتف ريشنا كهذه الدجاجات.»

«ماذا أفعل؟ اشتقتُ إليكِ.»

خرج بعد أن قبَّلني بين عيني، وهو يقول:

«لا تتأخري عليّ، وإلا أُصدر فرمانًا بحبسك في الشقة، وابحثي عمن يُفرِج عنكِ ساعتها.»

لم يكد يبتعد خطوات حتى ظهرت حُسْن أمامي فجأة كعفريت العُلْبة، وفي عينيها حقد دفين وغيرة لم تستطع إخفاءها. تضرّج وجهي خجلًا، لكنني تجاهلت نظراتها، وعدت أكمل إعداد الطعام.

أرادت حُسْن إثبات وضعها كزوجة الابن الأكبر في البيت، بينما شخصية الحاجة زهوة لا تسمح بذلك لها أو لغيرها. هي الكل في الكل، تدير البيت بقوانين صارمة مِن وَضْعِها، وعلى زوجات الأبناء تنفيذها دون مناقشة، لذا كان اصطدامها بحُسْن أمرًا بديهيًّا.

«أم قسطل، حُسْن قال! أيّ حُسْن؟ هذه ما يقال لها غير أم قسطل!»

كانت حُسْن صاحبة جمال صارخ لا ينكره أحد، لكنه جمال مخيف. هل أفعالها هي التي جعلتني أراه كذلك؟!

وجهٌ أبيض كالقطن، جبين مستدير، أنف صغير وجسد ممتلئ - امتلاء يناسب طولها- تحلم كل امرأة بامتلاكه. شعرها الأسود الطويل كليل الشتاء، تحسدها عليه النسوة. نظرة الشك ملازمة لعينيها الواسعتين كبئر لا قرار لها، كنت أراها كساحرة من ساحرات المرويَّات الشعبيّة والقصص التي كانت تحكيها جدتي. حاولت تجنّب الصدام معها ما استطعت، وكان احترام عمر، وحبُه الشديد لي، وما خاضه من تحدٍ لإقناع أهله بزواجنا كافيًا لأن أتحمّل لأجله أيّ شيء. تحمَّلتُ شدة أهله ومكائد حُسْن، اكتفيت به واخترت غضّ الطرف عن كل شيء آخر.

رغم هذا، فإن ما رأيته من حُسْن في شهور زواجي الأولى ليس شيئًا يذكر إذا ما قورن بما رأيته من مكائدها بعد إنجابي لابني البكري أمجد. أمام أهل البيت، تعاملني كالأخت الخائفة عليّ، الراغبة في إراحتي من أي جهد. كانت أفعالها ذرًّا للرماد في العيون ليس أكثر.

لم يكن لديها وقتها من الأبناء سوى علي، الطفل الذي تجاوز عامه الثالث دون النطق بكلمة واحدة، حتى الكلمتين اللتين ينطق بهما الطفل أول ما ينطق (بابا وماما) لم ينطقهما عليّ بعد!

قلت لها:

«لماذا لا تعرضوه على طبيب. حالة عليّ تحتاج إلى علاج ومتابعة مستمرة.»

لوت شفتيها. قالت بنبرة غاضبة، وهي ترمز بحاجبيها:

«ابني ليس حالة يا رواية. ابني بخير، وليس بحاجة لطبيب.»

ندمت على نصيحتي، ولمت نفسي على إسدائها فلم أكررها، حتى بعد رؤيتي للطفل المسكين يعاني بين أبوين يجهلان أصول التعامل مع حالته من ناحية، وبين عائلة ترى في الابن المعاق عارًا لا بد من إخفائه بعيدًا وعزله عن البشر!

«قل شيئًا يا عمر، الولد ينتهي.»

«سئمت من كثرة الكلام يا راوية!»

لم يدّخر عمر جهدًا في إقناع صالح بالسعي لعلاج ولده. كان يتحجج بالأرض والانشغال، غدا نذهب، بعد غد نسأل عن طبيب ماهر. كنا نعلم مدى سيطرة حُسْن عليه وتحكّمها فيما يخص حياتهما.

بعد إنجابهما عليًّا، لم يعش لهما ولد. كلما أتمّت حُسْن شهور الحمل وجاءت لحظة المخاض، إما أن يُولد الجنين ميتًا، أو يموت بعد أيام من ولادته. لم تقصِّر أم عمر في الذهاب بها إلى ذلك الشيخ الذي تعتقد في نفعه. ذات يوم، زارتنا إحدى الجارات، أعطت حُسْن (حِجْلًا)[6] اشترته لها بنفسها، ونصحتها تصنع حِجْلا للمولود أيضا شريطة أن تشحذ النقود من بيوت سبعة، على أن يكون بكل بيت من هذه السبعة ولدٌ يُسمّى محمد!

«ما هذا يا عمر؟ هل يعقل هذا الكلام؟»

«خرافات كثيرة آمن بها الناس يا راوية، حتى صارت عقيدة لا تقبل النقاش!»

رسالة عبر الواتساب من ابنتي أعادتني من رحم الماضي، رابط لخبر في جريدة لم أسمع بها قبل اليوم. فتحت الرابط وقرأت الخبر..

«القبض على ابنة الطبيب وسيدة المجتمع الشهيرة بتهمة حيازة مواد مخدرة!»

الخبر بلا صور، وبلا تفاصيل أيضًا.

---

[6] الحِجْل: هو الخلخال ونحوه مما تضعه المرأة في أسفل ساقيها فوق القدم، من أجل الزينة. قال ابن منظور: الحَجْل والحِجْل جميعا: الخلخال، لغتان، والجمع: أحجالٌ وحُجُولٌ.

أعدت توجيه الخبر لليلى متبوعًا بعلامات استفهام، فكتبتْ:

مايا، غالبًا هذه مايا!

هرولتُ إلى غرفة ليلى فوجدتها منكفئة على حاسوبها. كانت تتحدث دون اكتراث، قلتُ بشيء من العصبية:

- ليلى، وكأنك تعرفين شيئًا.

- مجرد شك يا ماما، أرسلت لك الخبر لتتصلي بدكتور يونس ونتأكد.

عرفت منها أن مايا ترافق (شلّة) من زملاء الجامعة، شباب وبنات يتّسم سلوكهم بالتهور والانحراف، وبعضهم .. يتعاطى الشابو.

- شابو؟!

- نوع من المخدرات..

مخدرات! أخبرتني بحديثها مع مايا وعدم تقبل الأخيرة للنصيحة، وقولها إنها لا تفعل شيئًا خاطئًا، وإن علاقتها بفلان أو علان لا تعني أنها تأتي فعله.

اتصلتُ بيونس، لكنه لا يجيب على هاتفه.

شكا يونس كثيرًا، وحكى لي عن رانيا وخلافاته معها حول طريقة تربية البنت. كنت أعلم معاناته من اختلاف طريقتهما في التفكير والحياة، لكنني أبدًا لم أتخيل يوما أن تصل الأمور إلى هنا..!

رنّ هاتفي، فتوقعت أن يكون يونس هو المتصل، وإذا بها سمية. وكأنكِ على علمٍ باحتياجي لسماع صوتك يا الغالية.

يونس

عندما تستحيل الحياة بينك وبين شريكك فيها، وتصر على أن تكمل، تُكمل وتقنع نفسك أنه لا خيار أمامك إلا المُضِي قدمًا في علاقة تستنزف طاقتك عبثًا، عندئذ لا تندهش حين تجد روحك تتآكل تدرجيًّا، تفقد مبادئك وإيمانك بنفسك. في كل يوم ينقضي تخسر جزءًا منك، لتجد نفسك قد أصبحت آخر لا تعرفه.

تزحف عقارب الساعة في يدي نحو الرابعة فجرًا. أقبع داخل سيارتي على مدخل كوبري قصر النيل، وأدير مسجّل السيارة علّ الموسيقى تطفئ النار الموقدة بداخلي. السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، أكثر ما أفضل سماعه للرجل، لكنّها الآن وكأنها تضع مِلحًا على الجرح، فتزيده اشتعالًا.

انتابني شعورُ مريضٍ على وشك الإصابة بسكتة دماغية. ركنت السيارة، وترجلت منها، لأسمح لنسيم الفجر باختراق أنسجتي المختنقة، عساه يوقظني بعد ساعتين استنزفتا كل قدرتي على التحمّل.

عند مدخل الكوبري، استقبلني الأسدان البرونزيان القابعان بشموخ، يذكّرانني بضعفي. في أوقات أخرى، كان شعوري نحوهما مختلفًا. الآن، أرى كل شيء بلون الليل. شعور بالحسرة ينحشر بحلقي، أشد مرارة من العلقم. الكوبري قبيل الفجر لا يصلح إلا للعشاق ومحبي الحياة. امتزاج أنوار آخر

الليل مع أول خيوط الفجر، أصوات السيارات القليلة رفقة صوت السّت يداعب الآذان بكوبليه من فات المعاد..

(وهاتلي قلب لا داب ولا حب، ولا انجرح ولا شاف حرمان.. تفيد بإيه يا ندم وتعمل إيه يا عتاب)؟!

حتى الست تشترك في التآمر عليّ هذه الليلة!

شوارع القاهرة تشبه أوركسترا تعزف سيمفونية الحياة، يتداخل فيها صوت البشر وهمس الشجر، وصدى الحجر، في لحن متناغم يعكس تنوّع المدينة القاهرة.

في قسم الشرطة، جاء صفوت الدميري، رجل الأعمال الشهير، يهرول نحو ابنة أخيه. لم يكن ثمة ودّ بيني وبينه منذ رفضه زواجي من رانيا. لحمنا لا يستوي في إناء واحد، ظلّت علاقتي به رمادية، باردة. على أية حال، لا مجال الآن لحب أو كره. عليّ التفكير في الورطة التي عَلِقَت بها ابنتي. وعدنا الرجل بعودتها معنا إلى البيت خلال ساعة واحدة، وقد كان.

بعد ساعة، كنا جميعا أمام باب القسم. استقلت مايا مع أمها سيارة عمّها المنقذ، متجهين نحو الڤيلا، فيما ركبت سيارتي. لكنني لم أقدها إلى هناك؛ لا طاقة لي على دخول أي مكان مغلق.

أشعر بالدوار وصعوبة في المشي، اختناق شديد وكأن غمامة سوداء تحجب الهواء عن رئتيّ، كابوس أريد الإفاقة منه، أريد أن أهذي، أن أصرخ، أن أُخرج ما بداخلي. لكن إن فعلت.. هل سيصفني أحد المارّة بالجنون؟!

مخدرات!

حفيدتك تشرب المخدرات يا مراد يا زهيري! الحسب والنسب كانا ميزانك المعطوب الذي ارتضيته. ماذا عساك تفعل إذا سمعت خبرًا كهذا؟!

تذكرتُ موقفا قابعا في ركن الذاكرة. كان أخي مجدي، الذي يصغرني بعامين، قد جرّه أصدقاء السوء إلى طريق التدخين. الغفير قال لأبي إنه رأى مجدي يشرب السجائر في (الكَرْم) القبلي مع مجموعة من الأولاد، كان يومًا لم تطلع له شمس كما وصفته أمي. ربطه أبي في عمود أسمنتي بالبيت، وشرع في ضربه بقسوة أدهشتني. لم تُجدِ معه دموع أمي وتوسّلاتها، ولم ترقّق قلبه صرخات أخي وشهقاته وهو يدفع عنه الضربات. لم يفلح في إنقاذه من بين براثن الكرباج السوداني إلا عمّي العمدة منصور، أرسلتني أمي إليه خفية. جاء وفكَّ وثاقَ أخي وأقسم على أبي أن يكفَّ عن ضربه.

«سايق عليك النبي يا مراد، الولد صغير ما يتحمّل.»

صارت هذه الواقعة بعد أن كبرنا ذكرى نضحك منها حين نتذكرها. أخي مجدي اليوم نائب في البرلمان. أسأل نفسي الآن، لماذا لم أتصل به كما فعلت رانيا وسارعت إلى مهاتفة عمّها؟

هل لأنني كنت مغيّبًا عن المشهد؟

كنت وإخوتي نقطة ضعف أمي الوحيدة. عندما يبكي أحدنا يهرع إلى حضنها ليقينه بأنها ستداوي جرحه ظالمًا أو مظلومًا. عاطفتها الجيَّاشة تتقاطع مع غلظة أبي، الذي يكره التدليل الزائد عن الحد، رغم أن تدليلها

لم يكن يومًا زائدًا. في ذلك اليوم اشتد عِراكه مع أمي، وقال إن تدليلها لنا هو السبب. لم يلتفت أبدًا إلى كونه مدخِّنا شَرِهًا يدخّن السجائر والشيشة طوال النهار داخل البيت وخارجه. لماذا لا تكون فِعلة أخي من باب تقليده لأبيه؟!

لم يفكر أبي بذلك. قال الكثير يومها، انتظرت أن ترد أمي عليه، أن تحكي شيئًا، أن تغضب، تحتجّ على صراخه واتهاماته غير المبررة. لكن أمي لم تقل شيئًا، ولم تنطق بحرف.

آه يا أبي!

دبِّرني، قل لي ماذا يفعل ابنك في مصيبته؟

هل أعلّق ابنتي في عمود البيت؟ أم أتّهم أمها بتدليلها الى الحد الذي أفسدها؟ إن كانت أمي بريئة من هذه التهمة، فزوجتي ليست بريئة.

نظرت إلى هاتفي للمرة الأولى منذ خروجي من البيت في الثانية صباحًا. اتصلتْ راوية سبع مرات، فتحت إشعارات الإنترنت، وصلتني رسائل على الواتساب من مهاب ورانيا، وراوية أيضًا. وكلام عن خبر في جريدة، لم أستطع قراءته. شعرت برغبة ملحّة في التخلص من الهاتف.

عندما سمعت أذان الفجر، أدركت للتو أنني قطعت مسافة طويلة وأنا أهيم على وجهي، دون وعي. توجّهت نحو أقرب مسجد، وعلى حوض الميضأة كان ماء الوضوء يسري في خلايا القلب قبل أن يلامس الجسد.

بسم الله روى الماء كفيَّ المتعطشتين، بسم الله انساب الوَضُوء على بقية أعضائي فنشطتْ بعد خمول. وجَّهت وجهي نحو القبلة، ومع تكبيرة الإحرام طرحت الهموم خلف ظهري. (الله أكبر)، نطقها القلب مع اللسان، ورحت أشكو بثي وحزني إلى الله.

منذ متى وأنا مقصّر في إدراك صلاة الفجر في جماعة؟

يا لمصيبتي!

أيعجزني إدراك الفجر وأنا الذي يعاني الأرق كل ليلة، ولا يعرف النوم إلا قبيل الفجر؟! نفيق من غفلتنا متأخرين دائمًا. عندما تتخثّر جراح الروح ويدميها الحزن والأسى نعرف حينها حقيقتنا، نعرف قدر هشاشة قلوبنا واحتياجها إلى خالقها، نعرف أنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

-2-

أجواء القطار تصيبه بدفقة حنين وقشعريرة عجيبة. حياة آدم المزدحمة بالعمل لا وقت فيها للتأمل والاستجمام. الشعور بالحياة قد يكون أجمل من الحياة نفسها، لكن أن تفقد شعورك بأقرب الناس إليك، فيصبح غريبًا عنك. شعور مؤلم، ألم لا تعالجه العقاقير.

رنَّ هاتف آدم، فجاءه صوت زوجته ميرنا بعذوبة آسرة، تثير في روْعِه أحاسيس يقاوم الاستسلام لسحرها:

«تحرّك القطار؟»

«من نصف ساعة تقريبًا، كيف حال عمر الآن؟»

كم هو مؤلم أن نتكلم كالغرباء مع من كان بالأمس أقربهم إلينا! شعور بالفقد يباغت الروح مع كل حرف يُنطق، وكل تعبير يُقال. شعور بالغربة يجثم على الأنفاس، فلا يسعنا إلا الهرب بعيدًا. للقلب أحوال لا تخضع لمنطق أو قياس، ومع مرور الأيام وتوالي المواقف والأحداث تتغيَّر الاهتمامات، فتتبدَّل معها شؤون القلب المتقلِّب بطبعه. نُصبح ومن كان القلب يرتجف لرؤيتهم، نراهم فلا يهتز له نبض، ولكن.. تضطرب خلايا الشوق في أعماقنا، فندرك حينها أن في غياب البعض راحة كبرى لولا خيانة الحنين.

هو لا يصدق أن علاقته بزوجته قد وصلت إلى ما وصلت إليه.

عندما سألته راوية:

«هل ستسافر ميرنا معك؟»

قال إن ابنه عمر، الذي لم يتجاوز عامه الثاني، لن يتحمل مشقّة السفر في هذا الشتاء، بالإضافة إلى تعبه المتكرر مؤخرًا. اعتقد أنه وجد حُجّة قوية تُقنع أمه التي لا تقتنع بسهولة.

«أكبر خطأ يرتكبه رجل في حق نفسه هو الارتباط بامرأة من طبقة تفوقه اجتماعيًّا، فيُصبح أسير التقصير والعجز، يشعر مع كل شيء يقدمه أنه صفر اليدين..»

هذا ما قاله آدم لصديقه ذات فضفضة، وهذا ما ترسّخ في وجدانه بعد زواجه من ميرنا، الابنة الوحيدة للدكتور فوزي المسيري، أستاذه الذي يحبه كثيرًا مذ كان طالبًا. وبعد زواجه من ميرنا، صار ابنه الذي لم ينجبه. هو لا ينكر فضل أستاذه عليه، موافقته على زواجه بابنته مفاجأة لم يحلم بها.

يوم قابلها للمرة الأولى في مكتب أبيها بالجامعة، سحَرَه جمالها الهادئ. أسرته طريقتها في الكلام، نبرة صوتها الطفولية، جرأتها وحياؤها في آن. لكن آدم، تربية راوية العمري وصنيع عقليتها، لم يدع نفسه أسيرًا لمشاعره، لم ينس ظروفه ووضعه الاجتماعي الذي يداني وضع ميرنا بسنين ضوئية لا قِبَل له بقطعها. لكنها قطعتها، قطعتها بجرأة أرْبَكته. هو يرى بعين عقله حقيقة المسافات بينهما، فيأبى الانسياق وراء شعور يعلم يقينًا أنه محكوم عليه بالإعدام، فيما وثبت هي فوق كل مسافة يصنعها بخِفّة

فراشة. كتم مشاعره، أحكم الإغلاق عليها. خشي مجرد الحلم لأنه يدرك أن رياح الواقع ستنسفه بلا رحمة. ولكن.. ليس دائمًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، أحيانًا تأتي بعين اشتهائها.

بادرت هي. جاءته معترفة بحبّها، كان صريحًا معها، وضّح لها الفارق بين حياة طبيب مبتدئ لا يملك من متاع الدنيا سوى شهادة سيعمل بها في مشفى حكومي نظير جنيهات، لن تكفي لبناء أسرة، وحياة تليق بابنة أستاذه رئيس قسم أمراض القلب وسيدة الأعمال الشهيرة. جرحت صراحته رقتها، غضبت، واتهمته بالجبن.

وعندما سأله أستاذه، فجأة ودون سابق تمهيد:

«هل تحبها؟»

انعقد لسانه ولم يجد ردًا.

«لا تصمت، أجبني.. تحب ميرنا؟»

ابتلع ريقه بصعوبة، حاول أن يتكلم، تلعثم، ثم نطق أخيرًا:

«صدقني دكتور، حدث دون إرادتي، أنا..»

«موافق»

«نعم؟!»

«كما سمعت. لن أجد أفضل منك لأطمئن على ابنتي معه.»

كان خوف الدكتور فوزي على وحيدته، بسبب مشاكله مع أبناء عمومته الطامعين فيما عنده وعند زوجته، دافعًا قويًّا لقبوله بآدم الذي رأى فيه رجلًا جديرًا بالثقة بإمكانه الاطمئنان على ابنته معه.

تم الزواج، وانتصر الحب الذي لم يلبث أن ضعفت عُراه بعد فترة وجيزة، هو لا يعرف السبب، وهي لا تجد ردًا حين تسأل نفسها عن الحب الذي كان بينهما سوى الصمت، وكأنّ شيئًا غامضًا يقف بينهما، ينال من الحب فيعكّر صفو مائه العذب. طالما بنيا قصورًا وتخيّلا أنهما ساكِناها. هل كانت المشاعر صادقة؟ هل كان ما بينهما حبًّا من الأساس؟

«لا.. كنت ألمس الصدق في عينيها، وأشم أريجه في كلماتها، كان الحب صادقًا، أما قصورنا فلم تكن كذلك، كانت قصورًا في الهواء، انهارت بعد أول عام لنا تحت سقف واحد.»

يوم زفافهما احتضنتهما راوية بكل ما في قلبها من حب. قالت لابنها بصوت ملؤه الشجن:

«اسمعني يا ابن قلبي.. الحب حين تشوبه الأنانية يصبح وبالًا على قلبكَ قبل قلبها، فالحب عطاء يسبق الأخذ.»

ثم قبّلتْ رأس ميرنا:

«وأنتِ يا من اختارها ابن قلبي:

الحب لا يعني أن يدور في فلككِ ويحرق الأفلاك الأخرى، بل اقتناعك بوجود أفلاك أخرى تتطلب جزءًا منه، فتشاركينه العناية بها بقدر حبكِ.»

بعض زملائه يتهامسون عن وساطة أستاذه ووالد زوجته التي بفضلها سيشغل عما قريب منصبًا لا يستحقه من وجهة نظرهم، متجاهلين تفوقه وتميّزه الذي يعترف به الجميع مذ كان طالبًا في الجامعة.

زاد من حدة التوتر بينهما، تدخُّل والدتها في حياتهما بشكل يثير حفيظته. أحزنها في البداية أن تعيش ابنتها في مستوى أقل مما هي عليه في ڤيلا التجمّع. وافقت على آدم تحت ضغط زوجها وابنتها، لكن لا تفتأ أمعاؤها تتقلّص كلما أتت لزيارتهما فترى سفرة أقل امتدادًا من سفرتها، بلا خدم يقفون فوق رأسها يهرولون يمنة ويسرة لتنزل اللقمة جوفها دون عناء. رفض آدم تدخّلها في حياتهما بشكل مباشر مرة وغير مباشر مرات، لكنها اليوم أكثر اطمئنانًا على مستقبل ابنتها في بيت طبيب القلب الناجح، الذي سيصبح نائبًا لمدير مستشفى من أكبر المستشفيات الاستثمارية في مصر، وهو في هذه السن الصغيرة.

راوية

سميّة، صديقتي الصدوقة. وقفت إلى جانبي كأخت منذ اليوم الأول لي في العمل بمكتب شؤون الطلاب بجامعة القاهرة. فرصة عمل حصلت عليها بوساطة أحد أصدقاء يونس. تعرَّفت عليها، أو في الحقيقة هي من تعرّفت عليّ. اخترقتني بتلقائيتها وروحها المرحة، أزالت الحواجز دفعة واحدة. أخافتني شخصيتها في البداية، لكنها سرعان ما أثبتت لي أنها (صاحبة صاحبتها)، عرفت منها الكثير عن نظام العمل، الناس وطباعهم، وفّرت عليّ عناء اكتشاف الشخصيات من حولي أو الوقوع فريسة لمكر الماكر منهم. عندما فتحت لي سمية صندوقها الأسود، عجبتُ لشابة صغيرة تحمَّلت كل هذا الوجع وحدها، وسألت نفسي قبل أن أسألها:

«كيف لمن تحمل فوق عاتقها هذه الهموم أن تمتلك روحًا مُقبلة على الحياة بكل حب وتفاؤل هكذا؟!»

ليس هذا فقط، بل تنقل عدوى تفاؤلها وإقبالها على الحياة إلى من حولها، وهي التي عانت غدر وخذلان أقرب الناس إليها. كانت سمية كلما نبت اليأس بأرضها، جرّفتها غير مبالية بالخسائر، وهل هناك خسائر تعادل تصحّر الروح وتيبّس خضار القلب؟!

«لو لم أكن كذلك يا راوية لمتُّ كمدًا منذ زمن، أو لاستوطنت الأمراض جسدي بلا شفقة. لا تملك صديقتك رفاهية الانهيار وسط عالم لا يرحم.»

إي والله، صدقتِ يا سمية، ها هو جسد صديقتك صار مرتعًا للأمراض وملاذًا آمنًا للمزمن منها. الحزن سحابة سوداء تستوطن القلب، لا تمطر إلا وجعًا، ولا تغادر إلا بعد ترك الندوب شاهدة.

تزوّجت سمية من ابن الجيران بعد قصة حبّ شهدت فصولها العمارة التي ضمّت شقتيهما بعد التخرج مباشرة، رغم قلة ذات يده، لكنها اقترحت عليه السكن مع أمها في الشقة.

«نؤنس وحدة أمي، ونحل المشكلة.»

استطاعت الفوز بفرصة عمل في مكتب شؤون الجامعة التي لا تبعد عن بيتها كثيرًا، بينما طال بحث زوجها عن عمل. ظل أسير عجزه عن اقتناص فرصة مماثلة، وكان ذلك أول شرخ في بناء حياتهما الزوجية.

جاءت ضحى، طفلتهما الأولى، فرحة أنعشت الحب من جديد وأعادت نفخ الروح فيه، ولأن الله كريم جعل الفرحة فرحتين، ورُزِق زوجها عملا بإحدى شركات التصدير والاستيراد. (البنات رزقها واسع) هكذا كانت تقول جدتي.

بعد عامين، حملت سمية بمولودها الثاني. أخبرهما الطبيب باحتمالية تشوّه الجنين، وبعد إجراء التحاليل والفحوصات، أكد لهما أنها تحمل بين أحشائها طفلة من أصحاب متلازمة داون. رسب زوجها في أول اختبار حقيقي وُضِعت فيه علاقتهما. أشار على سمية بالتخلّص من الجنين، ولمّا رفضت، تخلّى عنها، عاقبها برحيله كما لو أن الذنب ذنبها.

«هل أخطأتُ حين اخترتُ الحياة لابنتي يا راوية؟!»

وضعت منة، ابنتها التي رحل أبوها يوم ولادتها تاركًا زوجته تخوض معارك الحياة وحدها.

وهبت سمية حياتها لابنتيها. جفَّفت منابع مشاعرها، وأغلقت على قلبها بقُفل أخذت عهدًا على نفسها ألا تُمَلِّك مفاتِحه لرجل. نجحت في تربية البنتين تربية تفخر بها. تزوّجت ضحى منذ شهرين بعد انتهاء دراستها في كلية العلوم، وسافرت مع زوجها إلى إحدى دول الخليج. أما منة فهي الآن فتاة في العشرين، حقّقت حلمها في الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، لتكون من أوائل فتيات متلازمة داون اللائي التحقن بهذه الكلية.

«متى ستخرجين من البيات الشتوي؟ اعملي حسابك، سأمرّ عليكِ في العاشرة صباحًا، هذا أمر يا هانم وليس طلبًا ليكن بعلمك.»

«اشتقت للخروج معكِ والله يا سمية، لكن القلب مشغول يا غالية.»

«ومتى فرغ قلبك من الانشغال؟ لن أقبل حججك، نتقابل غدًا.»

بلطف الله نحيا، وبلطفه نتجاوز محنًا ظننّا أنها نهاية العالم. ومن لطف الله بي أن رزقني صحبة سمية.

رنّ هاتفي بنغمته المخصصة لآدم:

«اطمئني يا ست الكل. كله تمام، انتبهي لصحتك أنت، لا تنسي الدواء، وطمئني قلبك، أنا بخير. في القطار الآن. الصبح أكون عندك.»

وكيف يطمئن قلبي يا قلب أمك وأنا أراك تذبُل أمام عيني كزهرة أنهكتها قسوة الخريف، أراك تفقد شغفك بكل شيء وأنت في مقتبل العمر، تخاصم روحك الحياة في الوقت الذي تفتح لك فيه ذراعيها.

ميرنا ليست سيئة، لن أجعل غيرتي على ابني تظلم بنت الناس. أعلم يقينًا أنها تحبّه، لن أنسى تمسّكها به وسؤالها منذ بداية علاقتهما عن كل ما يحب آدم ويكره، اهتمّت بمعرفة ذلك سواءً مني أو من ليلى. ثراء عائلتها الزائد عن حدود المعقول شيّد الحواجز بينهما، وجعل ابني دائم الشعور بالنقص. زاد الوضع تعقيدًا تسلّط أمها التي تحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة تخصّهما وهو ما لا يقبله ابني.

عندما سألته عن سبب عدم اصطحابه ميرنا في سفره الأخير، تحجّج بالوعكة الصحية التي يمر بها حفيدي وعدم احتماله تعب السفر. أعلم أنه يغتنم كل فرصة للهرب بعيدًا عنها، كما أعلم أنه لم يحب، ولن يحب غيرها.

صاح هاتفي برسالة صوتية من يونس، حكى لي فيها ما حدث مع مايا باقتضاب، وطلب دعواتي الخالصة.

الحزن بادٍ في صوته المنهك، كان كما غيمة تحجب عني نبرته المعتادة.

قلبي عندك يا يونس ..

قلبي عندك!

يونس

اليوم كل شيء له ثمن، كل شيء خاضع لمبدأ البيع والشراء، فقط عليك معرفة العملة التي يسيل لعاب البائع فور تلويحك بها.

خبرٌ مجهول النّسبِ بعنوان مبهم يسهل محوه، نُشِر على صفحات جريدة تُتقن الصيد في الماء العَكِر. تمّ تكذيب الخبر صباح اليوم، وامتلأتْ صفحات الجريدة بإعلانات الدعاية لشركات صفوت الدميري، وخُصِّصت بها صفحة كاملة للإعلان عن أنشطة الجمعية النّسائيّة التي تديرها رانيا. كان هذا ثمن وأد الخبر مجهول النسب.

أما الشاب الذي دهسته ابنتي بسيارتها ودخل المشفى، فشُفِيَت جراحه فجأة بعد أن أخذ ما رآه تعويضًا عادلًا عن إصابة تمنّى لو تحدث له كل يوم.

«من حسن حظه أن مايا هي من دهسته، طاقة القدر فُتِحت له.»

قالها صفوت الدميري بعنجهية حمقاء، متباهيًا بقدرته على إسكات أصحاب الجيوب الخاوية.

في عيادتي بحي السيدة زينب، أسترِدُّ طمأنينة تسرقها العيشة في الأحياء الراقية. فـيلا الزمالك لم تعد سوى سجن أضِيقُ بأسواره حد

الاختناق، فأهرب بالانخراط في العمل، غارقًا في دوامة لا تنتهي بين مستشفى القصر العيني والعيادة لعلّي أنسى.

«وهل ستقضي العمر هاربًا يا يونس؟»

ذكرى أمي تلازمني هذه الأيام. تفاصيلٌ كثيرة يحتفظ بها عقلي الباطن في دهاليزه الخفيّة. اسمها بهيّة، وقد كانت اسمًا على مسمى، لم تدخل أمي المدرسة كغالبية نساء جيلها، وكحال أختيها زوجات أعمامي، لكنها ذهبت إلى الكُتَّاب فترة من طفولتها، حفظت خلالها بعض سور القرآن. عندما دخلتُ المدرسة أخذنا أبي -أنا وعمر- وسلّمنا لإمام المسجد ليحفِّظنا القرآن. كانت أمي تُسَرُّ بكل آية أحفظها، سور كثيرة حفظتْها معي، كانت تحفظ الآيات من ترديدي لها. هي بالكاد تكتب اسمها، رغم ذلك تحب العلم وتدرك قيمته، تراقبنا أثناء المذاكرة، وتلبّي احتياجاتنا جميعًا دون شكوى. كانت أمي مثالية في كل شيء، أمًّا وزوجة، لكن أبي أبدًا لم يرها كذلك، كانت في نظره لا تعدو كونها (حُرمة) لا تفهم سوى في الخَبز والطبخ.

موقف ظلّ حبيس ذاكرتي، لم يلتهمه النسيان ولا أظنه يستطيع. كنت في الصف الثاني الإعدادي، رسب أخي مجدى في عامه الأخير من المرحلة الابتدائية، أبي لم يجد شمّاعة يعلّق عليها فشل ابنه سوى زوجته، ولمّا فكّرتْ في الرد عليه لتدافع عن نفسها ضربها، لم يفعلها أبي قبل ذلك، معتاد هو على (الشخط والنتر) لكنه لأول مرة يمد يده ويضربها!

غضبت أختها الكبرى، خالتي نجيّة زوجة عمي العمدة منصور، جاءت واشتعلت حربًا كلامية بينها وبين أبي، صَمَّمتْ بعدها على أخذ أمي. بكيت وبكى إخوتي، رجونا خالتي أن تدع لنا أمي، وعدتها ألا نسمح لأبي بضربها ثانية، لكن خالتي لم تستمع إليّ، قالت:

«حين يعرف أبوك قدر أمك، يأتي ليأخذها.»

لكن أبي لم يذهب. مرت الأيام ولم يذهب، غضِب ساعة حدثته في الأمر، قال إني قليل التربية أتدخل في أمور الكبار. انتصف العام الدراسي، جاءت الامتحانات وأمي ليست معنا. اتخذتُ قراري، سأرسب عمدًا، لن أكتب حرفًا، سأسلم الأوراق فارغة، استطاع الأستاذ المراقب إرغامي على كتابة أي شيء في الورقة حتى لا يتعرّض للمساءلة.

فعلتُ ما فعلته انتقامًا لأمي، وليعلم أبي أن نجاحي فيما مضى كان بها ومعها. قررت تكرار ذلك في جميع المواد، لكن عمي منصور الذي علم بما فعلته من مدير المدرسة، استطاع حل الأمر. عمي منصور هو الأهدى طباعًا بين إخوته الثلاثة، بفضل حكمته عادت أمي إلى البيت، لطالما تمنّى الطفل بداخلي لو أنه كان أبي وليس عمي.

لم يعرف أبي قدر أمي، عرفه فقط عندما رآها تموت أمام عينيه.

لست قاسيًا على زوجتي قسوة أبي على أمي. هل لأنني كرهت قسوته فلم أشأ أن أصبح صورة منه؟ هل لأن ثمة فارق كبير بين أمي وزوجتي؟ أو ربما

لأن فارقًا آخر أكبر كان بيني وبين أبي، لستُ حازمًا مع أولادي بقدره. مهاب لم يضطرني لذلك، لكن مايا.. لماذا أهملتها إلى هذا الحد؟

.....

في المساء، كنت بغرفة مكتبي أبحث لسؤالي عن إجابة تعينني على إنقاذ ما يمكن إنقاذه: كيف أتعامل مع البنت بطريقة لا أندم عليها؟ كاذب من قال إن تربية البنات سهلة مقارنة بالصبيان، تجربتي تقول العكس، أم إن رانيا هي السبب؟ دلَّلَتْها أكثر من اللازم.

«وأين كنت أنا؟ لماذا تركتها لدلال أمها؟»

دخلت رانيا، تقدّم رِجلًا وتؤخِّر أخرى. جلست أمامي، بعد لحظات صمت قالت إن ما حدث غلطة ولن تتكرر، وإن الجريدة نشرت تكذيبًا للخبر.

قاطعتها:

- أي خبر يا هانم؟ هذا ما يهمّك؟ ابنتك تتعاطى المخدرات وأنت تهتمين بخبر وجريدة؟!

قالت إن الحقيبة لا تخص مايا، وإنها لصديقة رافقتها في حفل عيد الميلاد.

سمعت صوت طَرَقَات على باب الحجرة أعرفها، طرقات لم أسمعها منذ زمن، وقفتْ عند الباب لثوانٍ قبل أن تتقدم في خطوات مترددة.

- أنا .. آسفة!

حاولتُ ضبط أعصابي:

- آسفة؟! آسفة لأنك خرجتِ دون علمي؟ أم لأنك تأخرتِ لنصف الليل؟ أم لأنكِ دهستِ شخصًا بتهورك؟ أم آسفة لأنك تتعاطين المخـ..

- قلت لك يا يونس إن ..

- لو سمحتِ يا رانيا، كلامي مع البنت، وهي ترد!

كررت ما قالته أمها، قلتُ مستنكرًا:

- لصديقتك؟ ولماذا نصاحب هذه الأشكال من الأساس؟

أخذت منها مفاتيح السيارة، بإمكانها أن تستقل المواصلات كغالبية زملائها. قلت لها إن الخروج من اليوم سيكون للجامعة فقط، وإن هذا العام هو فرصتها الأخيرة وإلا فلتنسى الجامعة والدراسة. صاحت وشرعت تدبّ الأرض بقدميها كالأطفال. سحبتها أمها من يدها بعيدًا عني، برطمت بكلام كثير، قالت إنها كبرت، وإن هذه التحكمات الفارغة لم تعد تناسبها، وإنني ديكتاتور أريد تحجيم حريتها.

رنّ الهاتف، مهاب يتّصل، كنت قد أرسلتُ له رسالة على الواتساب، يبدو أنه رآها الآن. أجبت على الهاتف بينما أستقل السيارة متجهًا إلى العيادة.

«هدّئ نفسك يا بابا. مايا طائشة، وللأسف ماما أعطتها ثقة زائدة. تحدثت معها، صدقني بدأت تحس بحجم الكارثة، تحدثت أيضًا مع مايا. اهدأ وحاول أن تأخذ الأمور بحكمة كما عودتني.»

هدأت بالفعل بعد حديثي معه، تذكرت المثل الذي كانت أمي تردِّده:

«لمّا قالوا دا ولد اتشدّ دهري واتسند»

رحمة الله عليكِ يا أمي.

-3-

«لا تكن كأبيك.»

«أولاد عمك تودّد إليهم يا زين.»

«لا تترك ابنة عمك للغريب يا وليدي.»

وصايا أمين الزهيري لحفيده زين وهو على فراش الموت كانت نقطة التحوّل الأولى في حياة الحفيد.

كان أمين الزهيري في أواخر حياته يحمل فوق عاتقه قائمة من الأمراض المزمنة، استوطنت جسده بلا رحمة. منذ موت زوجته الحاجة زهوة، وهو يسمعها تناديه! يشعر بدنو أجله، ويرجو أن يموت في فراشه وسط أولاده، هكذا قال لابنه صالح عندما رفض دخول المشفى. أصرَّ زين على نقل جدّه إلى المشفى ليتلقَّى رعاية متكاملة تتناسب ووضعه الصحي الحرج. أربعة عشر يومًا كاملة قضاها بصحبة جده في المشفى، وقبل مفارقة الأخير للحياة، أمسك يد حفيده، قال وهو يضغط على معصمه:

«إيّاك يا ولدي تترك لحمك، تزوّج ابنة عمّك يا زين.»

لا تزال كلمات الجَدِّ تطِنّ في أذن حفيده، وبعد أحاديث طويلة مع أمه حول زوجة عمه وأبنائها، وأملاك المرحوم أبيهم التي يرعاها صالح، قويت رغبة زين في تنفيذ وصية جده التي اقتنع بها على المستوى الشخصي، واقتنعت بها أمه أيضًا.

يعرف زين أن أباه ليس سيّئًا -في هذا الموضوع على الأقل ـ حتى ينهاه جدّه عن التشبه به. حكى صالح لابنه زين عن محاولاته مع زوجة أخيه لإقناعها بالعودة، لكنها صمّمت على العيش في القاهرة بعيدًا عن مكان فقدت فيه زوجها وابنها.

«حتى عمّك يونس حاول معها، لكنه دافع عنها لمّا أراد جدك إجبارها على العودة.»

بعد قضاء زين عامه الأول من كلية الحقوق بجامعة أسيوط، نقل أوراقه إلى جامعة القاهرة ليكون قريبًا من هدفه. رأى ليلى أكثر من مرة طوال العام الماضي، لكنه كان يكتفي برؤيتها من بعيد حتى تمكّن هذا العام من الجلوس معها ومحادثتها عن قرب، وكان ذلك بمساعدة عمه الدكتور يونس.

«بعد وصية جدّي أصبح الزواج بليلى هدفي الأول. أدرك صعوبة الأمر، وتراه أمي مستحيلًا. كراهية قديمة بينها وبين زوجة عمي، لكنني لا أعرف المستحيل.»

يوم رآها لأول مرة في الجامعة عاد مأخوذًا بجمالها، بعينيها العسليّتينِ، وأنفها المُستقيم، وبشرتها البيضاء الصّافية كالمرآة، بياضها مُشرب بِحُمرةٍ فاتنةٍ.

«ليس فيها من الملامح ما يخبر عن أصلها الصعيدي، وكأنّها قاهرية أبًّا عن جد.»

هكذا حدَّث نفسه وهو يتصفّح ملفها الشخصي على فيس بوك. خمسة أشهر مرّت على إرساله طلب الصداقة، في كل مرة تمتد يده لتفتح التطبيق، يتلهّف إلى رؤية إشعار قبولها للطلب، أخيرًا أتى اليوم الذي نال فيه ما تمنى.

«وأخيرا تكرّمت سمو الأميرة عليّ وقَبِلَت بي ضيفًا في مملكتها.»

أرسل جملته فور قبولها الطلب، ردّت عليه بتعبير وجه ضاحك. بعد دقائق من الانتظار، فكّر أن يرسل إليها بعضًا من قصائده التي يكتبها، لكنه تراجع، وأرسل إليها مقطعًا مرئيًّا من أغنية (ليلى) لرامي محمد.

بغيرِ الماءِ يا ليلى تشيخُ طفولةُ الإبريق

بغيرِ سماكِ أجنحتي يجفُّ بريشها التّحليق

صباحُ الأغنياتِ الخُضر ندّتها دموعُ النّاس

صباحُ أنوثةِ الدّنيا صباحُ طفولةِ الإحساس!

أتبع المقطع بجملة واحدة: رائع أن يسمع المرء أغنية باسمه، وتكون بهذا الجمال.

.....

في حجرة متطرفة بعيدة عن صخب البيت الكبير، يجلس متقرفصًا في أحد الأركان، يحدّق في السقف حتى ليخيّل لمن يراه أن عينيه لا تطرفان. حجرة نوم يُعشش الإهمال في زواياها؛ سرير غير مرتب، ودولاب مفتوح تدلّت الملابس من إحدى دَرَفاته.على الأرض، وُضِعَت صينية طعام تفوح رائحته. نهض من جلسته في ركن الحجرة، ويداه المرتعشتان تتدليان بجانبه، ثم

جرجر الصينية حتى باب الحجرة. فتح الباب ودفعها بقدمه إلى الخارج مثل كرة، ثم أغلق الباب.

على الأرض، نام هذه المرة على ظهره، عاد للتحديق في السقف، لكنه جلس فجأة، وضع يديه على أذنه كما لو كان يحاول تجنب سماع صوت مزعج، ثم تعالت صرخاته. هرولت الأرملة الشابة، التي تخدم في بيت صالح الزهيري، نحو حُسْن لتخبرها أن ابنها قد (جاءته الحالة).

ذهب زين إلى حجرة أخيه، وبعد صرخات ولكمات، تمكّن من إعطائه الحقنة المهدئة التي يتناولها كلّما عاودته هذه الحالة، ويبدأ بعدها الخبط والرزع على الأبواب.

قال زين وهو يلتقط أنفاسه:

- هدأ يا أمي، أليست المستشفى أفضل من ..

قاطعته:

- لا مستشفى ولا يحزنون! لا تفتح لي سيرة انتهينا منها من سنين (وحياة أبوك)، لا ينقصني وجع رأس.

جلست على كنبة (الأنتريه)، ثم نظرت إلى ابنها نظرة ذات معنى:

- احكِ لي عن مصر وناس مصر.

وبعد انتهاء حديثهما، طلب منها أن تدعو له بالتيسير. قهقهت وقد زال عن وجهها آثار الانزعاج:

- ربنا يفتح لك الأبواب المقفولة يا ابن حُسْن.

يحلو لها مناداته بـ (ابن حُسْن)، سيَّما حين تكون راضية عنه وعن أفعاله.

.....

وفي بيت العمري، قالت فوزية لزوجها عبد الناصر، وهي تمسح دموعها بطرف طرحتها:

- البنت شاطرة في المدرسة، سايق عليك النبي تخليها تكمّل تعليمها.

لعبد الناصر العمري، خمس بنات، أصغرهن لا تزال تحبو. أقسم لزوجته أنه لن يكتفي حتى تعطيه الولد كي يقطع لسان كل من يناديه بأبي البنات. ماذا يزيد عليه عاصم، أخوه الأصغر؟ رُزِقَ بولدين، صحيح أن زوجته لم تنجب غيرهما، لكنهما كافيان، كافيان جدًا.

«انظر لسعد، ربما حاله يُعلِّمك الحمد.»

كانت تقول له دائمًا.

لم ينجب سعد، أكد الأطباء عدم وجود ما يمنعه أو يمنع زوجته آمنة من الإنجاب. تزوج عليها مرتين إحداهما كانت في الخفاء، مع ذلك لم تغضب، ولم تترك البيت، لم تسأله لماذا فعلت؟ تزوج وطلّق، وتزوج وطلَّق، ثم استسلم، وعاد إلى أحضان آمنة.

الابنة الوسطى لعبد الناصر في عامها الأخير من المرحلة الإعدادية، تقدم لها اليوم عريس فوافق أبوها، وقرر إخراجها من المدرسة. يقول إن بناته ليس لهن حظ في التعليم، الكبرى تزوجت بعد حصولها على دبلوم الثانوية الصناعية، والثانية دخلت الثانوية التجارية، وهذه الثالثة ستؤول بالطبع مآل أختيها، فما الفائدة؟ يزوجهن من الآن ويريح رأسه.

ولمّا فاض بها الكيل، شكت فوزية لسعد لعله يقنع أخاه بالتراجع عما اختمر برأسه:

- يا ابن عمي، شوف لك حل مع أخيك، بنتي لا تريد هذا الزواج. @

سعد اليوم، وهو على أعتاب الستين، يختلف عن سعد الأمس. هو نفسه يعترف بذلك. هل السنوات غيرته؟ شعور الوحدة؟ الحرمان من الولد؟ يشهد الجميع على تدليله لأولاد عاصم وبنات عبد الناصر، يعزون ذلك إلى حرمانه من الخِلفة. قديمًا كانت له الكلمة الأولى في البيت، لكن قرار تزويج البنات، هل يملكه؟

قال لأخيه وهما يتناولان شاي العصاري على الدّكة أمام البيت:

- لا تقَفّل مخك يا أخي حتى لا يأتي يوم وتندم.

أجابه وهو ينفث دخّان سيجارته:

- الزواج سُترة، البنات حِمل ثقيل يا سعد، أنت ما تشعر به.

أوجعته جملة أخيه، لكنه أكمل:

- والبنت رافضة، هل نزوّجها غصبًا؟

قال بنبرة غاضبة:

- هي صغيرة لا تعرف مصلحتها، غدًا لمّا تفهم تشكرني لأني زوّجتها بدري بدري!

صمت سعد برهة، دقَّ الأرض بعصاه دقّتين، ثم سرح بنظره في الأرض الفضاء أمامه:

- فاكر زينب يا ناصر؟

عاد عبد الناصر بذاكرته سنوات عديدة إلى الوراء، وتوقّف عند ساعة الفجر التي حمل فيها جسد ابنة عمه المتفحّم بيده قبل أكثر من ثلاثين سنة. رجفة خفيفة سرت في جسده، وهو يتخيل نفسه حاملًا جثة ابنته.

وقف سعد، وقبل انصرافه، وضع يده على كتف أخيه:

- تكفينا زينب واحدة في العائلة. استهدى بالله وارحم بنتك، ليس هذا زمان الغصب يا أخي!

راوية

حديقة الأورمان النباتية، الجنة الخضراء التي تقع شرق جامعة القاهرة. جئتُ إليها أول مرة رفقة سمية منذ عشرين سنة، أدهشني جمال المكان ومساحته الشاسعة.

«يا الله! ثمانية وعشرون فدانًا!»

«في البداية كانت خمسة وتسعين فدانًا، هُنا يا ستي توجد أكبر مجموعة نباتية، تضم مائة فصيلة. أُنشِئت في عهد الخديوي إسماعيل سنة 1875م، بقيت الحديقة تابعة لقصر الخديوي حتى سنة ١٩١٠م، ثم تسلمتها وزارة الزراعة.»

تساءلت مازحة:

«أنتِ عارفة الـ c. v بتاعها؟!»

ضحكتْ:

«من شدة حبي للأشجار والنباتات، حوَّلْت سطح البيت جنينة جميلة جدًا، قريبًا سآخذك في جولة وأريكِ جنتي الصغيرة.»

عندما يهدينا القدر صديقًا حقيقيًا، علينا التشبث بيده جيدًا، فهموم الحياة أثقل من أن تحملها كتف واحدة. ولقاء مع صديق يعرف طريق

القلب بلا عناء، كفيل بأن يُنسِي القلب كل هم ألمّ به. اليوم أخذتني سمية إلى الحديقة كي نجدد الذكريات.

قالت ونظرة يأس غمرت عينيها فجأة:

- الأيام تجري كحصانِ سبق، والعمر يمر كحلم!

سألتها عن سبب الحزن في نبرة صوتها، شردت لحظات قبل أن تنطقها:

- وليد مدكور، وطلبه القديم الجديد.

قلتُ مدهوشة:

- وليد! ألم يفقد الأمل؟!

صمتت، فغمزتُ بعيني، وضربت على كفها في محاولة مني لتغيير جو الكآبة الذي ساد فجأة:

- لكن يبدو أن موقفنا تغيّر.

وهي ترفع نظارة الشمس فوق حجاب رأسها الأزرق:

- ماذا تقولين؟

- لست أنا، وجهك هو الذي يقول. ألم تنظري في المرآة؟! أنا مشتاقة أسمعك. لن أتركك اليوم حتى تفرغي ما في رأسك.

فانبرت تحكي لي جديدها.

كان وليد يعمل معنا في المكتب نفسه، لاحظتُ اهتمامه بسمية منذ اليوم الأول لي في العمل، عرفت منها بعد ذلك أنه يحبها، وقد تقدم للزواج منها بالفعل. تقدّم للزواج من سمية التي تكبره بسنوات ثلاث، لم يرَ في السن

عائقًا أمام حبّه، ولم يدفعه إلى إعادة حساباته كونها مطلقة وأمًّا لطفلتين معلَّقتين برقبتها، لكن سمية كانت قد اتخذت قرارها بعدم الارتباط إلا ببناتها، وأغلقت هذا الباب تمامًا.

فاجأني مرة بعد أن توثقت علاقتي بسمية:

«تحدثي معها يا راوية، بناتها بناتي، لن أقصِّر معهن أبدًا.»

«أعرف يا وليد، وسمية أيضًا تعرف. هي لا ترفضك أنت، هي ترفض المبدأ..»

حاولت معها رغم معرفتي للنتيجة. ولمّا تأكد له رفضها، طلب نقله من المكتب تجنّبًا لرؤيتها كل يوم، هكذا أخبرني يومها. مرّت الأيام والشهور، وارتبط وليد بابنة خالته، لكنه انفصل عنها بعد عام واحدٍ. وبعد انفصاله، جدَّد طلبه لسمية التي كررت بدورها الرفض. لم ييأس، وظل طلبه يتجدد كل فترة، وها هي تخبرني أنه عاد مجددًا. سمية الآن في الخامسة والأربعين، وهو تجاوز الأربعين وحيدًا بعد فشل تجربته الأولى.

تنهّدتْ:

- العجيب أنني وبعد كل هذه السنوات أجد بداخلي هذا التردد اللعين. أعرف، أعرف استحالة الأمر. رفضي له عذبني كما عذبه، لكن عذابي كان مجرد شعور بالذنب لأنني أراه يعاني بسببي. أما الشعور الذي أعانيه الآن ..

كانت تتحدث بسرعة وانفعال واضح حتى ارتفعت نبرة صوتها قليلا عن المعتاد، قاطعتها:

- اهدئي يا سمية، خذي نَفَسِك. لماذا تلومين نفْسَك على شعور لا يد لكِ فيه؟ ثم مَنْ حكم باستحالة الأمر؟ أنتِ في عز شبابك، والزواج لا عيب ولا حرام.

وضعت نظارتها على المنضدة أمامها:

- أنت يا راوية تقولين هذا الكلام؟!

-اسمعيني يا غالية. أنت الآن لم تعد على عاتقك المسؤولية التي كنتِ تخافين عليها في الماضي، ضحى ما شاء الله تزوّجت وتعيش حياة مستقرة مع زوجها، أما منة فإذا اطمأنت لن تمانع. هي كبيرة إلى الحد الذي يجعلها تفهمك وتقدِّر رغبتك.

- ومن قال إنها رغبتي؟

- عيناك، القلق الذي يملأهما، والشعور الذي تحكي عنه. كل هذا لا يكفيك يا ست سمية؟

طال صمتها فقلت وأنا أضغط على يدها:

- سمية، أعْطِي نفسك فرصة، فكِّري جيدًا، ولا تتعجلي الرفض هذه المرة.. عِدِيني!

أيقنت بعد حديثي معها أني على حق. ثمة تغيّر اعترى موقفها الرافض للارتباط بوليد، ربما كما أخبرتها لأنها اطمأنت على بناتها، ربما لأنها فعلا تحبه وكانت طوال تلك الفترة تكابر، وتقاوم لأجل بناتها أيضا، والوعد الذي أخذته على نفسها بالتفرغ لتربيتهن، وربما هو الاحتياج الفطري

للحب والخوف من الوحدة. هي مشاعر تطاردنا عندما نكبر، ينفضّ الأولاد من حولنا، وينشغلون بحياتهم.

لم تفارقني الذكريات كي أشعر بالوحدة. طيف عمر يحوطني، ويطوّق تفاصيل يومي، تقول سمية: الذكريات تصيب الإنسان بالمرض.

«ليس قولي يا راوية، هذا قول سيجموند فرويد.»

وهل كل ما يقوله علماء النفس صحيحًا؟!

صحيح أنني أحمل على عاتقي حُزمة أمراض لا بأس بها، لكن الذكريات.. الذكريات هي ما أعيش عليه، ذكرياتي مع عمر هي قوتُ يومي الذي لولاه لمِت شوقًا.

بعد رحيله، خاصمتُ القهوة، وخاصمني القمر، وهجرت القصائد كلها وكسّرت القلم. يطالعني طيفه كل ليلة، أسامره، ونستعيد معًا الزمان القديم.

أما زلت تذكر نكهة قهوتنا يا عمر؟!

لم تكن تشربها إلا من يدي. بعد رحيلك، أمسى مذاق القهوة مرًّا في فمي، يبدو أن تلك النكهة لم تكن سوى نكهتك بجانبي، نكهة فقدتُها إلى الأبد.

أتذكُر القمر في ليالي الصيف، وحكاياتنا معه؟

لم يعد القمر يبتسم لي وهو يطل من سمائه كما كان يفعل ونحن معًا. تُرى، هل كان يبتسم لك، وكنت أخاله خطأً يبتسم لي؟ أم أن ابتساماته لم تكن إلا انعكاسًا لوجهينا معا، ولمّا رحلت تشوّهتِ الصورة والانعكاس.

أتذكر آخر قصيدة ألقيتَها على مسامعي؟

كتبتَها في ذكرى لقائنا الأول، أصررتُ على سماعها منك في تلك الليلة، كنت معي بنصف قلب. الصّراع بين العائلتين كان قد وصل إلى ذروته. حاولت استنطاق عينيك، لكنهما أجادتا الهرب، بينما حاولت يدك أن تطمئنني بهدهدة حانية، ساعدتها رأسك التي هززتها في محاولة فاشلة للكذب لتخبرني أن الأمور بخير. هل نسيت أنك تملك قلبًا من مَرَايا يعكس لي نبضاته وخلجاته بيضاء من غير سوء؟ لم أكن أعلم أنها آخر ليلة سأسمع فيها شدوك تحت أنوار القمر، لم أكن أعلم أن تلك الليلة هي آخر ما تبقى لي من عشر سنوات هي كل نصيبي من الحياة، ومنك.

في المساء، اتصلتُ برانيا، أخبرتها أني وليلى سنأتي لزيارتهم للاطمئنان على مايا. صوتها باهت، ونبرتها لا تبشر بالخير، لكنها رحَّبت بالزيارة التي لم تستمر سوى نصف ساعة. لم نجد مايا بالبيت. قالت رانيا إنها خرجت مع إحدى صديقاتها، يونس لم يعد بعد من عيادته. عينا رانيا كانتا كجمرتين ملتهبتين، رغم حزنها البادي على وجهها إلا أنها أكثر هدوءًا، هل هدوء أم استسلام؟ لست أدري، لكن شيئًا فيها لم يكن على ما يرام.

-4-

أشرقت الأرض بنور ربها، وفي القاهرة، المدينة التي لا تنام، (تشْغِي) الأرض بالأقدام الساعية كلٌّ إلى وجهته. في محطة رمسيس، تقترب الساعة من السابعة والنصف. تتراقص أشعَّة الشمس على واجهات المباني كما فرشاة رسَّام أضفت سحرها على هذه الأرضِ الحيّة، حركة لا تتوقّف، المارّة، السيّارات، الباعة. رائحة الحياة هنا قوية ومسيطرة، يتصاعد أريجها فيسحر كل من يمسّه نفحها، فلا يملك إلا العودة ليشتمَّها من جديد.

في شارع أحمد حلمي خلف المحطة، تقف مرسيدس C 180 2016، تستقلّها ميرنا في انتظار القطار العائد من سوهاج. تعاود الاتصال بزوجها، لكن يأتيها الرد في كل محاولة:

«الهاتف الذي تحاول الاتصال به غير متاح حاليًا ..»

فتحت حسابها على فيس بوك، وكتبت:

(لا شيء يهلك الروح كالتعلق، يوم تتعلق الروح تكون الضريبة غالية، تُضرم في الأحشاء نارٌ حامية تلتهم جزءًا من صاحبها كل يوم، نار لا يطفئها صبر ولا يُجدي معها تصبّر. عندما يقسو الحبيب تكون للقسوة مرارتها الخاصة، عندما يقسو الحبيب، يحار العقل في اختلاق المبررات حين يفتش عن عذر فلا يجد..)

وقبل أن تضغط (نشر) عدّلت خصوصية (البوست) ليصبح (أنا فقط)!

تؤمن ميرنا، رغم كل شيء، بأنها ستلتقي بحبيبها القديم ذات يوم، ستذوب الخلافات، ويُقبر الألم، ويتخلصان معًا من كل سوء مرَّا به. سيجتاح الحنين قلبه بلا هوادة ويعود إليها، هكذا تُصبّر قلبها كل صباح. ليس ذنبها أنها تنتمي لعائلة غنية، أيكون غِنَى والديها لعنة تحيل حياتها نارًا متأججة، وتحرمها لذة الحب؟!

سألت آدم عن موعد وصول قطاره، قال إنه في السابعة والنصف. لم تخبره بعزمها على انتظاره في المحطة، منذ استقلت السيارة وهي تحاول الاتصال به. آخر ظهور له على الواتساب منذ ساعة، تركت له رسالة.

أنتظرك في المحطة. ✓

عادت إلى تأمل الحركة من حولها، وهي ترجع بظهرها إلى الوراء حتى يلامس مقعد السيارة. تذكّرت حوارها مع راوية قبل دقائق، عندما مرّت عليها لتترك عمر معها لحين عودتها.

«قلتِ لآدم؟ يعني، تعرفينه، لا يحب المفاجآت!»

ردت ميرنا بإن الأمر لا يستحق، وأضافت أنها ستذهب قريبًا من هناك لتتسلم نتائج التحاليل التي أجروها لعمر منذ يومين.

انتبهت من شرودها على صوت إشعارات الهاتف. أخيرًا، آدم متصل على واتساب.

أنتظرك في المحطة. ✓ ✓

لا تتعبي نفسك، ابقي مع الولد.

أنا في المحطة بالفعل. ✓ ✓

في طريقهما إلى البيت، نسج الصمت ثوبًا رماديًّا على المشهد لدقائق، قبل أن تقطع ميرنا خيوطه بسؤال عن الرحلة والمؤتمر وسوهاج.

- كله تمام. كيف حال عمر الآن؟ ما كان في داعي تتركيه هذه الساعة!

- مع ماما راوية. تعرف طبعًا، كل صباح ينزل من العاشر للثاني ليصبّح عليها. ثم إنها أحرص عليه مني ومنك.

قال بنبرة حادة:

- ما في أحرص على الطفل من أمه. ضعي هذا في رأسك.

وعاد الصمت، الذي لم تستطع ميرنا تمزيق خيوطه هذه المرة، بل اتخذت منها ملاذًا تداري فيه انكسار خاطرها. انطلقت السيارة في طريقها إلى البيت، فيما ظل الصمت يتوسطهما، لم يبرح مكانه حتى وصلا.

.....

في الثالثة مساءً، كانت ليلى وسالي في إحدى قاعات الجامعة، تشاركان في جلسة أدبية ضمن فعاليات نادي الأدب. في البداية، اندهشت سالي عندما رأت صديقتها تدخل القاعة، فلطالما طلبت منها حضور مثل هذه الجلسات. ولكن لحظة رؤيتها لزين يعتلي المنصة، عرفت مَن الذي أقنع ليلى بالحضور. تبادلتا نظرة ذات معنى، ثم راحتا تستمتعان بالجلسة الشعرية التي استمرت قرابة الساعتين.

أمام القاعة، أبدت سالي إعجابها بشاعرية زين، ووصفته بفارس شعراء الجامعة. ضحك وهو ينظر إلى ليلى:

- هذا نصيبي في عمي عمر، ورثت عنه هذه المَلَكَة.

شعرت ليلى بالامتعاض قليلا بعد سماع جملته، ولم تعرف سببًا واضحًا لذلك. هل كانت جملته هي السبب في ضيقها؟ هل مدح سالي في زين وشِعْره؟ بينما تبحث داخلها عن سبب شعورها المفاجئ، رنّ هاتفها بإشعار رسالة عبر الواتساب من آدم، يطلب منها الانتظار قليلًا، لأنه عالق في الزحام، وسيمر لأخذها كي يعودا سويًا إلى البيت.

استأذنت سالي للذهاب إلى محاضرة لها ستبدأ بعد قليل. ظلت ليلى مع زين، الذي تقدَّم خطوات ليتوقف أمام ملصق وضع حديثًا على لوحة الإعلانات أمام القاعة. كان إعلانًا عن رحلة إلى مدينة الأسكندرية. قرأ الإعلان بصوت عالٍ، ثم علق:

- قولي لهم إنني موافق على الاشتراك في الرحلة، بشرط، أن تشترك ابنة عمي أيضًا.

ضحكتْ:

- أنا؟ أنا آخر من يفكر في القيام برحلة مع الجامعة.

وأضافت أن الدراسة في كلية الهندسة مرهقة لدرجة أنها لا تجد وقتًا كافيًا للمشاركة في الأنشطة، بالإضافة إلى رفض أمها لمثل هذه الرحلات.

- يبدو أن زوجة عمي لا تزال صعيدية أصيلة رغم السنوات التي عاشتها هنا.

- فعلًا، بالإضافة إلى خوفها الزائد حبتين.

- أم أنها حُجّة والسّلام، مثل انقطاع النت وبطارية الهاتف التي تفرغ فجأة فلا نكمل المحادثة؟

ارتبكت فعبثت بنظارتها. أنقذها من ارتباكها رنين الهاتف، كان آدم يتصل بها وهو على بُعْد خطوات منها. ضغطت على زر الصوت وهي تلوِّح بيدها لأخيها، وتستأذن زين الذي ظلت نظراته تلاحقها، ثم انتقلت إلى ملاحقة آدم.

في السيارة، شعرت أن أخاها عابس قليلًا، فأرادت أن تغيّر الجو النفسي. أدارت مسجّل السيارة، فانطلق صوت فيروز بأغنية (رجعت الشتوية)، متهاديًا مع نسمات الهواء. طلب منها أن تخفض الصوت قليلًا، فقالت وهي تنظر في مرآة السيارة تعدّل من وضعية الحجاب فوق رأسها:

- بالأمس وصلت يا دكتور، لحقنا نتخانق؟!

حاول أن يبتسم:

- لم نتخانق يا لمضة، مرهق قليلًا.

- بالمناسبة يا آدم، تعرف أنني لا أحب المبالغات، لكن ميرنا تحبك، تحبك جدًا، أكثر ما تتصور.

هزّ رأسه، ثم ولّى وجهه عنها، هرب بعينيه بعيدًا، وبدأ يدير حوارًا ينتصر فيه لنفسه، حوارًا صامتًا لا يسمعه أحد سواه.

.....

«لم أكن أعلم أنك بهذه السذاجة، يا دكتور يونس!

تعتقد أن بإمكانك منعي من شيء أريده؟ أشعر برغبة شديدة في الضحك وكأنني أسمع نكتة، نكتة سخيفة مضحكة حد البكاء. أين كنت قبل اليوم؟ أين كنت أيام انتظاري لك؟ انتظرتك كثيرًا ولم تأتِ! الآن تريد مني أن أكون كما تهوى؟! تريد ممارسة دور الأب معي؟ هل رأيت منك اهتمام الأب كما اهتممت بليلى على الأقل؟!»

كانت مايا تُحدّث نفسها وهي تروح وتجيء في غرفتها، قبل أن تدخل أمها فتصيح في وجهها بغضب:

- سأفعل ما أريد! أخبريه أني لم أعد صغيرة، لم أعد صغيرة.

- اهدئي.. تهورك هو السبب، قلت لكِ اقطعي علاقتك بتلك البنت، ماذا فعلتِ؟ ذهبتِ إلى الحفل معها! حتى أنا لا تستمعين لكلمتي.

- لم أذهب معها، قابلتها هناك. طلبت مني أن أوصلها في طريقي، ما أدراني أنها ستنسى (الزفت) الذي تتعاطاه في السيارة؟!

سألتها رانيا بلهفة:

- مايا صارحيني، هل.. هل حدث أن تعاطيتِ هذه الأشياء؟

عبثت مايا بغرتها بعصبية، وقفت وفتحت خزانة ملابسها:

- لا تكرري كلامه السخيف. لو أصرّ على تحكّماته سأترك لكم البيت، سأتركه يا ماما.

وقفت رانيا، احتضنت ابنتها، حاولت الأخيرة الإفلات، لكن رانيا تشبثت بها، أجلستها على حافة السرير وهي لا تزال في حضنها.

بعد لحظات صمت قالت رانيا:

- لماذا لم تخرجي لمقابلة ليلى؟ جاءت لتطمئن عليكِ مع أمها.

صاحت وهي تقاوم دموعها:

- هذه المرأة وأولادها هم السبب في كل ما يحدث.

وضعت مايا رأسها على فخذ أمها، فانفلت الدمع الحبيس بعينيها ساخنًا، تساقط متحرّرًا من قيده، وانهدم معه جدار الصمت، فانطلق لسانها:

- هل تذكّر الآن أن له ابنة وجاء ليمارس عليها سلطته وتحكماته الفارغة؟ الآن تذكرني؟ أين كان قبل اليوم؟ هل تظنين أنني نسيت؟ هل يمكن أن أنسى؟! هل تذكرين يا ماما؟ هل تذكرين حفل الأوائل في آخر عام لي في المدرسة الابتدائية؟ كنت الأولى على المدرسة. كل زملائي معهم آباؤهم وأمهاتهم إلا أنا، كان أبي مشغولًا مع ابنة أخرى. تركني وذهب ليطمئن على ليلى، ليلى هي الأهم عنده دائمًا.

مسحت رانيا على شعر ابنتها وهي تربت على كتفها:

- ألا يكفيكِ أنني كنت معكِ يا مايا؟

بصوت مخنوق بالبكاء:

- لا تدافعي عنه كعادتك، دعيني أُخرج ما بداخلي يا ماما. هل تتذكرين احتفالات المدرسة بأعياد الطفولة؟ كم مرة حضر معي؟ كم مرة رآني على مسرح المدرسة أو شجّعني كما كنتِ تفعلين؟ في كل مرة هناك عذر، عذر يخص ليلى وأسرتها. في يوم احتفال المدرسة الثانوية، رجوته أن يأتي ليراني على المسرح ويستمع لأغنيتي، أغنية اخترتها بعناية. كانت عن الأب، هل تذكرين؟ فكرتُ فيها لأجله، قلتُ ربما تجعله يتذكرني، يراني، يهتم بي على الأقل كما يهتم بليلى. تركني في منتصف الحفل قبل تقديم فقرتي بعد مكالمة من الهانم أم ليلى، ذهب ليطمئنها على ابنها، ذهب دون لحظة تردد واحدة. بعدها لم أعبأ به وباهتمامه، لم يعد يفرق معي. الآن جاء ليقول إنه أبي، وإنه يهتم لأمري؟ الآن يا ماما؟

كانت رانيا تستمع إلى ابنتها والدموع تملأ عينيها، وكلتاهما لم تلاحظا الأب الواقف خلف الباب الموارب، يمسح دمعة ندّت من عينيه، لتسقي جراحًا قديمة فوق تجاعيد وجهه القَمحِي.

يونس

الوجع الذي تملّكني إثر سماعي لكلماتها أعجزني عن مواجهتها!
ماذا أقول لها؟
محقّةٌ هي في كل ما قالت.
بينما كنت أحاول التكفير عن تقصيري في حق ابن عمي، هل قصرت في حق ابنتي إلى هذا الحد؟ إلى الحد الذي جعلها تكرهني، وتُغَلّق باب قلبها في وجهي بهذا العنف؟
ذكَّرني كلامها بكل ما حدث..

كنت يومها في مسجد السيدة زينب، عقب صلاة الجمعة. منذ أن سكنت القاهرة وأنا أصلي الجمعة في هذا المسجد، لا أعلم سرًّا وراء هذا، ربما لأنني تأثرت بحب أمي لهذا المكان الذي تتبرّك به كلما جاءت لزيارتي. لمّا أخبرتها بعزمي على السكن في القاهرة حزنت لابتعادي عن البلد وعنها، لكنها تفاءلت خيرًا، وقالت إنني نلتُ رضا الله دون مِراء لأنني سأسكن في رحاب آل البيت.!
«شي لله يا أم هاشم، مدد يا آل البيت.»
كنتُ أضحك من كلامها، لست تابعًا لأيّ طريقة ولن أكون يومًا كذلك، لكنني أعترف أن شيئًا غامضًا ربطني بالمسجد بل والحي بأسره.

رنّ هاتفي، كان المتّصل عمي منصور. قلق ينتابني مع كل مكالمة من البلد هذه الأيام بعد الحرب التي بدأت هناك منذ شهور، خصومة ثأرية اشتعلت بين الزهايرة وآل العمري، عمر وعمي منصور مثَّلا صوت الحكمة في العائلة، مساعٍ كثيرة للصلح بين العائلتين ذهبت أدراج الرياح قبل أن تهدأ الأمور وتُعقد هدنة بين الطرفين.

«عمر ابن عمك قُتِل، غدروا به أولاد الكلب!»

عمر!

الآن فقط تذكّرت تقصيري في حقه!

الآن فقط شعرت بالندم وعاتبت نفسي على حماقتي.

تركتُ البلد بعد زواجه، ولم أعد إليه إلا بعد زواجي من رانيا. اقتصرت زياراتي على الأعياد والمناسبات، تقلّصت علاقتي به إلى الاتصال بين الحين والآخر، وهو ابن العم والرفيق المقرب لسنوات. المرات القليلة التي زار فيها القاهرة، لم أعلم إلا بواحدة منها فقط، حين جاء ومعه راوية في زيارة لأحد أطباء النساء. رافقتهما إلى الطبيب، واستقبلتهما في بيتي لمدة الزيارة التي لم تتجاوز ثلاثة أيام.

لماذا لا ندرك حجم أخطائنا إلا بعد اقترافها؟ هل نغيب عن الوعي، أم نصاب بالعمى قبل حدوثها؟!

لم أستطع منع دموعي، كدت أفقد قدرتي على التحكُّم في مقود السيارة. توقّفت على جانب الطريق..

«الله يلعن الثأر ومن أشعل ناره، الله يلعن الجهل. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.»

ولمّا وصلت إلى قنا، عرفت أن المصيبة مصيبتان!

لم يكن عمر وحده، بل صغيره أمجد أيضا قُتِل معه. طفل في العاشرة ليس له في الثور أو الطحين، والحق أن عمر أيضًا كذلك، لكن الأمخاخ كالحجارة أو أشدّ قسوة، والنفوس غشّاها الجهل واعتلاها الشيطان في وضح النهار.

في الثأر لا يُنصب صيوان للعزاء، ولا يقال لأهل الميت عبارات التعزية المعروفة أو غير المعروفة. إنها حِبالٌ من الأحزان الممتدة بلا انتهاء، وغدًا، عندما يسقط ميت جديد من العائلة الأخرى، ربما حينها يقبلون العزاء في ميّت اليوم. دائرةٌ مغلقة لا سبيل للخروج منها.

مذ وطئت السيارة أبواب القرية، فاحت رائحة المأساة التي يعيش الناس فصولها المحزنة منذ فترة ليست بالقليلة. أشجار النخيل على أطرافها كأنها حرّاس صامتة، الطرق الترابية الضيقة تتشبع بخطوات متوجسة.

القرية وكأنها قامت قيامتها؛ المنازل المتراصة بجانب بعضها البعض وكأنها تبحث عن أمان مشترك. صوت المؤذن يرتفع من مئذنة المسجد القريب من دارنا، وكأنه يضيع وسط الهمسات المتوترة. النساء خلف الأبواب المغلقة، يراقبن الشوارع من الشقوق الصغيرة، وأعين الأطفال المذعورة تتابع المشهد من النوافذ.

قوات الأمن تتمركز في نقاط ثابتة، تتحرك سيارات الشرطة ببطء وسط الأزقة كأنها تتحسّس طريقها بين القلوب المثقلة بالخوف. في قلب القرية سوق صغير يعجّ بالحياة، لكنه الآن مغلق. الفزع أصاب كل شيء هنا، حتى الماشية في الحظائر تبدو مضطربة كأنها تستشعر التوتر المحيط. صوت الطلقات بين الحين والآخر لا يدرك أحد مصدره، يقطع السكون ويمزّق ما تبقى من سلام هش.

عمي العمدة يقوم بمهامه بنصف عقل ونصف جسد أيضًا، ابنه الأصغر أحد الذين جَرَفهم طوفان الثأر. أطاح موت ابنه بما تبقّى من صحّته، والناس .. الناس لا يقولون شيئًا، لا يتكلمون وإن رأوا بأم أعينهم، وإن ثقبت الحقيقة آذانهم، فهم يقسمون على أنهم ما رأوا وما سمعوا.

تحوّلت دار عمي أمين إلى مأتم كبير، الصالة الرئيسية مزدحمة برجال العائلة، والغضب طافح على وجوه الشباب. صالح يصرخ ويتوعد بذراع ملفوف في ضمادة بيضاء، وجرح صغير في وجهه. عمي يجلس كأسد جريح، لا أنسى نظرة الانكسار في عينيه المكتظة بدموع متكلِّسة.

وفي صحن الدار، النساء كأسراب الغربان بجلالبيبهن السوداء الثقيلة، يلففن رؤوسهن بشيلان سوداء أيضا، يجلسن في مجموعات منفصلة، يُعددن ويرتفع عويلهن. صالح ينهاهُنّ عن الصراخ، يخفت العويل لدقائق، لا يلبث بعدها أن يتجدّد مع دخول واحدة تنفخ في الرماد فتحييه. زوجة عمي القوية التي لا شيء يهزّها، تفترش الأرض تصرخ

وتهيل التراب فوق رأسها، أمي وخالتي تحاولان حمْلها ولمْلمتها من الأرض. خالتي نجيّة دموعها على ابنها لم تجف بعد، وها هي الآن تمسح دموع أختها.

راحت عيني تفتّش عنها دون جدوى، لا أثر لها بينهن. سألتُ أمي، قالت إن راوية تعرّضت للإغماء أكثر من مرة، أحضروا لها الطبيب وهي الآن تحت تأثير حقنة مهدّئة. بعد ساعة، جاءتني في حجرة الضيوف، ليست هذه راوية التي أعرفها، راوية أخرى رأيتها تتوكأ على بقايا جسد هزيل لتقف أمامي بعباءتها السوداء المُتَرَّبة.

ماذا عساي أقول؟

أي كلمات بإمكانها مواساة جرح كهذا؟ المسكينة مأساتها مركّبة، هي تبكي زوجها وابنها اللذَيْن قُتِلا بيد أهلها..!

«البقاء لله، شدِّي حيلك يا أم أمجد»

نطقتُها وأنا أضع كفّي في كفّها. هزّت رأسها دون كلام، سحبت كفّها الذي بالكاد مسّ كفّي. جلستْ والدموع تملأ عينيها المنتفختين. أدركت متاخرًا أنني ناديتها باسم ابنها المتوفى. ما أغباني! كان عليّ أن أناديها باسمها حتى وإن كان في ذلك مخالفة للعرف!

وجهها منطفئ تغشاه غمامة سوداء تحجب ملامحه. وددت لو أقول لها سامحيني، لا أدري على ماذا! وددت لو أسألها: هل حكى لكِ عمر عني؟ هل أخبركِ كيف كانت علاقتي به؟ وكيف أضحت بعد ذلك؟ هل أخبركِ أنني صديق نسي العِشرة وباع الخِل، وتعلّل بالعمل والحياة و..؟

لكنني لم أقل شيئًا من هذا كله. بعد جملة التعزية التي نطقتها، انفلت دمعها، كأنّما مُدْية غُرست في قلبي، تمنّت يدي أن تمتد لتمسح دمعها، تربّت على حزنها العظيم. هل جُنّت يدي؟ أنقذتني إحدى النساء حين دقّت الباب، همستْ في أذنها ثم سحبتها من الحجرة، وهي تقول: بالإذن يا دكتور. كانت راوية تتحرّك مع المرأة دون وعي، دمعها كأنه شهبٌ تتطاير فتحرق قلبي وتمزّق جسدي كله.

بقيت في البلد أسبوعين، عمّ الهدوء خلالهما جزئيا. أعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، الحرب ستشتعل من جديد، يبدو ذلك جليًا في عيون الشباب، وتأهُّب صالح الذي بدا كمن يحدّ أسنانه رغم إصاباته. إن لم يتم الصلح في أسرع وقت ستحدث مذبحة لن ينجو من ويلاتها أحد.

بعد سفري، اتصلتُ بخالتي أم عمر ذات عشيّة للاطمئنان على صحّتها، وسط الكلام قالت إن راوية ذهبت إلى بيت أهلها، وإنها تخشى من عدم عودتها فتُحرم بذلك من رؤية حفيدها، طمأنتها وذكّرتها بضرورة الهدوء وعدم الانفعال حتى ينضبط ضغطها المرتفع. وبعد يومين، وجدت راوية نفسها تطلبني على الهاتف.

«.. الحمد لله بخير. دكتور يونس، محتاجة مساعدتك.»

لم تكد تُنهي جملتها حتى خفق قلبي، وخالطته مشاعر شتى، قلق، خوف، رغبة وحيرة..

«تفضلي راوية، إن كان في استطاعتي لن أتأخر طبعًا.»

«هل ستساعدني حتى وإن أغضَبَتْ هذه المساعدة عمي أمين؟»

«لا أفهم! لكن تأكدي، تأكدي يا راوية أنني لن أتخلى عن خدمتك. لا أعلم إن كنتِ تعرفين غلاوة عمر عندي أو لا، لكن..»

قاطعتني:

«أعرف طبعًا، وهذا ما شجعني على الاتصال بك.»

إذن حكى لها عمر عن ابن عمه وصديقه القديم.!

«قولي، كيف يمكنني مساعدتك؟»

«ستعرف، ستعرف في الوقت المناسب يا دكتور.»

أي مساعدة تلك التي تطلبها مني راوية؟

لم أستطع التخمين، لكنني كنت على استعداد لفعل أي شيء لأجلها، أي شيء تطلبه سأفعله دون تردد. في هذه الفترة سيطر عليَّ شعور واحد لازمني شهورا، لم أستطع التخلّص من سلطانه، وهو أنني مسؤول بشكل أو بآخر عمّا حدث لعمر.

بعد تلك المكالمة بثلاثة أيام، بينما كنت في العيادة، دخل عليَّ التمرجي ليخبرني أن امرأة تنتظر بالخارج، معها طفل وبيدها حقيبة، تطلب مقابلتي لأمر عاجل. انتفضت واقفًا عندما وقعت عيني على راوية.

«راوية! كيف وصلتِ إلى هنا؟»

«من يسأل يصل يا دكتور.»

وجهها أصفر شاحب، تمسك الحقيبة بيد، وبالأخرى تقبض على كفّ صغيرها. التفتُّ إلى آدم، أخذته في حضني ومسحت على رأسه.

«الولد متعب جدًا، وأنتِ أيضًا يبدو عليك الإرهاق الشديد، كيف...»

قبل أن أنهي سؤالي انهارت ساقاها، واندفع جسدها نحو الأرض، لتفقد وعيها تمامًا.

لم أكن أعرف أنّها حُبلى في شهرها الرابع! كادت الرحلة الشّاقة التي قطعتها من قنا إلى القاهرة في سيارة أجرة أن تتسبب في نزيف حاد. أخبرتني برغبتها في الاستقرار هنا، حكت لي كيف خطَّطتْ للأمر، بداية من الذهاب إلى بيت أهلها ليسهل عليها الخروج وحدها بعيدًا عن تحكّمات عمي، وحتى وصولها وابنها إلى باب العيادة.

«راوية، لا تجعلي الغضب يضطركِ للندم فيما بعد، فكّري جيدًا»

«لن أعود، سيكون ابتعادي عقابًا لهم جميعًا»

استأذنتها في الاتصال بالبلد. أخبرتهم بوجود راوية وابنها عندي، ثارت ثائرة عمي أمين وجُنّ جنون إخوتها. جاءوا جميعًا يطالبونها بالعودة.

«لن أعود، ولو انطبقت السماء على الأرض، لن أعود!»

«راوية، أقول لمصلحتكِ ومصلحة الولد، والطفل الذي..»

قاطعتني بنبرة ثابتة:

«إن خرجتُ من هنا، سأفرّ إلى أي مكان في الدنيا إلا قنا. أما إن كنّا عبئًا عليك يا يونس، فأرجوك أن تقولها الآن. بلاد الله ..»

«لا تكملي يا راوية. كيف تقولين هذا؟ أنتِ وابنكِ فوق رأسي.»

حاول عمي أمين إجبارها على العودة، هدّدها بأخذ آدم منها، لكنني أقنعته بتركها تفعل ما تريد. كان إقناعه صعبًا، لكنه في كل الأحوال لم يكن أصعب من إقناع إخوتها، الذين حاولوا إرغامها على العودة بكل السبل، حتى وصل الأمر إلى ضربها.

في اليوم الثالث من وصولها، طلبتْ مني أن أستاجر لها شقة صغيرة تعيش فيها مع ابنها، حاولت إقناعها بالانتظار قليلا، وكذلك عرضتْ عليها رانيا الاستقرار معنا في الڤيلا، لكنها رفضتْ وأصرّت على استئجار شقة. وعدتها أن يتم ذلك في أقرب وقت.

في اليوم التالي، عدت من المشفى عقب اتصال من رانيا، إذ أخبرتني أن أحد إخوة راوية جاء لزيارتها. رحبت به رانيا، وخرجت راوية لمقابلته، لكن صوتهما ارتفع فجأة، ثم بدأ في ضربها ضربًا مبرحًا. حاول الخدم منعه، لكنهم لم يقدروا عليه، فلم تستطع رانيا منع نفسها من الاتصال بالشرطة.

كان ذلك أخاها عبد الناصر الذي ضربها حتى تسبَّب في كسر ذراعها. جاءت الشرطة، واقتادوه إلى القِسم، ظل هناك لأيام لم يُفرَج عنه إلا بعد تنازل راوية عن المحضر، وأخذنا عليه تعَهُّدًا بعدم التعرض لها.

وفي العمارة التي تشغل عيادتي طابقًا كاملًا فيها، استأجرت لراوية شقة في طابقها الأخير. شعرتُ أن الله يمنحني فرصة للتكفير عن تقصيري في حق عمر، فأخذتُ على نفسي عهدًا أن تكون زوجته في منزلة أختٍ

تجب عليّ رعايتها ورعاية أبنائها. كانت رانيا في البداية تغار من اهتمامي بها، لكنها أيقنتْ في نهاية الأمر أن راوية ليست أكثر من أرملة ابن عمي، خاصة بعد ما عرفتها عن قرب، واطمأنت إلى وفائها لذكرى زوجها، ورأت بعينيها كيف تصدّ راوية كل رجل يطرق بابها. ومع ذلك، بقيت الحواجز بينهما قائمة. ربما لأنها، ككل امرأة، تملك حاسة خفيّة تُدرك بها خبيئة زوجها، مهما بالغ في الكتمان.

واليوم، تتّهمني ابنتي بالتقصير في حقّها. تقول إنني أوليتُ ليلى اهتمامًا أكبر منها، أعلم أنها صادقة فيما قالت. تُرى، هل أملك الحجة التي تبرر تقصيري أمامها؟ هل لو أفشيتُ لها أسرار الماضي ستفهم؟ ستقدّر؟ ستغفر؟!

رنّ هاتفي، وظهر اسم راوية يضيء الشاشة، يمتزج فيه الماضي بالحاضر. قلّت مكالماتها منذ تلك اللحظة التي أفضيت فيها بحقيقة مشاعري نحوها، لحظة ضعف لا أكاد أذكر شيئًا ندمت عليه أكثر منها. منذ ذلك الحين، أصبحت لا تتصل إلا لضرورة ملحّة، ورغم اعتذاري وطلبي منها نسيان ما جرى، إلا أن شيئًا في معاملتها قد تغيّر.

راوية

(جروبات التليجرام) نعمة كبرى أنعم الله بها عليّ، فكانت سبيلا لتلقي العلم وسط صحبة طيبة أعانتني على اجتياز كثير من الصعاب. أخوات لم ألتقِ بهن يومًا، لكن قلوبنا تآلفت عبر الأثير، عشنا معًا مشاعر الفرح بنعمة العلم والمدارسة، خمس سنوات انقضت مذ خضت غمار هذا العالم، خمس سنوات كنت خلالها طالبة نجيبة أحرزت فيها نجاحًا في دراسة العلوم الشرعية، راجعت حفظي للقرآن الكريم الذي حفظته على يد خالي الشيخ سليمان، رحمه الله. واليوم، تُفتح لي صفحة جديدة في هذا الطريق، إذ اختارتني معلمتي لاستكمال دروس القرآن مع طالباتها حتى تتماثل للشفاء.

أهداني آدم حاسوبًا جديدًا، رغم أن القديم لا يزال صالحًا للاستخدام. قال لي بابتسامته المعتادة:

- أدوات المعلم يجب أن تختلف عن أدوات الطالب، يا ست ماما.

مذ عودته من سوهاج لم أشبع من مجالسته. أعباء عمله في المشفى تزداد يومًا بعد يوم. اتصلت به واتفقنا على أن يكون العشاء عندي يوم الخميس. ترددت-لأول مرة- في الاتصال بيونس. فكرت أن أدعو رانيا ومايا أيضًا، رغم أن مايا لا تأتي أبدا، ورانيا مرت شهور طويلة منذ آخر زيارة لها.

حاولت الاتصال برانيا، لكن هاتفها كان مغلقًا، فاضطررت إلى الاتصال بيونس. اعتذر وقال إنه سيحاول الحضور، وطلب أن أسامحه إن لم يستطع. فكّرتُ في إخباره بما سمعته من ليلى عن (الشّلة) ونوع المخدر الذي ذكرت اسمه. ماذا كان اسمه؟ لكن حزنه الذي تسرب إليّ في صوته أجبرني على االتراجع؛ ليس هذا وقته أبدًا.

.....

في صباح اليوم التالي، جلست أطالع الجرائد، عادة أحبها وأواظب عليها رغم ما تقوله ليلى عن كوني(دقّة قديمة). تقول إن الإنترنت جعل الأخبار في متناول اليد بضغطة زر، لكن للجريدة الورقية عندي مذاقها الخاص. استوقفني خبر في صفحة الحوادث عن شاب قتل جميع أفراد أسرته وهو تحت تأثير الشابو، آه إنه المخدر الذي حدثتني عنه ليلى. ارتعدت فرائصي وأخذني الخبر إلى أكثر من ثلاثين عامًا مضت.

كنت حينها في المرحلة الإعدادية عندما هزّت القرية جريمة مروعة: شاب طعن أمه بسكين في وضح النهار. كان الخبر كالصاعقة على قريتي التي لم تألف هذا النوع من الجرائم. تعددت الأقاويل: قيل إنه لم يكن في وعيه، وقيل إن السبب مشكلات مع زوجته. بقيت الحقيقة طي الكتمان، مدفونة في صدور أصحابها.

أعرف تلك الجارة جيدا، أراها كلّما مررتُ ببيتها. ذات مرة نادتني وسألت: «بنت المرحوم مصطفى العمري أنتِ؟» أومأت برأسي مبتسمة،

فأعطتني قطعة حلوى وهي تمسّد ضفائري المسترسِلة على ظهري. لا يزال مذاق الحلوى في فمي، بكيتها يوم سمعت الخبر، وكأنّ بيني وبينها رباطًا خفيًّا. تساءلت في صمت مؤلم: كيف استطاع فعلها؟ كيف طاوعه قلبه؟ كيف امتدت يده ليقتلها؟ ألم تطعمه الحلوى يوما؟ أيكون للإنسان أم ويُنهي حياتها بيده؟!

هدأتني جدتي وقتها، واحتواني حضنها الدافئ الذي يطرد كل مخاوفي. حضنها كان أمانا لا يضاهيه شيء. ظل بيت تلك المرأة شبحًا في ذاكرتي. لسنوات، كنت أسلك طريقًا آخر أطول لتفادي المرور من أمامه.

في صباح الخميس، جاءت الفتاة التي تساعدني في أعمال البيت، أخبرتني إنأن أمها مريضة. وعدتها بالانصراف مبكرًا، وطلبت منها تحضير الأصناف اللازمة للعشاء. ميرنا ساعدتها في تنسيق الشكل النهائي للمائدة. ابنتي ليلى خائبة لا تفهم شيئًا في هذه الأمور. رحم الله جدتي، كنت أود أن أعلم ابنتي كما علمتني منذ الصغر، لكنها أوشكتْ على إنهاء دراستها الجامعية ولا تعرف عن الطعام شيئا إلا أنه يؤكل!

في المساء جاء يونس معتذرًا عن غياب رانيا ومايا. على المائدة، جلس آدم عن يميني، وبجواره ميرنا، فيما جلست ليلى عن يساري، ويونس بجوارها. دار بين آدم ويونس حوار طبي، خفّفت ليلى جفافه ببعض المزاح. بعد العشاء، قامت ميرنا وليلى بترتيب السفرة، لأنني أوفيت بوعدي للفتاة وسمحت لها بالانصراف مبكرًا بعد أن أعطيتها أجر شهرين مقدمًا.

قالت ليلى مازحة:

- طبعًا يا ماما لن تشربي قهوة الآن! كوب الشاي جاهز قبل الجلوس على السفرة!

رد يونس مبتسمًا:

- شرب الشاي بعد الأكل عادة صعيدية أصيلة، لم نتخلَّ عنها أنا أو أمك.

فاستنكرت ليلى بدهشة:

- حتى أنت يا دكتور؟!

أجابها ضاحكًا:

- العلم لا ينتصر دائمًا يا باشمهندسة، أحيانًا العادات تغلب. ما رأيك يا دكتور آدم؟

كان آدم شاردا، لكنه انتبه عند سماع اسمه، فأجاب:

- نعم يحدث أحيانًا يا دكتور. بالمناسبة هل سمعتم عن الفيروس الجديد الذي ظهر في الصين؟

قال يونس وقد بدا على وجهه التأثر:

- Covid-19 سريع الانتشار بشكل مذهل ومحيّر!

حذَّر آدم بنبرة جادة:

- انتبهوا يا جماعة، خذوا احتياطاتكم، النظافة مهمة جدًا، انتبهي جيدًا يا أمي.

قرأت عن هذا الفيروس على مواقع التواصل الاجتماعي. ذكروا أن كبار السن وأصحاب الأمراض المزمنة هم الأكثر عرضة للإصابة. لم يقل ابني هذه المعلومة، لكنني قرأتها في عينيه وهو يقول: «انتبهي جيدًا يا أمي».

استغرق يونس وآدم في حديث علمي طويل عن الفيروس، بينما قامت ليلى للرد على مكالمة هاتفية. كانت فرصة سانحة للحديث مع ميرنا، التي بدت جالسة معنا بجسدها فقط، بينما قلبها عالق في مكان آخر. قلت لها بهدوء:

- حبيبتي، المشاكل تأخذ وقتها وتمر. صدقيني، أي زوجين في بداية حياتهما يواجهان مشكلات، لكن طالما الحب موجود، يمكن التغلب عليها.

حاولتْ إخفاء ارتباكها، إلا أن ابتسامة باهتة رفّت على شفتيها الشاحبتين:

- الحب؟ أعتقد أنه انتهى. أحيانًا كثيرة أشعر أنه لم يعد يحبني.

رأيت الحزن يطفو على وجهها الذابل، وهمست في نفسي: «هداكَ الله يا ولدي.»

قالت بصوت يائس:

- بعد غدٍ أول يناير، تُرى هل يتذكر؟

قبل أربع سنوات، فرحت بزواج ابني منها. رغم شعوري أحيانا بالغيرة منها، وكأنها استحوذت على قطعة مني. لكنني أحببتها حين رأيت حبها لآدم. تجاوزت حتى أنفة أمها التي تتعامل بتعالٍ في كل مناسبة تجمعنا.

انفضّ الجمع، ودخلت ليلى تعد لنفسها كوب النسكافيه الذي لا تمل شربه رغم تحذيرات آدم. سألتني إن كنت أحتاج شيئًا، فقلت لها إنني سأنام.

في سريري كنت أعلم أنني سأخوض صراعًا طويلا مع الأرق كما كل ليلة. عقارب الساعة تزحف نحو الواحدة صباحًا، وأنا أساوم النوم على بضع دقائق يرتاح فيها بدني ويتوقف عقلي عن التفكير. كنت أطلب النوم وأخشاه في آنٍ واحد؛ الإرهاق ينهك بجسدي، لكنني أتذكّر الكابوس، فيفرّ النوم من عيني.

أمسكت الهاتف، فوجدت رسالة صوتية من سمية:

«فاتحت منة في الموضوع، احتضنتني كأم، أبكتني ردة فعلها يا راوية. طلبت مني مقابلة وليد والتعرف عليه. لا أدري إن كان ما أفعله صوابًا أم لا، لكن شعورًا جميلًا لم أعهده من قبل يغمر قلبي الآن.»

كتبت لها:

«حبيبتي يا سمية، عين الصواب ما تفعلينه. تستحقين هذه السعادة. ربنا يبارك فرحتك، ويملأ قلبك بالطمأنينة يا غالية..»

وبعدها أرسلت رسالة لآدم أيضًا، ثم تركت السرير، وجلست على مكتبي الصغير في غرفتي. حيث كتبي وأوراقي، التي تقاسمني بَثّي وحزني. أمسكت القلم، فأخذتني الذكري إلى عمر، أول من أمسك بيدي وأدخلني عالم الكتب.

«ها .. أريني ماذا كتبتِ؟»

«بشرط أن تعطيني درجة بعد القراءة.»

بابتسامته الرائقة أخذ الأوراق مني، وقرأ بصوته العذب:

(عتاب الأمكنة)

«رأيتُ في عينيه نظرةَ لومٍ قاسيةٍ وعتابًا شديدًا ولسان حاله يقول: كيف تسنَّى لكِ النسيان؟ كيف هجرتِني وطرحتِ من وجدانكِ ذكرياتكِ هنا؟ أنسيتِ؟ يومًا ما كنتُ لكِ حياة، وكنتُ لقلبكِ الدفء والأمان. ما الذى أصاب قلبك فأبعدك؟ كالغرباء أصبحت زيارتكِ، لحظات قليلة بعد غياب طويل، وكأن حضوركِ هذا رغمًا عنكِ. رأيتكِ بالأمس، كيف كنتِ تترقبين انتهاء الوقت. أتعلمين كم مرة نظرتِ إلى الساعة؟ أحقًا ما أحسستُ به من كراهيتك لزيارتي؟ أم أنها الدنيا وقسوتها شغلتكِ عني فأصبحتُ قليلًا ما أرِد بذهنكِ؟

ينظر إليّ ذلك المكان مترقبًا إجابتي عن تساؤلاته، أجوب أعماقي بحثًا عن إجابة، فلا أجد. أدرتُ وجهي وتركتُ المكان غارقًا في عتابه الذي لم ينتهِ بعد.»

أنهى القراءة، ثم قال مبتسمًا:

«الله .. الله»

«ها.. ما رأيك؟»

«رائع جدًا.. ورومانسي»

«يعني أنفع؟»

ارتفعت ضحكته الصافية، ثم قال:

«خاطرة جميلة. أنسنة المكان مدهشة. كثرة القراءة ستنمّي موهبتك وتُصقلها، المكتبة أمامك، أريني شطارتك!».

كانت مكتبته عامرة بالروائع، تزخر بأعظم ما كُتب من أدب وفكر، حُرِمتها كما حُرمته، تُرى، ما حالها الآن؟ لا شك أنهم تخلّصوا منها، ربما أحرقوا الكتب، لا أستبعد ذلك أبدًا، فقد أحرقوا قلبي، هل سيفكرون في حفنة أوراق بعد أن سحقوا الروح؟

رحيله كان آخر ما يربطني بالحياة، كان حضوره شريانا ينبض في قلبي، ولما غاب، خبا كل شيء. تذكرتُ أبياتًا كنت قد نسجتها بعد رحيله، أبياتا سطرتها بقلب مفطور ودموع ساخنة. بحثتُ عنها وسط أوراقي القديمة، هذه الأوراق هي ملاذي من قسوة الأيام، الجنّة التي أتفيئ ظلالها كلّما أثقلني الألم وأثخنت جسدي هموم الحياة.

بيدي المرتعشة، أمسكت الورقة التي ما زالت تحمل أثر تلك اللحظة الحزينة، وفي قلبي رجع صدى حروف تنبض بالوجع الذي ما زال يسكنني.

نبضٌ لا يغيب

صـوتُ الحنـين مـع الأنـينِ تـردَّدا ... وبقلبيَ المُشْـتاقِ ذقـتُ الأدمُعَـا
وسـألت زهـرَ الـروض عـن نفحاتـه ... حـتّى تَنَـاهى رقَّـةً وتضـوّعا
وسألتُ من كانُوا معي: كيف السَّلا؟! ... قالوا الجواب المرّ: كُـن مُتَصَـنِّعا
ورأيـت في عيـني صـدَى أَطيَـافِهم ... وتتـوقُ أُذْني لهفـة أن تَسْـمَعا
صـوتٌ أرقُ مِـنَ النَّسِـيمِ إذا سرى ... أو لحـنُ عـودٍ بالحنـانِ مُشـبّعا
قلـبٌ يسـامح لـو يعاديـه الأسى ... قلـبٌ أحـنُّ مـن الحنِـين مُمتّعـا
عُمَرِي، وهل ينسى المحـبُّ حبيبـه؟ ... قد كان شمسًا في الحياة ومطلعا
كـم كان يؤنسـني حـديثك لحظـة ... واليوم وحدي والصـدى متوجّعـا
رحل الذي إن ضـاق صـدري خِلْتـه ... روحًـا تـداوي بالجمـال وتُبـدِعا
يا من ملكت القلب حتى ما اشتكى ... وجعلت درب العمـر وردًا يانِعـا
أو كل هـذا كان حلمًـا وانقضـى؟ ... أو كل وصـل قـد غـدا متقطّعـا؟
ناجيـتُ طيفَـك فاسـتجابَت أنجـمٌ ... ورأيتُهـا في الحلـم زهـرًا أروعا
الذكريـاتُ الآن تسـري في دَمى ... تـبكي وتهمـسُ: آن لي أن أرْجِعَـا
لـولا الرِّضَـا بـاللهِ يَعمـرُ قَلبنَـا ... لأذابَ هولُ الفقدِ مـنِّي الأضـلُعا
يـا عالِمًـا بالحـالِ ضـاعف صـبرنا ... وابعث سلامًا في القلوب مُوسَّـعا

-5-

قال زين لصديقه الذي شكا له جفاء حبيبته وتجاهُلها له:

- إما أن تكون نصًّا أصليًا في حياة أحدهم أو لا تكون، فالهامش يسقط سهوًا يا صديقي، ليس أسهل من نسيانه واستكمال الطريق دونه كأن لم يكن من قبل.

ردَّ الصديق مازحًا:

- لست مثلك يا زهيري، ليتني أمتلك نصف مواهبك!

.....

مجرد قريب ليس أكثر يا سالي. ✓ ✓

اعْترفي يا قلب سالي بلا مكابرة.

أحببت وجوده.. ربما! ✓ ✓

هكذا تبدأ كل القصص يا ليلى.

«سافر زين إلى الصعيد قبل أسبوع. يوم أخبرني بسفره، قال إنه لن يمكث هناك سوى يومين. لا أدري لماذا، لكن .. بدأت أشعر بغيابه وكأن شيئًا ما ينقصني. هل سالي محقة فيما قالت؟ متى حدث ذلك؟ لا وألف لا، هذا بالذات لا يا ليلى! هل نسيتِ أمك وما يحدث لها حين يُذكَر الصعيد أمامها؟ يكفي أنها لا تدري بظهوره في حياتي حتى الآن. فكرت للحظة أن أحكي،

لآدم لكنني تراجعت. هو كأمي يكره هذه السيرة، ولا يذكرهم أبدًا. لا شك أنه يعرف عنهم كثيرًا مما أجهل.

لحظة!

لِمَ لا أتحدث مع آدم؟ سيكون أفضل من الحديث مع أمي بلا شك.»

تركت ليلى القلم والأجندة وأمسكت بهاتفها، لكنها بدلًا من الاتصال بأخيها، فتحت فيسبوك، لفت انتباهها إشعار سرّها ووجدت فيه ذريعة كافية للحديث:

«يخبرني فيسبوك أن اليوم عيد ميلادك. لذا، وجب عليّ تهنئتك!

Happy birthday, Zain.

رد سريعا:

«أفهم أنه لولا هذا، ما كنتِ لتكتبي لي؟»

«طبعًا! كيف لا تسأل منذ سفرك؟»

«يا بنتي، أنا المسافر! على الأقل، اطمئني على وصولي. ألم نأكل عيش وشاورما معا؟ احترامًا لهما على الأقل.»

ضحِكتْ لطُرفته، وبدأ الحديث بينهما يتسلسل، فاستمر لساعتين متواصلتين.

«غدًا سأكون في القاهرة بإذن الله، لا أستطيع الابتعاد أكثر؟»

ردت عليه بإرسال تعبير وجه متعجب، فأكمل:

«عن الجامعة. لن أستطيع الابتعاد عن الجامعة أكثر من أسبوع.»

بعد لحظات صمت من الطرفين، أرسل إليها صورة، وكتب:

«هل رأيتِ هذه الصورة؟»

كانت الصورة لطفلين من سوريا، يحتضن أحدهما الآخر وهما يختبئان خلف صخرة، وهي لقطة مؤثرة كانت قد انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي قبل فترة. تأثر عميقًا، ودفعته ليكتب قصيدة جديدة. طلبت منه أن يرسل إليها نص القصيدة فأرسلها.

قصيدة/ نزوح

أُخْتِي سَنَرْحَلُ مِن هُنَا وَسَنَظْهَرُ ... فالمستعين بربه لا يُقهرُ

أَلِأَنَّنِي صِفرُ اليَدَينِ أُخَيَّتِي؟ ... لا تجْزعِي، فَأخوكِ سَيلٌ يَهْدِرُ

الرُّوحُ صَارتْ جَذوةً قدسيّة ... بِلَهِيبِهَا ذَاكَ الخُنُوعُ سَيُقْبَرُ

والقَلْبُ مِثلُ خَناجِرٍ مَصقُولةٍ ... صَعْبُ المِرَاسِ وَقَدَ غَدَا لا يُكْسَرُ

أُختِي سَأُكمِلُ صَامِدًا هيّا اهدَئِي ... وَلأَعبُرَنَّ بكِ الصِّعابَ ونُبْحِرُ

وَسَنَعزِفُ الآهَاتِ لَحنًا يستحي ... لِسَماعِهِ كلُّ الذينَ اسْتَنكَرُوا

بَاعُوا نفوسًا بالرَّخِيصِ وَأهْدَرُوا ... والهِرُّ يَشْجُبُ تَارةً ويُزَمْجِرُ

مَا جُرمُ طِفْلَينِ اسْتُبِيحَا جَهْرَةً ... صَارتْ حَيَاتُهُمَا كَحُلْمٍ يُدْبِرُ

هَذِي المَلايِين التِي قَد شُرِّدَتْ ... وَغدت طيورًا في الفضا تتضَوَّرُ

أشْلاءُ أحْلامٍ تَحَطَّمَ فَجْرُهَا ... لتَصِيرَ كَابُوسًا يُخِيفُ ويُذْعِرُ

لا تَحْزَنِي، سَأُقِيمُ قَلْبِي قَارِبًا ... نحْوَ الرَّجَا لِيُقِلَّنَا، وسنفخَرُ

وَدَعِي اللّئَــامَ عَلَى الموائــد نُوَّمًــا فَبِجَــوفِهِم بــات الفَسَــادُ يُعَمِّــرُ
رَغِمَتْ أُنُــوفُ الخَــانِعِينَ وأُجِمُــوا نَــارًا تَلَظَّــىٰ بِــالفَلاةِ تُسَــــــعَّرُ

شرعتْ في قراءة الأبيات، فانهمر الدمع متراقصًا على وجنتيها الناعمتين.
مرّت عشر دقائق مذ أُرسل النص، ولم ترد. كانت تعيد قراءته للمرة الخامسة وكأنها لم تقرأ شعرًا من قبل.
«بالمناسبة، مكتبة عمي عمر كان لها الفضل الأول في إثراء معارفي. يومًا ما سأهديها لكِ، أعدك.»
أنهت ليلى حوارها معه، لكن قلبها لم يهدأ. شعرتْ بالتيه، وعجزت عن ترجمة ما يختلج بداخلها. علامات استفهام كثيرة تتراقص في عقلها، تُربكها، تُثقل رأسها الذي بدا وكأنه يدور بلا توقف. فجأة، قامت من مكانها واتصلت بآدم. طلبت منه أن يتقابلا خارج البيت، فاتفقا على اللقاء في المشفى غدًا متى يناسبها.
في اليوم التالي، بعد انتهاء محاضراتها، كانت ليلى تجلس برفقة أخيها في حديقة المشفى. بدت مرتبكة، لكنها سرعان ما استعادت هدوءها.
- سأحكي، لكن عدني أن تكون هادئًا ومتفهمًا.
- لا تقلقيني بمقدماتك يا ليلى، ادخلي في الموضوع مباشرة.

بدأت تسرد قصتها منذ اللحظة التي ظهر فيها زين أمامها. تحدثت عن تجاهلها له في البداية احتراما لوالدتها، وعن اللقاء الذي جمعهما بالدكتور يونس. لكنها لم تجرؤ على الحديث عن الشعور الذي لا تزال تنكره حتى الآن.

- ليلى، أمك لو عرفت أن أحدًا من الصعيد دخل حياتنا بهذا الشكل، فلن يحدث خير. هؤلاء الناس، لا يأتي منهم إلا المتاعب.

واجهته بحَيرَتها وعدم فهمها:

- أي ناس؟ وأي متاعب؟

صمت آدم للحظات، ثم أمال ظهره إلى الوراء، خلع نظارته ووضعها في جيب قميصه الأزرق، نظر إلى الخضرة أمامه بعينين غائمتين. بدأ يقصّ على أخته كل ما يعرفه.

حكى عن مقتل أبيها وأخيها، وعن الثأر الذي أجبر أمهما على مغادرة بلدها. تحدث عن ليلة شتوية مظلمة، حين اضطر لمغادرة بلدته مع أمه وهو ابن تسع سنوات، لا يملك من أمره شيئًا.

ليلى استمعت إليه مشدوهة، كأنها في حلم. أمسك آدم بيدها وقال:

- ليلي، تعرفين جيدا أن صحة أمك تعنيني أكثر من أي شيء آخر. أمك تكره سيرة البلد وكل شيء يأتي منه. أغلقي هذا الموضوع تمامًا. ودعكِ من زين هذا، مفهوم؟

كانت ليلى في عالم آخر، نظرت إليه ساهمة لا تدري ماذا تقول. عبثت بنظارتها وهي تهزُّ رأسها ببطء، وكأنها توافق دون وعي.

.....

كان عاصم يجلس مع أخيه سعد، يتناولان الشاي بعد الغداء. رن هاتف عاصم وكانت راوية هي المتصلة. أشار سعد إلى أخيه بأن يشغّل مكبّر الصوت، ففعل الأخير متعجّبًا. استمع سعد إلى صوت أخته ساهمَ الطرف، كأنما يستمع إلى عزف ناي حزين.

بعد انتهاء المكالمة، قال سعد:

- وكيف حالها، وحال أولادها؟ وبنتها.. خلّصت تعليمها؟

- دخلت الجامعة، في كلية الهندسة، ما شاء الله. تعرف يا سعد، ماذا أتمنى؟

نظر إليه سعد دون أن يجيب، فأكمل عاصم:

- أتمنى أن نسافر جميعا إلى مصر. أنا وأنت وناصر والأولاد. نزور راوية وأولادها.

صمت سعد محاولًا كبح دمعة كادت تفرّ من عينيه، لكنّه صارعها حتى انتصر. عرف عاصم ما جال في خاطر أخيه، فأكمل:

- راوية قلبها أبيض، وأنت تعرفها. صحيح أنها أغلقت الأبواب في وجهنا، لكن الزمن يطيّب الجراح. تسألني عنكم كلما اتصلت.

قال سعد بصوت خافت:

- إلا أنا، عارف.

رد عاصم:

- لا والله، تسأل عنك وعن آمنة وعن الجميع.

في تلك اللحظة، لم يستطع سعد حبس دموعه أكثر. فرّت دمعة من عينه لم يقوَ على حبسها، انحدرت على خده واحتضنت لحيته الخفيفة التي غزاها الشيب. أراد أن يقول: أتمنى رؤيتها وأولادها ربما أكثر منك، يا عاصم. أتمنى أن أُقبّل رأسها وأسألها السّماح. لكنه لم يقل شيئًا.

نهض فجأة متعللا بما لديه من عمل في المزرعة. ترك المكان، وترك عاصم جالسا يتأمل الفراغ الذي خلّفه أخوه، وكأن الكلمات التي لم تُقال قد ملأت الهواء حوله.

.....

قبل رسالة أمه، كان آدم يستعيد ذكرى زواجه، ذكرى يستحضرها فيبتسم ابتسامة مبتورة، سرعان ما تنقلب إلى دموع في قلبه. لكن رسالة راوية كانت كحجر أُلقي في بركة راكدة، يحرك ما ران على قلبه من هموم.

«غدا أوّل يناير، ميرنا تستحق منك الكثير.»

وكأن أمه شعرت بما ينوي فعله. جاءت رسالتها لتثنيه عن التمادي في إشهار قسوته في وجه ميرنا، زوجته التي لا ذنب لها في معاناته. تساءل في نفسه: إلى متى تتحمل صمته وقسوته وتقابلهما بالدموع؟

قرر العودة اليوم مبكرا من المشفى. مرّ بمحل جواهرجي شهير في وسط البلد، اختار خاتمًا رقيقًا. وقف دقائق يتأمله، متخيلا كيف سيبدو جميلا بين أصابعها. دسّ العلبة في جيبه، وانطلق عائدًا إلى البيت.

مرّ بأمه أولًا ليطمئن على صحّتها، وجدها تلاعب عمر وتغني له كعادتها:

«والشاطر نديله إيه؟ نديله بوسة في عينيه

والشاطر هنجيب له إيه؟ هنجيب له عروسة بجنيه!»

ظنّ أن ميرنا عندها، لكن أمه أخبرته أنها صعدت إلى شقتها. أثناء خروجه، صادف ليلى عائدة من الخارج. غمزت له بعينيها:

«عيد زواج سعيد يا دوك».

قبّل رأسها وهو يضرب كتفها:

«ماشي يا لِمْضة».

وفي الشقة، فتح الباب بهدوء، فاستقبله صوت فيروز يدندن بأغنية (ما قدرت نسيت)، تتراقص أنغامها مع أضواء الشموع التي تعبق الشقة بشذاها. في منتصف السفرة وضعت كعكة تذكّر يوم تذوقها لأول مرة من صنع يديها.

أدخلت ميرنا تعديلات بسيطة على أثاث الشقة، لتضفي لمسات رومانسية رقيقة. على الحائط علّقت غلافًا يحوي صورًا مميزة جمعتهما: صورة أثناء اختيارهما لأثاث البيت، صورة الزفاف، صورة على شاطئ (أمالفي) بإيطاليا خلال شهر العسل، وأول صورة مع صغيرهما عمر بعد الولادة مباشرة.

تسلَّلت إلى أنفه روائح العنبر والڤانيليا وخشب الصندل، اجتاحت خلايا جسده بخدر لذيذ. كأنما المكان استحال إلى ملاذ حالم بعيد عن صخب العالم. خرجت ميرنا من الغرفة مرتدية فستانًا أزرق قصيرًا، يعانق جسدها برقة. اللون أضفى عليها وهجًا خاصًّا. لطالما كان الأزرق لونه المفضل، لكنه شعر في تلك اللحظة أنه لم يعرف جماله الحقيقي إلا الآن.

شعر بامتنان عميق تجاه أمه، لولا رسالتها لكان الآن في موقف لا يُحسد عليه، موقف يضعه رسميًّا في دور القاسي الذي لم يعرف الحب يومًا.

تقدمت نحوه بخطوات خجولة، تحدثت عينيها بما لم تنطق به الشفاه. أمسك بيدها، شعر بحرارة لمستها تمتد لتذيب كل قسوة داخله. قبَّل يدها، ثم أخرج الخاتم ووضعه في إصبعها، كملكة متوّجة.

كانت دموعها توشك أن تتساقط، لكنها قاومتها بابتسامة خجولة، تحولت فجأة إلى ضحكة صغيرة عندما ضمّها بين ذراعيه. تحوّلت ميرنا إلى فراشة بين يديه، رقصا معًا على أنغام قلبيهما، ظلا هكذا حتى انطفأت الشموع، واستسلما أخيرا إلى الليل، متخذين من بعضهما دثارًا يقيهما صقيع يناير.

.....

تجلس مايا في الملهى الليلي برفقة إحدى صديقاتها. خرجت رغم إلحاح أمها بالبقاء في البيت خوفا من إثارة غضب والدها. ضربت بكلامها عرض الحائط وخرجت لا تلوي على شيء.

قالت صديقتها عندما رأتها غارقة في الشراب:

- مايا، كفاية. صحّتك لا تحتمل. هذا جنون!

رفعت مايا كأسها وهي تردد بحدة:

- نعم، سأجن. ربما وقتها يشعرون بوجودي، هه! ما أجمل الجنون! كنت غبية.. غبيٌّ كلُّ من حرم نفسه من لحظات الجنون.

حاولت صديقتها تهدئتها:

- علينا أن نرجع الآن. والدتك تتصل. لا تغضبيها أكثر!

لكن مايا دفعتها بعيدا، وهي تردد بعناد:

- دعكِ منها .. دعكِ من أي شيء. اشربي، اشربي واستمتعي بالجنون.

غادرت المكان متطوحة دون أن تدري إلى أين تمضي، وكأنها تهرب من شيء لا يمكن الإفلات منه.

يونس

كالمجنون كنت أقود السيارة بأقصى سرعة، متّجهًا صوب المشفى بمدينة نصر حيث ترقد ابنتي بين الحياة والموت!

تركتُ العيادة تضجُّ بالمرضى فور سماعي لصراخ رانيا عبر الهاتف:

«يونس، الحقني! بنتك بين الحياة والموت..!»

خرجتُ مسرعًا دون خلع البالطو، في السيارة انتزعته بعصبية وألقيته بجانبي. الزحام المعتاد بدا خانقا أكثر من أي وقت مضى. حسب التطبيق على الهاتف، الوصول إلى مدينة نصر يستغرق خمسا وعشرين دقيقة، قد يطيلها الزحام إلى ثلاثٍ وثلاثين..أو ساعتين!

كدت أفقد أعصابي في الطريق، محاصرًا بين انتظار فتح الطريق وعجز التواصل. رانيا لا ترد على هاتفها، وزين الذي اتصلت به أخبرني أنه أمام المشفى بعدما استغاثت به رانيا حين لم أجب مكالمتها الأولى. أخبرته أني عالق في الزحام، وقال إنه سيطمئنني، لكنه سرعان ما توقف عن الرد هو الآخر. حاولت الاتصال بآدم فهو يعمل في المشفى نفسه، لكن هاتفه مغلق. ضربت مقود السيارة بعنف، أعدت الاتصال برانيا، فجاءني صوتها بعد المحاولة الثالثة مشحونًا بالبكاء:

«أين أنت؟ كل هذا الوقت في الطريق؟ أين أنت يا يونس؟»

ثم انقطع الاتصال. ظللت أصرخ في الهاتف دون جدوى. أصوات مشوّشة تصلني، تزيدني احتراقًا.

الطريق بدا لي كعدوٍّ يُخرج لسانه استهزاءً. لا زلت عالقًا في السيدة نفسية، أحاول الخروج إلى صلاح سالم، أعاود الاتصال دون جدوى، جرس متواصل بلا إجابة.

الجسر الطويل يسخر مني، والازدحام يمتد إلى بلا نهاية. قررت تغيير المسار نحو طريق الأوتوستراد، وحين بدأ الطريق يتنفس قليلا، ضغطت على دواسة البنزين بكل قوتي، فرَّغتُ فيها غضبي المكبوت.

مررت بصلاح سالم ثم المقطم وصولا إلى كوبري الأباجِيّة. الوقت يمضي وطاقتي تنفد والطريق لا ينته. للمرة التي لا أذكر رقمها أكرر الاتصال برانيا، فجاءني صوت راوية:

«خير، خير إن شاء الله يا يونس، ستكون بخير.»

ما الذي أتى براوية الآن؟ هل بدأت أهذي؟ أم أنها هي الأخرى وصلت إلى المشفى قبلي؟!

كلماتها المُطَمْئِنة زادتني قلقًا، راوية تُطَمْئِن مَنْ أمامها على كل حال. أين رانيا؟ لماذا تركت هاتفها؟

على كوبري الأباجيّة بمنشأة ناصر، توقفت السيارات بفعل أوناش المرور التي ترفع حطام حادث تصادم. إحدى عشرة دقيقة مرت كأنها

الدهر، توقف الطريق خلالها وتوقفت رئتاي عن أداء مهامهما، حين انفتح الطريق تنفّس الشارع بعد اختناق، وتنفّستُ.

أخيرًا لاح طريق النصر. شارع الطيران يعجّ بالحركة، والسيارات الملتصقة تزحف كالسلاحف. وصلت المشفى بعد خمس وخمسين دقيقة تقطّعت فيها أنفاسي بين الزحام وقلقي.

استقبلني نحيب رانيا:

- ابنتي يا يونس! مايا ضاعت مني يا يونس.!

اكتشفت أن الجميع هنا، وأنا آخر من وصل.

لمحت آدم قادمًا وسط طبيبين آخرين.٠ هرولت نحوهم كما هرول الجميع.

تعلقت عيناي بشفتيه:

- الحمد لله، استطعنا إيقاف نزيف المخ. الساعات القادمة حرجة جدًا.

صفوت الدميري، الذي تمكَّن أيضًا من الوصول قبلي، قال بحزم:

- لو في حاجة للسفر للخارج، نحن مستعدون.

رد الدكتور فوزي، مدير المشفى ووالد زوجة آدم:

- الوضع هنا والخارج لن يختلف كثيرًا. والدكتور يونس يدرك ذلك جيدا.

أجبت بصوت متحشرج:

- افعلوا ما ترونه مناسبًا يا دكتور.

قبل أن أكمل جملتي سقطت رانيا مغشيًّا عليها.

جلستُ على كرسي واضعًا رأسي بين كفي، بينما راوية تخبرني أن مايا كانت تقود السيارة وهي مخمورة. صديقتها التي كانت معها قصّت ما حدث بالتفصيل، لم تُصب إلا برضوض بسيطة، أما ابنتي فهي الآن تصارع الموت.

دخلت في دوامة من الاتصالات التي لم أحتملها فأغلقت الهاتف. ذهبت للحديث مع آدم. جلستُ قبالته، ابتلعتُ ريقي بصعوبة، تلعثمتُ وتعسّرتِ الحروف في فمي كطفل بدأ نطق الكلمات حديثًا:

- آدم، اصدقني القول يا بني، كيف ترى الحالة؟

تنهّد ببطء، ثم توجّه إليّ بكامل جسده:

- وضع مايا حرج جدًا. الإصابة كانت مباشرة في الرأس أوقفنا ارتشاح المخ بفضل الله. كما تعلم هدفنا الآن إنعاش الوظائف الحيوية. ننتظر نتيجة الرنين المغناطيسي، سنفعل كل ما في وسعنا، ونسأل الله التوفيق.

سألته بصوت متلعثم:

- أسوأ الاحتمالات من وجهة نظرك؟

سألته رغم علمي بالإجابة، وكأنني أرجوه أن يرفق بي، فيخفي عني ما أعلمه!

صمت لحظات بدت دهورًا قبل أن يجيب بصوت منخفض وهو يهرب بعينيه بعيدًا:

- شلل.. أو فقدان ذاكرة لا قدَّر الله!

رأي امتقاع وجهي، فأردف:

- هذه أسوأ الاحتمالات، دعنا نتفاءل قليلا يا دكتور.

خرجتُ ونار تتلظَّى في قلبي المُثقل بآهات مكتومة ترجو لو أُطلق سراحها. أشعر كأن الأرض تميد تحت قدمي. ارتمت رانيا في حضني، كانت في حالة انهيار تام، نحيبها عصف بما تبقى من خيوط المقاومة التي كنت أنسجها عبثًا، دموعها غمرتني وأغرقت ما تبقى من صمودي. اختلطت الدموع، وعضَّ الندم قلبينا بلا هوادة. حين يكون المصاب فلذة كبدك، تذوب كلمات المواساة، وتصبح كقبضة تراب ذَرَتها الريح لا أثر لها، تتضاءل كلمات التصبُّر أمام عِظم الفاجعة.

لم أكن أبكي فقط على ابنتي، بل على تقصيري وإهمالي. على سنوات بعدت فيها عن ابنتي حتى أنكرتني، كنت أبكي ابنة لا ذنب لها إلا أنني أبوها، وأبكي أبًا فشل في أن يكون أبًا.

كان الإرهاق باديًا على وجه راوية، رغم ذلك فهي لم تفارق رانيا التي انهارت في حضنها كأخت. الآن فقط اكتشفتُ أنّي أنفقت أيام عمري غارقًا في خِضم العمل، معارفي لا حدود لها، أعرف أناسًا بعدد شعر رأسي وربما أكثر، لكنها ظلّت معارف سطحية، وعجزت عن الفوز بصديق حقيقيّ من هذه الدنيا الزائفة.

جاء أخي مجدي، عارضًا خدماته في بضع كلمات جوفاء، كلمات تصلح لتبادلها بين زملاء العمل، تفتقر إلى أي إحساس أو عاطفة. لم تتجاوز زيارته خمس عشرة دقيقة، قضى نصفها منشغلا بالرد على هاتف لا يكف عن الرنين. لم ألُمه، فقد اعتدت انشغاله بعالمه الخاص منذ زمن بعيد.

رنّ هاتف رانيا، وكان مهاب هو المتصل. طلبت منها أن تتمالك أعصابها قليلًا قبل الرد، لكنها بمجرد أن نطقت بالكلمة الأولى، سُجِّرت بحار دموعها بلا توقف، وأخذت تنوح بحرقة. لم أتحمل المشهد، مددت يدي لأخذ الهاتف منها، وحاولت أن أُطمئِن ابني ببضع كلمات، إلا أن صوتي خانني، ولم يستطع إخفاء ارتجافه. خانتني دموعي أيضا، فتولى زين الحديث بدلا مني مؤكدًا على كلامي ومضيفا من عنده ما يطمئِن ابن عمه.

في تلك اللحظة، وقعت عيناي على نظرات راوية الموجهة نحو زين. وتذكّرت فجأة أنها لا تعرفه، وأن هذه هي المرة الأولى التي يلتقيان فيها. تُرى، ماذا قالت لها ليلى عنه؟

راوية

كنت أتصفح الجرائد اليوم عندما باغتني صوت ليلى عبر الهاتف، تحمل لي نبأ صاعقا: حادث أليم تعرضت له مايا، ونقلت إلى المستشفى الذي يعمل فيه آدم بمدينة نصر. أسرعت لارتداء ملابسي، وكدت أنسى الكمامة التي يلح آدم دائما على ارتدائها عند الخروج.

لم أدرك حجم الكارثة إلا عندما وطأت قدماي المستشفى. قال آدم إن الحالة حرجة، والوضع غير مستقر. انهارت رانيا، وكيف لها ألا تنهار؟ وحدي أشعر الآن بقلبها المكلوم، فحين يكون الاختبار متعلقًا بحياة قطعة من روحك، ما أصعب الصبر ساعتئذ!

حاولت أن أحتوي ألمها، أن أواسيها بما أستطيع من كلمات، لكن .. ليست كل الآلام قابلة للهدهدة، ولا كل الجروح تُطيِّبها الكلمات.

- ستُشفى يا رانيا، والله ستقوم منها سالمة. اصبري واصلبي طولك، سيعافيها الله، سيعافيها.

كرّرت كلماتي هذه مرارًا وأنا أقبض على يدها. لم أجد من يفعل معي هذا يوم الفقد الأكبر، يوم غاب الأخ والأخت والصديق، فلم أجد مَنْ أنهار بين يديه. عرفت كيف تعجز الأرض برحابها عن احتواء ألمك حين تملأ عينيك بالتراب، الذي سكبته على رأسي دون وعي كالمجاذيب.

انهارت رانيا تمامًا، فأعطاها الأطباء حقنة مهدئة، ثم حجزها بإحدى غرف المستشفى.

لاحظت شابا أسمر البشرة، شعره مجعد قصير. لوهلة ظننته من أقارب رانيا، لكنه يعرف ليلى، فاعتقدت أنه زميلها أو زميل مايا. عندما اقترب، وضحت لي ملامحه جيدًا، شبه غريب بينه وبين زوجي، رحمه الله. تذكّرت المثل القائل: (يخلق من الشبه أربعين).

قالت ليلى وهي تعبث بنظارتها:

- ماما، أعرّفك.. زين، زميلي في الجامعة.

تبادلا نظرة مرتبكة، ثم قال الشاب بلهجة حاول أن يلطفها:

- كنت أتمنى لقاء حضرتك في ظروف أفضل.

أثارت مراكز الإحساس لديّ لكنته الصعيدية التي تسللت في بعض كلماته، لم أستطع مقاومة فضولي، فسألته:

- أنت مع ليلى في الكلية نفسها؟

فسمعت (قافًا) صعيدية لا ريب فيها:

- لا، أنا في الفرقة الثالثة كلية حقوق.

شعرت بانزعاج طفيف من لهجته، كأنها أيقظت شيئًا خفيًّا في ذاكرتي. وددتُ لو كان الظرف مختلفًا لأسأله من أي بلاد الصعيد أتى؟ لكن المكان والزمان لم يسمحا بمثل هذا الحديث.

أصرت ليلى على الذهاب لتحضر لي دواء السكري، ورأيت زميلها الأسمر يستعد للذهاب معها. كان يتحدث معها حديثًا خافتًا لم أسمع منه شيئا. فجأة شعرت بعِرق صعيديّ ينبض بداخلي، عِرق ظننت أنه ضمر بعد عشرين عامًا من الحياة في القاهرة. يبدو أن العشرين الأولى من حياة الإنسان، لا تُقارن بأيّ عشرين أخرى تأتي بعدها.

شعرت ليلي بقلقي، فقالت:

- اطمئني يا ماما، لا تقلقي. سنعود فورًا. أرجوكِ، لا تخلعي كمامتك.

ثم اختفيا معًا باتجاه الخارج. جلست بجانب يونس، الذي يحاول التقاط أنفاسه، محاصرًا بندم ينهش روحه. بدا غارقًا في جلد الذات، يتهم نفسه بالتقصير والإهمال في تربية ابنته حتى أوصلها إلى الموت.

- فأل الله ولا فألك. هوّن عليك يا يونس. لا تجلد نفسك بهذه القسوة. كل ما في الأمر أن مايا مدلّلة زيادة حبتين. تماسك، رانيا تحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى.

لاحظت جرحًا غائرًا في يده اليمنى، فسألته عنه، لكنه تجاهل السؤال ونهض فجأة ليبحث عن آدم ويستفسر عن حالة مايا.

بعد وقت قصير، عادت ليلى ومعها زميلها الأسمر. أعطتني الداء وألحَّت عليّ أن أتناول شيئا من الكافيتريا. قبل أن تتحرك، استوقفها الشاب وسألها:

- ليلى، أين عمي يونس؟ بحثت عنه ولم أجده.

ارتبكت للحظة. «عمي يونس!» من هذا الشاب؟

في تلك اللحظة، ظهرت رانيا، مترنحة بفعل الحقنة المهدئة. كادت أن تسقط، فتقدم الشاب نحوها بخطوات سريعة. أمسك يدها، وهمست له بكلام لم أسمعه. رأيته يشير إلى يونس، الذي خرج في تلك اللحظة من غرفة الأطباء ومعه آدم.

شعرت بشيء غريب يتسلل إلى قلبي، كأن جزءًا من المشهد غائب عني. قالت ليلى إنه زميلها، لكنه يعرف يونس، وها هي رانيا تعامله وكأنه قريب مألوف. أم أن أثر الحقنة لا يزال مستمرا؟

«يا راوية، يبدو أنكِ الغائبة عن الوعي هنا!»

رأيت انهيار رانيا حين كانت تتحدث مع ابنها في غربته. لم تستطع إتمام المكالمة، وانهار يونس بدوره بعدها بلحظات. حدث ساعتئذ ما أكَّد لي أن ابنتي لم تقل الحقيقة كاملة عن هذا الشاب عندما اكتفت بقولها:

«زميلي في الجامعة.»

-6-

كانت الشمس تنسج من أشعتها رداءً ذهبيًّا يمنح الأرض الدفء والضوء. تتمايل سنابل القمح كراقصات يعزف الريح ألحان خطواتهن، بينما تقف أعواد القصب شامخة وقد ربّطتها أيادي الرجال الذين ينتظرون فجرًا جديدًا ليكسروا صمتها ويبدؤوا رحلة الكدح، مؤمنين أن الرزق على الله.

في بيت صالح الزهيري، الذي تجلس حُسْن على عرش إدارته، كان صالح غارقًا في موجة من الغضب، ينفث دخّان سيجارته كأنما يريد أن يطرد به همومه، بينما التجاعيد على وجهه تشهد على معركة داخلية يشتعل أوارها. يضرب أخماسًا في أسداس، يسُبّ ابنه أمين ويتوعّده.

قالت حُسْن وهي تلوي شفتيها:

- الواد أمين يموت على القرش، طالع لَك.

ردّ صالح مستنكرًا:

- والمشي مع (الدّهّابة) هو الحل؟ بدلا من أن يراعي الأرض؟ لكن لا ألومه، زرع شيطاني، طالع لخاله.

كانت حُسْن رغم غلظتها الظاهرة، تحمل في قلبها همًّا على ابنها لا يقل عن غضب صالح، فردت بحدّة مشوبة بحزن:

- خاله؟ خاله يعيش حياته بالطول والعرض، لكننا نعرف أرضه! الحق عليك يا صالح! لو أعطيت الولد ما طلب، ما كان تركنا وسار في طريق الخطر. لكنه ولدك، ما له خاطر عندك؟

امتصّ صالح آخر أنفاس سيجارته ثم أطفأها في المرمدة وكأنه يفرغ غضبه الأخير:

- اللّهُمَّ طوّلك يا روح. أرض بالشيء الفلاني أفرّط فيها لولد طائش؟ ماذا يقول عنّا الناس؟ الزهايرة يضيّعون أرضهم على آخر الزمن!

ضحكت حسن بسخرية مريرة:

- الناس؟ الناس وكلامهم أهم من ولدك؟ قيراطين أو ثلاثة لن تُنقِص الأرض. كنت كسبته تحت جناحك وفرحت به وهو ينجح أمام عينيك، لكنك لا تفكر إلا في الأرض وكلام الناس.. مثل كل زهيري أصيل، ما عاد داركم دار عمدة يا صالح! متى تستوعب؟

نظر إليها نظرة تحمل من الغيظ ما لا تحتمله الكلمات، صرخ والدم يغلي في عروقه:

- لا تطوّلي لسانك، يا حُسْن! وخلي يومك يعدي على خير.

أخبرته بأنها ستذهب اليوم إلى بيت إحدى جاراتها لتحضر حفل زفاف ابنها. قال وهو يُمسك عصاه الغليظة متّجهًا ناحية الباب:

- لا تتأخري، هي ساعة زمن، الليلة مسافر مصر.

وهي تصعد السلّم الرخامي الأنيق نحو الطابق الثاني:

- سآخذ ندى معي، محبوسة البنت ليل نهار من أول الإجازة.

أمين، الابن الثاني لصالح، كان أشبه بمن يقف على عتبة الحلم، لكنه لا يجد الباب ليدخل. لم يفلح في تعليمه، بالكاد حصل على دبلوم الثانوية الصناعية بعد أن قضى سنوات الدراسة الثلاث خمسًا. أنهى خدمته العسكرية، ومنذ ذلك الحين لم يعرف سوى العبث مع أصدقائه في المقاهي والنوادي، متنقلا بين الأقصر والغردقة كريشة في مهب الريح.

حين عمل لفترة قصيرة مع خاله علّام في قطاع السياحة، سرعان ما ضاق ذرعًا بالوظيفة وكأنها قيد يلف عنقه. عقل أمين يموج بالأفكار، لا تهدأ فيه الرغبات، فتارة يفكر بمشروع، وأخرى يهدمه باندفاعه وتهوره. كان آخر ما استقر عليه هو اقتراح من بنات أفكار صديقه، فكرة إنشاء قاعة أفراح فاخرة في القرية. لمعت الفكرة في عينيه، إذ لاحظ أن أهل القرية يضطرون للذهاب إلى قنا أو الأقصر لإقامة حفلاتهم. فلماذا لا ينشئ لهم قاعة تليق بهم هنا؟ هو مشروع مُربح بلا شك.

«خصوصًا لو كان على أرض مِلْك يا أمين. وقتها لن يضيع المكسب في إيجار المكان».

امتلأ عقل أمين بحلم القاعة، فذهب إلى أبيه يعرض الفكرة بلهفة الحالم، لكنه اصطدم بجدار الرفض. نظر صالح إلى الأمر بسخرية، ولمّا طلب منه أمين قطعة أرض يقيم عليها المشروع، اشتعل غضب صالح،

وانفجر في وجه ابنه سبًّا وتقريعًا. أحسّ أمين بالمهانة، توَّلد في داخله حقد عميق، وانقطع الخيط الواهن الذي يربطه بأبيه. غاب عن البيت لأيام، مجهول الوجهة، يكتفي بالصمت حين يعود. بدأ يمشي في طريق آخر، أكثر خطورة، وانضم إلى ثلة من شباب القرية في مغامرة البحث عن الذهب في جبالها، يلهثون خلف (طواحين الذهب) مثلما يلهث الظمآن نحو السراب.

يوم وقعت عينا أمين على ابنة عبد الناصر العمري وهي تنزل من سيارة الأجرة عائدة من مدرسة التجارة بالمركز، سَرَت في داخله شيء أشبه بالنار. كان جمالها يحمل في ثناياه أنوثة غامضة. لم يستطع مقاومة دافع غامض للمشي خلفها، وكأنه مغناطيس يجذبه. واصل تتبعها يومًا بعد يوم، حتى أثار تصرفه انتباه أحد أقربائه، الذي نقل الأمر إلى أبيه.

حين واجه صالح ابنه، أجاب أمين بنبرة تحدٍ:

- أريد أن أتزوجها.

بدت الصدمة على وجه الأب، الذي ضرب كفًا بكف:

- من وسط بنات البلد ما عجبك غيرها؟

حاولت حُسْن رغم غضبها أن تقنعه:

- يا أمين، اسمع كلام والدك. ناصر العمري لن يوافق أبدًا.

لكن أمين كان يرفض الاستماع لأي نصيحة، وأصرّ على رأيه بعناد. ولمّا يئس صالح من إقناع ابنه بالكفّ عن السير خلف البنت، خَشِيَ أن يؤدي تهوّر ابنه إلى متاعب هو في غِنًى عنها، فقرر التحرك بحذر.

توجّه إلى رجل تجمعه علاقة طيبة بآل العمري، طالبًا منه أن يجسّ النبض ويعرف رأي عبد الناصر بشأن المصاهرة.

قال للرجل:

«تعرف حساسية الوضع وما كان بيننا، صحيح تم الصلح بين العائلتين، لكن ما في القلوب لا يعلم به إلا الله.»

عاد الرجل بعد يومين برسالة واضحة:

«اصرف نظر عن هذه المصاهرة.»

كان الرد متوقعًا، رغم ذلك، حاول صالح طمأنة ابنه وتخفيف وطأة الرفض عليه. إلا أن أمين، وبشكل مفاجئ، تخلّى عن الفكرة بنفس السهولة التي استحوذت بها عليه، وكأنه نسي أمرها تماما!

الجديد الذي لم يعرفه صالح ولم تسمع عنه حُسْن، هو أن أمين انزلق إلى عالم مظلم. التحق ببعض شباب القرية العاطل الذين وقعوا فريسة لمخدر الشابو. في البداية، كان يعمل كوسيط يبيع ويشتري، لكن طبّاخ السُّم لا بد أن يتذوقه. لم يمض وقت طويل حتى أصبح يتعاطاه أيضا، وانزلقت قدماه في (الخَيّة).

عند غروب الشمس، يجتمع برفقائه غربي الجسر، في بقعة مظلمة بعيدة عن أعين الناس. تلك البقعة التي تتسع كل يوم، كأنها هاوية تبتلع المزيد من الأرواح. يكتظ المكان بأصوات الشباب الغارقين في نشوتهم الوهمية، وسط صمت الكون الذي بدا وكأنه يشيّعهم إلى مصير مجهول.

جلسة العروس في الحفل كانت أشبه بلوحة متقنة التفاصيل، تتناغم فيها الألوان والحركات. فستانها الأبيض الناصع الذي يعكس بريق الأضواء، وشعرها الأسود الفاحم الذي بدا بلون ليل سُجّل فيه القمر ضمن زمرة الغائبين. تجلت العروس في أبهى صورها. أظافرها طُلِيَت بطلاء قرمزي لامع، وزُيِّن كفاها وذراعاها برسومات حنّاء أسوانية، أشبه بورود متفتحة تتراقص مع نبض الحياة. تتمايل العروس مع أنغام الموسيقى كسنابل قمح في رقصة مع الريح، لكن عيني أمها اللتين راقبتاها عن كثب، كانت كمرآة تعكس وصايا التعقل والرصانة. فحاولت العروس أن تتقمص دور الحكمة في ليلة استثنائية.

تحلَّقت البنات حولها، نظراتهن خليط من الدهشة والغيرة، وأفكارهن تلهث بأسئلة دفينة:

«ما الذي يميز هذه الفتاة التي بالكاد أتمت عامها التاسع عشر لتفوز بعريس قبلهن؟»

عريس يعدونه (لقطة)، جاء من بلاد الخليج حاملا وعد الثراء. لكن الإجابة لم تتأخر أم العريس وهي تباهي بالشَّبْكَة الذهبية اللامعة بين النّسوة، ألقت التعليق الذي حسم التساؤل:

- ولدي حالفه الحظ. عروس صغيرة، غير أخيه الذي خطب فتاة تجاوزت العشرين بسنتين..!

كان تعليقها كشرارة ألهبت مشاعر حُسْن، التي جلست مراقبة للمشهد بنظرات مليئة بالحنق. هذا الحديث أيقظ خوفها على ابنتها التي أصبحت على مشارف العشرين دون زواج أو خطبة، وجعلها تتساءل مرة أخرى:

«هل أخطأت عندما تركتها تكمل تعليمها؟»

ازداد حنقها على التعليم الذي أضرَّ بابنتها فلعنته في نفسها ألف مرة، صمّمت البنت على استكمال الدراسة ونيْل شهادة جامعية، فطاوعها أبوها. كانت النتيجة أن عزف الخُطّاب عنها.

«آه الجامعة جلّابة المصائب، بم ستنفعها؟ في النهاية سيعطونها ورقة لا تُغني ولا تُسمن من جوع.»

أحضرتها اليوم معها إلى حفل حفل الزفاف كي تراها العيون وتنبهر بابنة حُسْن التي جمعت بين الجمال والحسب والنسب والتعليم، رغم عدم اعترافها بقيمة هذا الأخير، لكنها تذكره كميزة عندما يحلو لها.

ألبستها أجمل الثياب، وجلبت لها المرأة التي تأتي لتزيين العرائس في حفلات الخِطبة، فبدت ابنة حُسْن في طلّتها كما لو كانت هي العروس.

تلمع عينا حُسْن وينفرج ثغرها عن ابتسامة ذات معنى كلما أمسكت بعيون النسوة تتفحص ابنتها وتطيل النّظر إليها. وحين رأت اهتمام إحدى النساء، زوجة رجل ميسور الحال، يملك الأرض والعقارات، شعرت أن جهودها لم تذهب سدى.

عند عودة حسن وابنتها في ساعة متأخرة من الليل، كان المشهد كارثيا. بقع الدم على الأرض شاهدة على ما حدث، بينما استلقت الخادمة، وجهها شاحب كأنه امتداد للبياض الباهت الذي يلفّ رأسها. صالح يقف مع الطبيب بوجه أصفر كليمونة ناضجة.

عليّ، الابن المريض المحتجز في غرفة منعزلة عن البيت، انفجر في نوبة هياج أثناء غيابهما. لم يكن في البيت سوى الخادمة التي اعتادت العودة إلى بيتها بعد صلاة العشاء كل ليلة، لكن اليوم طُلِب منها التأخّر قليلًا لحين عودة الأم وابنتها. قبل تأزُّم حالة عليّ، حاولت الخادمة الاتصال بهما، لكنّ واحدة منهما لم تسمع نداء هاتفها، بفضل أصوات الـ (دي جي) التي تزلزل البيت. حاولت الخادمة تهدئة الابن الهائج، اعترضت طريقه فدفعها بقوة، وتدحرجت على درجات السلم، فشجّ رأسها. عندما رأى عليّ الدماء انتابه الهلع. انكمش للحظات قبل أن يهرب إلى غرفته، حيث ألقى بجسده وأغلق الباب على نفسه.

عاد صالح ليجد الخادمة غارقة في دمائها. استدعى أحد أقاربه، الذي يعمل في الوحدة الصحية لإسعافها، ثم صعد بحذر إلى غرفة ابنه. فتح الباب ليجد عليّ ملقًى فاقدًا الوعي على الأرض، فاتصل بالطبيب المتابع لحالته.

في الأعلى، عند باب غرفة عليّ، كان صالح يحدق بابنه النائم، لم يكن ذلك الابن سوى ظل لرجل حلم به يوما، رجل قوي يسانده في شيخوخته. عض صالح على شفتيه متجرعا مرارة العجز في صمت.

راوية

وبعضُ الجروحِ ضاربة في العمق، ملامِسة للروح، غير قابلةٍ للشِّفاء، فقط تغشاها سحابة بُرءٍ لا تلبث أن تنقشع مع أول أنَّة للقلب، بعض الجروح شهود عُدول على فرصٍ خسروها كما خسروك..

«وما ذنب زين بماضيكم يا ماما؟!»

وماذا كان ذنب صغيري أمجد؟ طفلي الذي مات قبل أن أشبع من كلمة (ماما) بصوته، ماذا كان ذنب زوجي الذي لم يؤذِ أحدًا في حياته؟ عن أي الذنوب تحدثني ابنتي؟

هو ابن حُسْن، أي ذنب أعظم من هذا؟

الآن فهمت سر أسئلتها عن أهل أبيها.

لم أصدّق! يونس يعلم بظهور ابن حُسْن في حياة ابنتي ولا يخبرني؟ هو أكثر الناس علمًا بما عشته، فكيف يُخفي عني شيئًا كهذا؟

«أنا طلبت منه ألا يخبرك حتى لا تنزعجي يا ماما.»

أنزعج يا ليلى؟!

تعيدين الحياة لماضٍ دفنته أمك منذ سنين، وتريدين مني ألا أنزعج؟!

«حكى لي آدم كل شيء.»

آدم! رضي الله عنك يا بني. لم يفكّر يومًا في نبش قبور الماضي أو إزعاجي بسؤال عنه. أخبرني يونس ذات يوم عن حوار دار بينه وبين آدم حين سأله عن حقيقة ما جرى. قال له يونس ما يمكن لعقل صبيٍّ في الثالثة عشر أن يهضمه، ولم يفكر بعدها، وإلى اليوم، في فتح هذه السيرة معي طوال تلك السنوات.

والآن تقول ابنتي إن زين لا ذنب له!

وماذا كان ذنبكِ وأخيكِ لتعيشا هنا كالغرباء، مقطوعين عن الأهل والعِزوة؟ ماذا كان ذنبي لأقاسي ما قاسيته في تربيتكما وحدي في أحضان غربة أكلت روحي؟

وكأن هذه العائلة قدري الذي أعجز عن الهروب منه مهما حاولت.

تطلب مني ابنتي نسيان الماضي! الماضي الذي لا تعلم عنه شيئًا. هل الأمر بسيط إلى هذا الحد؟ هل عليّ اليوم أن أنسى وأسامح كأن وجعًا لم يكن؟! وسنوات الشقاء التي عشتها؟ والأشواك التي دعستُ عليها بقدمين حافيتين؟

نبشتُ قبور الماضي، وبدأتُ أحكي لها ما لا تعرفه لعلها تشعر ببعض ناري.

في بلد يُقدَّم الموت فيه بالمجان، يحدث كل يوم بسبب ومن دون سبب، عاشت أمكِ وعاش أبوكِ. يوم تقدَّم أبوكِ لخطبتي، رأى فيه أخوتي صِهرًا

مناسبًا: حسبًا، ونسبًا، وغِنًى. وافق أخوتي وتم الزواج، وأقيمت الأفراح وغنت النسوة..

مع أبيكِ وجدتُ العِوَض عن سنوات من الحرمان قضيتها منذ الصغر. كنت لا أزال في الجامعة. ورغم الضغط الذي عشته للتوفيق بين البيت والدراسة، إلا أن آخر عامين في الجامعة كانا أجمل سنوات حياتي.

مرّت الأيام والشهور وأمك تعيش سعادة يحسدها عليها كثيرون، لم تخل تلك السعادة من منغّصات، وهي طبيعة الحياة.

كانت لعمي قطعة أرض تجاور أرضًا للزهايرة، عائلة أبيكِ، تحديدا للعمدة منصور الزهيري. وقع خلاف حول حدود الأرض بينهم وبين عمي. فأُرسل الدّلّال[7] لحسم الأمر، وتوضيح الحدود المعروفة سلفًا. جاء بخرائطه وأدواته، لكن الزهايرة لم يعجبهم ما قاله، فظل الخلافُ قائمًا.

وذات صباح، بينما يعمل ابن عمي في أرض أبيه، تعرّض له ابن العمدة، فاشتبكا، كلمة من هنا وأخرى من هناك، اشتعل الخلاف، انتهى بمقتل ابن عمي بفأس هشم بها ابن العمدة رأسه، ولم يتركه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وبموته سُجّرت بحار الدماء التي لم يكن بوسع أحد إيقافها.

شهد الواقعة بعض أهل القرية، لكنَّ واحدًا منهم لم يجرؤ على تقديم شهادته ضد ابن العمدة أو النطق باسمه عندما جاءت الشرطة وحققت في

[7] الدَّلّال: رجل كان يحتكم الناس إليه في قياس حدود ومعالم الأراضي الزراعية (موظف هيئة المساحة حاليًا).

الحادث، كذلك إخوتي، وأعمامي وأبناؤهم، لم يقولوا شيئًا، ولم يتهموا أحدًا. لم يكن لسكوتهم سوى معنًى واحد، هو أنهم ينوون أخذ بالثأر.

مرَّ أسبوع من الترقّب، كنت أتقلّب فيه على جمرات القلق، أوقن أن كارثة ستحدث ذات صباح أو مساء، حتى استيقظنا على خبر مقتل ابن العمدة يوم عودته من الخارج حاملًا شهادة تغرَّب في سبيل الحصول عليها خمس سنوات.

توجَّهت أصابع الاتهام نحو أهلي. ومن غيرهم؟ صحيح أن التهمة لم تثبت على أحد، واستطاعوا الخروج منها كالشعرة من العجين، لكن الجميع يعلم أن هم من فعلوها ثأرًا لدماء ابن عمي.

اشتعلت في القرية فتنة، لم يسلم أحد من الاكتواء بنيرانها. أصبحت حياتنا عذابًا مستمرا، وكأن بركانًا ثار ولن يُخمد إلا بعد أن تلتهم حِممه الأخضر واليابس. حاول أبوكِ السعي للصلح بين العائلتين، كانت مساعيه تتحطّم على صخرة العِند والمكابرة، شاركه في ذلك عمك يونس وخالك عاصم أيضًا، واستعانوا بمجموعة من العقلاء عُرِفوا بسعيهم في إصلاح ذات البيْن، لكن صدور الزهايرة أصبحت مراجلَ تغلي بعد مقتل ابن عمدتهم، وضعت يدي على قلبي في انتظار وقوع قتيل جديد، سيكون من أهلي هذه المرة.

في إحدى الليالي، تربّصوا بأخي سعد، أثناء عودته، لكن الرصاصة ضلت طريقها، وانحرفت لتستقر بقلب عمي، الذي كان يرافقه. ثلاثة قتلى في أقل

من شهرين، يُقبض على المشتبه فيهم، ثم يتم الإفراج عنهم بعد بضعة أيام أو أسابيع لعدم كفاية الأدلة، ضرب النار لم يكن يتوقف في ليل أو نهار. القرية كلها في حالة هلع وترقّب، جاءت عناصر الأمن وانتشرت في القرية. كانت رائحة الدم تُدمي قلوب الأبرياء الرابضين على شفا حفرة من الضياع، تمزّق أفئدة الصابرات على الثُّكْل، أما قساة القلوب فيتغذى عِندُهم وجهلهم على تلك الرائحة. رائحة الدماء سادت فغابت كل رائحة عداها.

منذ بدْء الصّراع بين العائلتين، حاول خالك سعد تطليقي من أبيك، جاء في صبيحة يوم يصرخ ويهلل مصمّمًا على عودتي معه إلى البيت، لكن حكمة أبيك في التعامل معه بالإضافة إلى اضطراب الوضع وانتشار الشرطة، منعه من التمادي، ولمّا سمعني أقول:

«لن أترك بيت زوجي.»

خرج يسبُّ ويلعن البطن التي جمعتنا.

في تلك الأيام الصعبة بُشِّرنا بكِ، تعبتُ ذات مساء فجاء والدك بالطبيب.

«سيكون فألا حسنًا على العائلتين ونتخلص من وجع القلب قريبا.»

«يا رب يا عمر! وستكون بنتًا هذه المرة، ونسميها (ليلى). الاسم الذي تحبه.»

أبحث الآن وأنا أحكي لكِ يا ابنتي، أبحث عن مفردات تُفلح في وصف حال امرأة تعيش في بيت يتقاتل أهله وأهلها.

عمي وابنه لقيا حتفهما على يد أهل زوجي. لم تقبلني زوجة عمي يوم ذهبت لمواساتها، أعرضت بوجهها عني، وزوجات إخوتي لم يتحدثن معي، أما أخي سعد فصرخ في وجهي:

«إن لم تتركي بيت الزهايرة، لا أريد رؤية وجهك هنا. لا أنت من آل العمري ولا نعرفك.»

بكيتُ وأنا أعيد كلام أخي بعد كل هذه السنوات. شعرت بدوار، ناولتني ليلى كوب الماء:

- كفاية يا ماما، استريحي الآن.

شربتُ، ثم استأنفت بعد دقائق:

ابن العمدة، الشاب العائد من غربته ليلقى مصرعه يوم دخوله القرية، شقّت أمه ثوبها نصفين،وأهالت التراب فوق رأسها. عاشت تنتظر يوم عودة ابنها من بلاد برّه حاملًا الشهادة الكبيرة، لطالما تفاخرت به أمام النسوة، لم تكن تعلم أنها تنتظر أجله.

كان أبوكِ ترياقي، الدواء الذي لا يبطُل مفعوله أبدًا، وكان رغم الحرب الدائرة متفائلًا دائمًا. يطمئنني كلما جزعت، يؤمن باقتراب فرج الله، ويؤكد أن الحال ستتبدّل والفتنة ستنتهي، وتعود المياه إلى مجاريها صافية من غير كدر.

«اصبري يا راوية، فرج الله قريب.»

كلماته كانت قادرة على محاربة جيوش الهم التي تأكل قلبي. كان رحمه الله خبيرًا بالقلوب، ويُتقن هدهدتها. أمين الزهيري، جدكم العنيد، يرفض أي محاولة للتهدئة، يكرر في كل جلسة:

«لو قتلوا منا واحدًا، نقتل منهم خمسة.»

عمّك صالح وزوجته حُسْن كانا يشعلان نيران الثأر كلما خبَت جذوتها. لم تكف زوجة عمك عن النفخ في النيران، تُحرّض زوجها على عدم قبول الصلح، وهو بدوره يشعل قلب أبيه. سمعتها بأذني تقول:

«كيف يصبر أبوك عليها؟ تحدّث معه، كيف لا يجبر ابنه على تطليقها؟!»

وفي إحدى الليالي العامرة بعواء البنادق. صرخت حُسْن في وجهي وهي تقبض على ذراعي بكفها:

«كله من تحت رأسك ورأس أهلك.»

وقف لها عمر، أشبعها سبابًا، وكاد أن يمد يده عليها لولا تدخّل جدتك. لطمتها على خدها، وصرخت فيها:

«إياكِ تمدين يدك على امرأة ولدي أو حتى ترفعي صوتك عليها مرة ثانية، سمعتِ؟!» كانت جدتك مثلي، يتقطّع قلبها ويرتجف خوفًا على أولادها.

على الجانب الآخر، كان العِند يركب رأس إخوتي وأبناء عمومتي، ويسوقهم الغضب كالقطيع، مقتل عمي أطاح بعقولهم وأشعل في قلوبهم نارًا لا تنطفئ.

استعان أبوكِ بأناس اشتهروا بحِنكتهم وخبرتهم في أمور الصلح بين العائلات. أقبل عليّ بَاشًّا ذات ليلة، تكاد الفرحة تقفز من عينيه السّاجيتين:

«ألم أقل لك يا راوية إن فرج الله قريب؟»

كان قادمًا من إحدى جلسات الصلح التي تُعقد بشكل يومي منذ بداية الثأر، أخبرني أن الجيِّد[8] الذي كان معهم هذه المرة، شيخ كبير السن عُرِف بين الناس بحكمته، استطاع التوصّل إلى تهدئة مؤقتة، لكنها على أي حال برهان خير ودليل فرج، سيؤتي أُكله ذات حين.

هدأت الأوضاع قليلًا، وبدأت عناصر الأمن في المنطقة تقل شيئا فشيئا. قلبي لم يطمئن بشكل كامل، ظلّ التوجّس رفيقه، لكن عمر ينقل لي العدوى كعادته. أستمد الطمأنينة من يقينه، يؤكد كل طلعة شمس أن العتمة ستنتهي، ويعود الأمان يُلقي بظلاله على حياتنا.

«مهما طال الليل يا راوية، ستشرق.»

كان أبوك يستعد للخروج لصلاة الجمعة عندما تعلّق أخوكِ أمجد بهُدب جلبابه يريد الخروج معه إلى المسجد. ذهاب الصغار إلى المساجد برفقة آبائهم أمر معتاد، لكن مذ توترت الأوضاع حبست العائلتان صغارها في البيوت. تعلّق أخوكِ يومها بأبيه، تعجّب عمر من رفضي. قال إن الأمن قد عاد، وإن قلقي هذا لا مبرر له.

[8] الجيّد: لفظ يطلق على مَن يسعى في الصلح بين المتخاصمين.

بعد انتهاء الصلاة، كان أبوكِ وعمك صالح عائِدَين معًا إلى البيت يتوسطهما أمجد عندما اعترض طريقهم أخي سعد ومعه عامر ابن عمي. طلب سعد من أبيكِ أن يأخذ ابنه وينصرف ويترك أخاه ليواجه مصيره المحتوم.

«لست المقصود يا عمر، خذ ولدك وروّح.»

لم يكن أبوك ليتخلى عن أخيه، راح يتوسّل إليهما، مذكِّرا إياهما بضرورة الالتزام بالهدنة التي تعاهدوا عليها. ذكَّرهما بالله الذي صلّوا له منذ دقائق قليلة، وذكّرهما بالنسب الذي يربطهم، صرخ سعد:

«خذ ولدك وامشِ يا عمر، ولا تعطلّنا.»

تساءلت كثيرًا: كيف كانت حال صغيري في تلك اللحظات؟ كيف كان وسط مشهد كهذا؟ هل سمع توسلات أبيه بينما كان السلاح مرفوعًا في وجهه؟ هل أصابه الفزع؟ هل بكى؟ هل طمأنه عمر؟ هل أمسك بيديه لحظة فزعه وربَّت على قلبه ليسكن؟ هل عرف ابني خَالَه في تلك اللحظات..؟ هل.. هل..؟ لسنوات طويلة ظللت أسأل نفسي هذه الأسئلة التي لم أتمكن من إيجاد إجابة لها. حكى عمك ما أراد أن يحكيه، لكن ما رغبت في معرفته ظل مجهولا.

انطلقت الرصاصة فتلقفها صدر أبيكِ، وبينما حاول عمك الهرب بأخيكِ بعيدًا، انهالت الطلقات عليهما، فكانت النتيجة أن لحق ابني بأبيه، وجُرِح عمّكِ جرحًا التأم بعد أسبوعين أو ثلاثة.

بعد هروبي من نيرانهم واستقراري هنا، استمرّت قاطرة الموت تدور على شباب العائلتين حتى تمّ الصلح، وقُبِرت الفتنة التي أودت بحياة الأبرياء.

عاد الصداع يفتك برأسي، ولم أستطع الاستمرار في الحديث أكثر من ذلك. اعتذرت ليلى معتقدة أنها السبب في إرهاقي بعد سرد كل هذه التفاصيل.

كنت على وشك التوجه إلى عرفتي عندما رنّ هاتفي ليصلني إشعار رسالة عبر الواتساب، كانت من عاصم:

«تخيّلي عطاء الله وكرمه، زوجة سعد حُبلى بعد كل هذه السنوات، سعد لا يصدق، وآمنة عقلها سيطير.»

سبحان الله المعطي.. المانع!

يونس

الفرصةُ الثانيةُ هبةٌ نادرة لا تُعْطَى دوما؛ فرصة لتصحيح الأخطاء التي كادت تعصف بكل جميل مررنا به. فإذا ما حدث وأعطاك القدر فرصة ثانية، اقبِض عليها بيدك، بأسنانك، وقبل ذلك، بقلبك.

أفلتت ابنتي من بين أنياب الموت بأعجوبة، ثلاثون يومًا مرّت، قال الفريق الطبي المتابع لحالتها إن وضعها الصحي في تحسّن ملحوظ، وإن خروجها من المشفى أصبح وشيكًا.

لكن جراح قلبها لا تزال باقية. أسأل الله أن يمدّ في عمري بقدر ما يُعينني على تطييبها. عند تلاقي عينيها بعيني لأول مرة بعد أن أفاقت من غيبوبتها، قالت بصوت منهك ممزوج بدمعها:

«سامحني يا بابا».

بل سامحي أنتِ أباكِ يا مايا، سامحي تقصيره في حقك يا ابنتي.

قبّلت يدها، بينما سالت دموع حارقة من عينيّ الشاردتين.

عاد مهاب من أمريكا في إجازة قصيرة ومعه شمس، الفتاة السورية الرقيقة، ذات الوجه الطفولي البريء، وعينين يتعلق الشّجن بأهدابهما. تعرّف عليها مع أخيها في أمريكا، بعد أن هجرا سوريا بسبب الحرب. مات

أخوها قبل شهرين في حادث سير. كان قد ذكرها لي مرة أو مرتين عرَضًا في حديثه، لكنه يفاجئني الآن برغبته في الزواج منها.

غضبتْ رانيا، ولم يعجبها الأمر، ووقعتُ أنا في حيرة شديدة بين رغبة ابني، من ناحية، وخوفي من أن تكون رغبته هذه ليست حبًّا حقيقيًّا يدوم، بل مجرد رغبة نابعة من حرصه على الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه أمام أخيها بألا يتخلى عنها.

قال بنبرة حاسمة:

- اطمئن يا بابا، حبي لشمس أكبر من ذلك بكثير. سامحني أنت وأمي، لكنني.. لن أتراجع عن قرار زواجي منها.

احتضنته، وشعرت بالفخر لكونه ابني. رأيت كيف نفعته الغربة، وكيف قوّت عوده. أعرف كيف تفكر زوجتي، هذه الزيجة تعيق مخططاتها وتنسفها نسفًا. مشكلة رانيا أن زواج مهاب من شمس لن يحقّق لها ما تطمح إليه من التفاخر بالحسب والنسب. تُوفي أهل الفتاة في سوريا، ثم توفي أخوها في أمريكا، وأصبحت مقطوعة من شجرة. ألمحت لي أكثر من مرة برغبتها في زواج ابني من إحدى بنات عائلتها الكريمة. رانيا تشبه والدي، تَزِنِ الناس بعلاقاتهم وأرصدتهم في البنوك، وسيأتي اليوم تعلم فيه أن ميزانًا كهذا حريٌّ به العطب.

في حفل أقيم في الڤيلا، تزوج ابني. كان حفلًا بسيطًا حضره المقربون من معارفي وأصدقاء رانيا. مؤخّرًا مع انتشار فيروس كورونا، بدأ كثير من

العقلاء في الحذر وتجنّب الزحام، حتى أن سفر مهاب وشمس تأجل بسبب تعليق الرحلات الجوية وإغلاق المطارات.

.....

- يونس، أرجوك، اترك كل متعلقاتك في الطابق الأول، لا تدخل بها هنا.

قلت منفعلًا:

- آخذ حذري جيدًا يا رانيا، قلقك الزائد هذا مشكلة كبيرة.

أصيبت زوجتي باضطراب الوسواس القهري مع انتشار كورونا، فصارت تبالغ في النظافة بشكل خانق. تُشرف على تنظيف الڤيلا بنفسها، الأرضيات والأسطح تُمسح يوميا بالكلور عالي التركيز. زجاجات الكحول في كل مكان، والكمامة لا تفارق وجهها سواء في البيت أو خارجه.

لقد أصبح الأمر خطيرًا فعلا. أعداد المصابين والوفيات بسبب الفيروس في ازدياد، تتضاعف يوميا كأسْهُم شركة في البورصة ارتفعت دون نية في الانخفاض. هذا بخلاف الحالات غير المسجلة في الإحصائيات، والتي لم تشملها التقارير الرسمية. في مارس 2020، أعلنت منظمة الصحة العالمية أن فيروس كورونا (كوفيد 19) قد أصبح جائحة عالمية.

- لا أفهم شيئًا يا بابا، وسائل التواصل مليئة بكلام متضارب.

عندما سألتني مايا هذا السؤال، أجبتها:

- كورونا مجموعة من الفيروسات التاجية التي تسبب أمراضًا مثل الزكام، والالتهاب التنفُّسي الحاد (السارس)، ومتلازمة الشرق الأوسط التنفُّسية (ميرس).

- سارس.. ميرس!

- نعم، في ديسمبر الماضي، اُكتشِف نوع جديد من فيروسات كورونا، يُعرَف باسم فيروس كورونا المسبب للمتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة (SARS_COV_2) ويُسمَّى المرض الناتج عنه فيروس كورونا المستجد (كوفيد 19).

ظهر الفيروس أول ما ظهر في مدينة ووهان، عاصمة مقاطعة هوبي الصينية، ثم بدأ يجوب العالم دون أن يقدِر أحد على إيقافه.

في عيادتي، حاولت جاهدًا الالتزام بأساليب الوقاية. وأُملي على التومرجي قائمة التعليمات:

«المرضى لا يدخلون العيادة دون كمامات، ممنوع اصطحاب الأطفال، يسمح بمرافق واحد فقط مع المريض، ويجب استخدام المطهرات والمنظفات بشكل مستمر».

أصبحت زجاجات الكحول أكثر من زجاجات الماء في أيام الصيف. أخشى انتقال وسوسة رانيا إليّ، فهذه تعليماتها التي تمليها ليل نهار على العاملين بالڤيلا، حتى التومرجي قال لي إنها تحدثت معه وأعطته التعليمات نفسها.

كنت دائما أعتقد أن الوعي هو كلمة السر لعبور الأزمات، وأن انعدامه هو المتهم الأول في كل كارثة تحل بنا. من وجهة نظري، الوعي ليس مرتبطًا بالمستوى التعليمي. تعاملت حتى اليوم مع آلاف المرضى، تختلف مستوياتهم التعليمية والثقافية، وغالبا ما أجد صعوبة في إقناع شخص متعلّم بما أستطيع إقناع شخص بسيط به حتى وإن لم يكن قد نال حظًّا يُذكر من التعليم.

بعد تفشّي فيروس كورونا تأكد لي ذلك جليا. توقّعتُ أن يُوجّه الجهد الأكبر في توعية كبار السن وغير المتعلمين، لكننا فوجئنا بقطاع واسع يحتاج إلى ذلك، حتى أولئك الذي يقضون وقتهم في متابعة وسائل التواصل الاجتماعي، ويطالعون الأخبار والتوصيات. لديهم معلومات كثيرة، لكنها تفتقر إلى الوعي الصحيح بها وبكيفية تنفيذها.

كما رأيتُ في المصالح الحكومية، وجميع المؤسسات التي التزم زوّارها بارتداء الكمامات الطبية، يرتديها الناس راضخين للتعليمات لكن ما إن يخرجون إلى الزحام، حتى يسارع البعض بنزعها. شاهدت بعينيّ اثنين من الرجال يتبادلان الكمامة نفسها! تذكرت السائق الذي يلتزم بارتداء حزام الأمان أثناء المرور بنقطة التفتيش، ثم يخلعه فور تجاوزها غير عابئ بمخاطر وقوع حادث قد يودي بحياته.

في طريقي إلى المشفى، اتصلت براوية، شعرت أن قلبها يحمل شيئا ما تخبئه. عرفت من ليلى أنها تعرّفت على زين في المشفى. لم تعاتبني، لكنني أشعر بالكلمات معلّقة في فضاء صمتها:

- راوية، ليطمئن قلبك، لا تقلقي من شيء.

- ليرضى الله عنا يا يونس ويرفع البلاء، كل شيء بعد ذلك مقدور عليه.

- ونعم بالله، انتبهي لنفسك، لا تخرجي من البيت كثيرًا، وإن استطعتِ ألا تخرجي مطلقًا سيكون أفضل.

في المساء، عدت إلى الڤيلا، وبعد الانتهاء من الطقوس التي تفرضها رانيا على الجميع عند العودة من الخارج، مررت بغرفة مايا. كانت مشغولة بمتابعة محاضرة جامعية. سألتها عن حالها، وتحدّثنا عن الدراسة عبر الإنترنت. قالت إنها تجربة جديدة لا تستطيع الحكم على مدى فعاليتها الآن، لكنها مثيرة للاهتمام، وغيّرت وجهة نظرها في كثير من الأشياء.

كان العشاء اليوم شهيًّا؛ أكلات من المطبخ السوري أعدتها شمس، تلك الفتاة الشفّافة التي تشبه الأطفال في نقاء قلبها، فازت بمحبة الجميع، حتى رانيا بدأت تحبها وتعاملها بلطف. بعد تناول العشاء، استأذنتهم لأرتاح قليلًا بعد يوم شاق.

بينما كنت أستحم، شعرت بالغثيان، لم أستطع الاحتفاظ بأي طعام في معدتي. يبدو أنها شاخت وما عادت تتحمّل تأخير العَشَاء. شعرت بعد ذلك

بارتفاع طفيف في درجة الحرارة. بحثت عن الترمومتر، فوجدتها 38.5 وبدأت في السّعال المتواصل.

- ألم أنصحك يا يونس؟ ألم أنبّهك؟ اتّهمتني بالوسوسة.

أُصِبتُ بالفيروس، فغلّقت أبواب عيادتي، وفضّلت الحجر المنزلي على دخول المشفى. أن تترك رانيا للڤيلا وتذهب إلى بيت أهلها بعد إصابتي بالفيروس، هذا ما توقعته بل كنت واثقًا من حدوثه، لكنها لم تفعل، وفاجأتني بمخالفتها تعليماتي ودخولها الغرفة التي عزلتُ نفسي فيها. تأتيني بالطعام، وتصرّ على إعطائي الدواء بنفسها.

صرخت فيها طالبًا منها الخروج، فقالت إنها ستدخل سواء رضيت أم لا.

- لن يمنعني من الدخول عندك أحد يا يونس، حتى وإن كان أنت.

لم أفهم إصرارها. هل هو العند؟ وهل هذا وقت مناسب للمعاندة؟ لست أدري، والنار التي كانت تنهش في لحمي وعظمي لم تتح لي رفاهية التفكير في شيء. أشعر وكأن جسدي ينصهر، فقدت حاسة الشم تمامًا، سعال جاف وضِيق في التنفس، وكأنّ قاطرة ضخمة تجثُم على صدري. لا أستطع القيام بالأشياء البسيطة، حتى الحديث يغلبني أحيانًا.

عبر الواتساب، راسلتني راوية:

لِمَ العِند يا يونس؟ لماذا ترفض دخول المستشفى؟

لن أجد فيها شيئًا أكثر من الموجود هنا يا راوية. ✓ ✓

انتبهي لنفسك، والزمي البيت. ✓ ✓

بالكاد أرسلت الرسالة، ثم أغلقتُ الهاتف وطرحته بعيدًا، فمجرد النظر فيه يصيبني بالدوار، وكأن ذبذباته ترجّني رجًّا.

زجاجة الماء لا تفارق يدي. أبلل ريقي بين الفينة والأخرى. شعرت بشدة جفاف الحلق، وفقدت الرغبة في الطعام تمامًا. أصبحت لا أستسيغه، تلحّ عليّ رانيا أن آكل لقيمات حتى أتمكّن من تناول الأدوية. الصداع يزلزل رأسي، وهج شديد يخرج مع الزفير فيزداد وجهي اتّقادًا، وغشاوة تحجب النور عن عينيّ.

- لن أقول لأجل خاطري، بل لأجل مايا التي يتقطع قلبها بالخارج، تناول طعامك.

أن يحاط الإنسان باهتمام أحدهم، ويقرأ في عينيه اللهفة والخوف عليه، هو شعور فريد يجعل الإنسان يقاوم أشد الآلام، فكيف إذا كان هذا الـ (أحدهم) هو شريك حياتك؟ عشرون عاما هي عمر علاقتي برانيا. لحظات الصفاء بيننا كانت معدودة. بعد إنجاب مهاب وانغماسنا في هموم الحياة ومسؤولياتها، اشتعلت نيران الاختلافات والخلافات بيننا. لكننا استمررنا معًا من أجل الأولاد، هذا ما كنت أعتقده، لكن رانيا اعترفت لي بغير ذلك.

- لم يقيدني إلى جانبك ابن أو عُرف، بل قلبي هو الذي أسرني.

قالتها والوجه تكسوه مسحة خجل كمراهقة تُفضي بمكنون قلبها لابن الجيران.

«يااااه! أبعد كل هذه السنوات يا رانيا؟!»

هل يمكن للفيروس الذي فرق الأحباب أن يجمع بيني وبين زوجتي؟ تُرى، هل يمهلني القدر حتى أستنطق قلبها وألمس حقيقة شعورها؟

-7-

من رحم الشدائد تولد أقوى العلاقات، وفي ذات الرحم تموت الهشة الكاذبة. فهي تَمِيز الخبيث من الطيب، وتكشف عن معادن الناس على حقيقتها. تعرّي القلوب، فترى الحبيب جليًّا كما ترى المنافق والخؤون.

ومع انتشار الوباء وتفاقمه، استبد الذعر بالناس. كثيرون ممّن كانوا بالأمس يتظاهرون اللامبالاة غير مقدّرين خطورة الوضع، أصبحوا اليوم أكثر التزامًا بالإجراءات الوقائية: كمامات، معقّمات، وأقنعة واقية.

ألحّ آدم على أمه:

- أمي، الأمر ليس مُزحة، الزمي البيت هذه الفترة.

أصيب يونس، ثم والدة ميرنا وابن خالتها، شاب لم يكمل الثلاثين، لم يعانِ يومًا من مرض مزمن أو عارض، يمارس الرياضة بانتظام ولا يدخن. بعد أسبوع واحد من دخوله المستشفى، فاضت روحه إلى بارئها. لم يتمكن أهله من توديعه، كحال جميع موتى كورونا.

الموت خارج المستشفى لم يكن أقل مأساوية، إذ رفض بعض المغسلين تغسيل موتى الفيروس. مما دفع عددا من المبادرات إلى الظهور لتوعية الناس بكيفية تغسيل موتاهم، وانضم إلى هذه المبادرات شبان متطوعين من مختلف أنحاء البلاد.

الأحزان لا تأتي فرادى؛ كثيرا ما تستدعي بعضها بعضًا. بعد عشرة أيام من وفاة قريبها، رحلت والدة ميرنا. تجددت الأحزان وتفاقم الهلع. عضَّ القلق قلب ميرنا؛ والدها وزوجها، كلاهما يواجه الموت كل يوم. أصبحت تبالغ في اتباع تعليمات وزارة الصحة، حتى تلك التي تُبَثُّ عبر وسائل التواصل الاجتماعي من الأطباء أو غيرهم. فقد تحوّل أكثر روّاد تلك الوسائل إلى خبراء طبيين، بعضهم عن علم، وبعضهم عن جهل.

حين رأى آدم زوجته تستخدم الكحول عدة مرات أثناء الحديث، صاح:

- ميرنا، لا تبالغي! ليس لهذه الدرجة، الهوس باستخدام المطهرات يؤدي إلى كوارث. اليوم، جاءت إلى المستشفى امرأة أربعينية، ماتت بعد ساعات من وصولها. بلغ بها هوس التعقيم لدرجة أنها تخلط أنواع المطهرات وتستخدمها دفعة واحدة!

قالت راوية وهي تهدهد حفيدها:

- خيرُ الأمورِ الوسط دائمًا. وربنا هو الحافظ أولًا وأخيرًا. الدكتور يونس أصيب رغم حذره وحرص رانيا.

وهو يحتسي قهوته، علّق آدم:

- للأسف، لا وجود للوسطية. الناس بين متهاون يتعامل مع الأمر بلا حذر، أو مبالغ إلى حد الذعر. قلة فقط تتعامل بعقلانية دون تهويل أو تهوين.

أضافت ليلى:

- الإجراءات التي اتخذتها الحكومة قد تسهم في إنقاذ الموقف: تعليق الدراسة، فرض حظر التجوال، وقف حركة الطيران، غلق المساجد، ومنع التجمعات في المقاهي.

ابتسمت راوية ابتسامة متعبة، وقالت:

- الهدف من هذه الإجراءات هو تحقيق التباعد الاجتماعي قدر الإمكان، لكن هذا صعب مع شعب مثل شعبنا.

.....

لم تعد ليلى تلتقي بزين حتى في المرات القليلة التي تذهب فيها إلى الجامعة. توقفت عن الرد على مكالماته ورسائله، ويوم التقيا في حفل زفاف مهاب وشمس، تجاهلته تمامًا. حين أماطت أمها اللثام عن أسرار الماضي، انفجرت بالبكاء، تبكي أباها وأخاها وكأنها يموتان أمامها الآن. كانت قد سمعت من آدم بعض التفاصيل، لكن حديث أمها، بكل ما حمله من تفاصيل دقيقة، ترك أثرا مختلفا في أعماقها.

لم تخبر زين بما عرفته. كانت مقتنعة أنّهُ لا علاقة له بالماضي، فكلاهما لم يشهد تلك الأحداث، ولا يتحمل مسؤوليتها. لكنها عجزت عن مواجهته. اختارت الانزواء بعيدًا ريثما تهدأ من آثار الفوضى التي أحدثتها معرفتها للحقيقة.

«وكأن الجهل مريح في أحايين كثيرة.. ليتني لم أسعَ لمعرفة أيّ شيء مما حدث.»

في رسالة صوتية أرسلتها سالي عبر واتساب:

«ليلى، لماذا لا تردّين على اتصالات زين؟ اتصل بي اليوم وكان صوته قَلِقًا جدًا. ماذا تخفين عني؟ انطقي!»

وفي مكالمة طويلة، حاولت سالي استنطاق دواخل صديقتها، فحكت ليلى كل ما عرفته.

- نعم. لا علاقة له، لكن شعرت برغبة في الابتعاد.

- هل هذا خوف؟

- خوف..؟ من ماذا؟

- من شعور داخلك لا تريدين له أن يتطور. ليلى، كوني صريحة مع نفسك على الأقل!

وفي المساء، وجدت نفسها تكتب له رسالة. حكت له ما دار بينها وبين أمها، والماضي الذي عرفته، فجاءها ردّه سريعًا:

«وهل هذا ما هداكِ إليه عقلك يا باشمهندسة؟

أن تقاطعيني؟ أشكرك.»

كتب تلك الكلمات واختفى. كتبت إليه معتذرة، تؤكد أنها لا تحمّله ذنب الماضي، لكنها أرادت الابتعاد حتى تهدأ. إلا أن حسابه بقي مغلقًا لأسبوع كامل، ورسائلها ظلت معلّقة دون قراءة.

أكل الندم قلبها، عاودها شعور التعلق الذي يبدو أنه اتخذ منحى آخر، لكنها تعاند وتأبي الاعتراف به. حاولت نسيان الأمر، لكنها كلما تصنّعت التجاهل، وجدت قلبها يغرق في التفكير أكثر. اتصلت به فتجاهل اتصالها، غضبت وأوجعها التجاهل، الذي كانت هي أول من سلك الطريق إليه.

.....

في المستشفيات كان أفراد الجيش الأبيض يؤدون واجبهم وسط ظروف قاسية. أصيب كثير منهم بالعدوى، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. نهشَ القلق قلب راوية التي لا تفكر إلا في سلامة ابنها. دفعتها مخاوفها إلى مطالبته بأخذ إجازة والجلوس في البيت.

- معقول يا ماما، هذا ظنك بابنك؟

- سامحني يا حبيبي، قلبي لا يفكر إلا في سلامتك.

- الوضع يزداد سوءًا كل يوم. الأيام المقبلة ربما نضطر للمبيت في المستشفى.

ثم قال وهو يستعد للخروج:

- اطمئني يا ست الحبايب، فاللّهُ خيرٌ حافظًا..

- وهو أرحم الراحمين.

.....

هلّت بشائر الصّيف تحمل في طيَّاتها نُذُرًا تُنبئ باستفحال الڤيروس وضراوته. امتلأت مستشفيات العزل حتى فاض الكيل وتكدّس الناس خارج أبوابها.

في صباح ذلك اليوم، كان آدم يقوم بواجبه عندما دخلت العناية مريضة سبعينية في حاجة عاجلة لجهاز التنفس الصناعي. تصادف وجود إحدى زميلاته الطبيبات، وكانت حُبلى في شهرها الخامس. قرر آدم تقديم الخدمة الطبية بدلًا عنها، ليخرج بعدها مصابًا بالفيروس.

انهارت ميرنا. لم تمضِ أيام على رحيل أمها وابن خالتها، وها هو زوجها الآن يصارع الفيروس. أما راوية، فلم يتحمل قلبها المريض خبر إصابة آدم، ولازمت الفراش.

- ميرنا، بالله عليكِ تماسكي. يكفينا انهيار أمي. عمر يحتاج عنايتك.

علم زين بإصابة آدم، فذهب إلى المشفى ليجد ليلى مع كثيرين جاءوا للاطمئنان على ذويهم. خفق قلبها لحظة رؤيته، فتماسكت وهي تجيب عن أسئلته. وعندما سألها عن حال والدتها، حبست دموعها. قالت والحزن يغلّف هواء الزفير:

- قلبها لم يتحمل. تلازم الفراش.

طلب منها العودة إلى البيت، ووعدها أن يأتي كل يوم للسؤال عن آدم ومتابعة وضعه. وعندما جادلته، قال بنفاد صبر:

- أرجوكِ، استمعي للكلام ولو لمرة واحدة دون جدال. هيا، سأوصلك الآن إلى البيت.

.....

في قنا، كان الوباء ينتشر كالدخان في حجرة مغلقة. مستشفى قفط التعليمي خُصّص لعزل حالات كورونا، بينما عملت مستشفيات الحميات والصدر وقنا العام على الفرز والعزل.

كان صالح يرفض ارتداء الكمامة رغم نصائح ابنته. قال وهو يحمل عصاه متجهًا إلى الخارج:

- كله كلام تلفزيونات يا بنتي. يخوِّفون الناس وخلاص.

- الله يرضى عنك يا أبي، الحالات تزداد كل يوم.

- كل ما في الأمر دور برد، لكنه شديد حبتين.

لم يكن هذا رأي صالح وحدَه، بل كان رأي كثيرين في القرية. فالبعض يرى أن الأمر مؤامرة من الدول العظمى، بينما يعتبره آخرون نتيجة غير متوقعة لإحدى التجارب التي تقوم بها تلك الدول في معاملها ومختبراتها العلمية!

أبدى أهل القريةِ تذمّرهم من الأوضاع التي فرضها انتشار المرض. اعتاد الناس هنا الاجتماع في أفراحهم وأتراحهم، لكن سرادقات العزاء اختفت، وأصبحت الأفراح التي كانت تمتد مراسمها حتى الواحدة صباحًا في الشوارع وأمام البيوت تقام على استحياء، لتنتهي مع أذان العشاء الذي يُرفع من مسجد بلا مصلين.

عاد كثير من الشباب العاملين في قطاع السياحة إلى قريتهم بعد تأثر هذا القطاع بانتشار جائحة كورونا، إذ فرضت العديد من الدول الحجر الصحي ومنعت مواطنيها من السفر إلى الخارج.

.....

في بيت العمري، عندما مرض سعد بأعراض شديدة: سعال مع ارتفاع في درجة الحرارة، صعوبة في التنفس، وألم شديد في الصدر. لم يمض سوى يومين حتى ساءت حالته ودخل العناية المركزة.

كان سعد، الذي تجاوز الستين بخمس شتاءات حزينة، وتجاوزت زوجته الأربعين بسنوات ست، راضيًا بقضاء الله بحرمانه من نعمة الولد. منذ شهر، أصيبت آمنة بحالة إعياء شديدة، فأخذها إلى الطبيب، وبعد فحصها لم يصدق سعد أذنيه عندما سمع الطبيب يقول:

- المدام حامل في الشهر الثالث!

من شدة ذهوله قال بصوت يشبه صوت الأطفال في أول البكاء:

- تأكد يا دكتور وحياة أبوك. اكشف تاني وتالت.

هزت المفاجأة كيانه، بكى كل من رأى آثار الفرحة على وجهه وفي أفعاله. ذبح عجلين من مزرعته ووزّعهما على بيوت الفقراء بنفسه شكرًا لله على رحمة شملته بعد أن فقد كل أمل في إدراكها.

اليوم وهو يصارع الفيروس، يدعو الله أن يمد في عمره فقط ليحظى برؤية الولد الذي عاش يطلبه.

يونس

بانتهاء شهر يوليو غدًا، يكون قد مرّ على إصابتي بالفيروس شهرٌ كاملٌ. تجربة قاسية، قضيت أيام وليالٍ بين الحياة والموت، دون دواء يخفف الألم، والمسكنات لم تكن تجدي. رانيا حريصة على تقديم الطعام الصحي والمشروبات الساخنة بجانبي دائمًا. لم أتخيل أبدًا أن إصابتي بكورونا ستكون سببًا في تغيّر علاقتي بزوجتي تغيرًا جذريًا. أتعجب حقًا، لماذا لا نعرف حقيقة دواخلنا إلا بعد قطع شوط طويل، تضيع في جولاته أجمل سنوات العمر بين نفورٍ وخلافات لا تنتهي؟ لماذا لا نعترف بمكنون قلوبنا لمن نحب إلا عندما نصبح قاب قوسين أو أدنى من فقدهم؟

يتحسّن وضعي الآن، أشعر بالحرارة تنسلخ عن جسدي تدريجيًّا، ولكن قبل استعادتي كامل صحتي، حدث ما لم أحسب له حسابًا: أصيبت رانيا بالفيروس. هي لا تخرج من البيت، ولا تخالط أحدًا، قضت شهرًا كاملًا لا همَّ لها سوى رعايتي، انتقلت إليها العدوى، ومن أعاجيب القدر حدوث ذلك وأنا على أعتاب التعافي.

- بابا، الأعراض عند ماما شديدة جدًا، تصرخ من الألم، وتتنفس بصعوبة، لا تقوى على المشي إلى باب الحمام.

قالت مايا وهي تجهَشُ بالبكاء، بينما تحاول شمس تهدئتها، وانتفض مهاب من مكانه كالملسوع:

- لازم المستشفى، لا مفر.

كنت ذاهلًا عاجزًا عن النطق والحركة كما المشلول. استندت إلى عجزي ودخلت الحجرة حيث ترقد زوجتي، كانت تشير إليّ بيدها كي أخرج، وتُحَرّك شفتيها بكلام لم أسمعه. أمسكتُ يدها، شعرتُ بالحرارة تسري في جسدها. قبّلتها، فلسعت حرارتها شفتيَّ، احتضنتها وبكيت في حضنها كطفل، بحرقة بكيت وأنا الذي لا تدمع عَيناي بسهولة.

- رانيا، سامحيني ..

بصوت واهن بالكاد سمعته، قالت:

- وأنت أيضًا سامحني، سامحني يا يونس.

- لا تُرهقي نفسك بالكلام يا حبيبتي.

أمطرتِ الدموع من عينيها الغائمتين، وابتسامة شاحبة ارتسمت على وجهها الذابل:

- حبيبتي!

مسحتُ دموعها بكفي:

- ستشفين بإذن الله، ستخرجين من المشفى، وترين حبّي.

- هذا يكفيني. يونس، أولادنا أمانة في رقبتك. حاول تعوّض مايا عن كل ما فات.

- سنعوضها معًا. لا بد أن تقاومي، لأجلها ولأجل مُهاب.. ولأجلي.

أغمضت عينيها وألقت برأسها على صدري:

- قلبي، قلبي وكأنّه يخرج من صدري، والغرفة تدور، تدور ..

دخلت رانيا المستشفى، فحصوا معدل ضربات القلب وكان 156 نبضة في الدقيقة! تدخلوا على الفور وأعطوها الأدوية اللازمة.

في آخر مسحة أجريتُها أمس، أشارت نتيجتها إلى شفائي التام من الفيروس، مع ذلك نصحني الطبيب بالاستمرار في العزل واتباع التعليمات لأسبوع آخر. لكنني لم أستطع صبرًا، ذهبت لأستمع مباشرة من الطبيب المتابع لحالة رانيا.

مضى أسبوعان على دخولها المشفى، ومنذ يومين دخلت العناية المركزة. آمل أن تُشفى زوجتي التي عرفتها مؤخرًا. هل تكون كورونا سببًا في التفريق بيننا بعد أن كانت سببًا في جمعنا؟

«الڤيلا بدون رانيا لا حياة فيها.»

تعجبت من نفسي حين أمسكت بلساني يردد هذه الجملة. هل مكتوب على الإنسان أن يظل جاهلًا بقيمة ما يملك حتى يُبتلى بفقده؟!

تمامًا كما حدث مع أبي! هل أشبهت أبي من حيث لا أدري؟

ظلّت عيناه غافلة عن أمي حتى رقدتها الأخيرة، عندها فقط انقشعت الغمامة عن عينيه واستطاع رؤيتها.

أصيبت أمي بسرطان البنكرياس، وكان في مراحله الأخيرة. هذا لنوع من السرطانات لا تظهر أعراضه إلا في مراحله المتقدمة، وقد اعتادت أمي كتمان شكواها. لم ينتبه أحد للزهرة التي تذبل حتى جفّت وانقسم عودها.

خمسون يومًا قضتها أمي في صراع مع السرطان. كان أبي خلالها في خدمتها هنا في القاهرة. رفض الإقامة في الڤيلا، وأصرّ على أن يظل في شقة لنا بالشيخ زايد، ليكون قريبًا من مستشفى دار الفؤاد حيث كانت أمي تتلقى العلاج. الجراحة خيار مستحيل لحالتها، فقد انتشر السرطان في أجزاء أخرى من جسدها، وكل ما يمكن للطب أن يقدمه لأمي هو تخفيف الألم من خلال العلاج الكيميائي. كان أبي يحملها بنفسه في كل مرة، يأبى أن يحملها غيره. لم يسمح لأحد بالدخول عليها سوى خالاتي. فجأة، رأيت أبًا مختلفًا عن ذلك الذي عرفته، كأن شخصًا آخر كان يقبع داخله وخرج الآن.

في يوم وفاتها بكى كطفل، انهار كجبلٍ بُسَّ فجأة. حمله عمي أمين وهو يصرخ فيه متعجبًا من رد فعلٍ لم يكن ليتوقعه من أخيه الذي يشبهه في شدته ورباطة جأشه.

وها أنا لم أشعر بقيمة زوجتي إلا الآن! هل لأنني رأيت خوفها وحرصها عليّ؟ هل ما أشعر به الآن ليس سوى شعور بالذنب؟

الحجرة التي كانت تنزعج من ظلامها ليلًا فأنيرها مُكْرهًا، بعد أن أصدِّع رأسها بإحصاء فوائد إطفاء الأنوار ليلًا، ها هي الحجرة مضاءة يا رانيا، لكن أين أنتِ؟ هل لو أطفأت الأنوار الآن سأسمعكِ تتأففين تحت الغطاء؟

والسرير، السرير الذي كانت تقاسمني إياه، الآن فارغ منها. كم أزعجني نومها بجانبي وأنا يقظان قلق يأكل الأرق أعصابي.

مقطوعات موزارت التي تزعجها، لن أسمعها هذه الليلة. سأستعير سدادة السليكون خاصتها التي كانت تضعها في أذنيها هربًا من موسيقاي المزعجة، لعلها تحجب عني ذلك الصوت في رأسي.

راحت عيناي تفتش عنها، لم أجدها، بحثت كثيرًا دون جدوى، ولم أيأس. قلبت الغرفة بحثًا عن سدادة الأذن!

انتهى بي البحث إلى فتح خزانة ملابسها، فاح عطرها المنثور في أركانها. مددت يدي إلى رفٍّ بأعلى الخزانة، فتناثرت الأوراق فوق رأسي.

وجدت دفتر يوميات، وبداخله بعض الأوراق. لم أصدق عيني عندما رأيت بعض رسائلنا أيام الخطوبة، وبعض البطاقات التي أهديتها إياها في مناسبات مختلفة.

تمتد يدي إلى دفتر يومياتها بحذر كَلَغَمٍ أخشى انفجاره. استجمعت شتاتي، وقرأتُ ما كتبت زوجتي، فجرى الدمع حارًّا سخيًّا.

آه يا رانيا! هل كنتُ ظالمًا إلى هذا الحد؟

ضاقت عليّ نفسي، أكاد أختنق، كل شيء في غرفة النوم يذكّرني بحقيقتي. تركتها هاربًا من نسختي الظالمة، وذهبت إلى الحجرة التي شهدت معرفتي الحقيقية بزوجتي، حجرة العزل، حيث رآها قلبي للمرة الأولى. هنا أسمعها ترجوني أن آكل، أشعر بيدها تتحسَّس حرارتي وصوتي الواهن ينهاها عن ذلك فتستخدم الترمومتر. هنا أسمع ضحكتها التي حاولت التخفيف بها عني، وأرى دمعتها التي سقطت خوفًا عليّ. هنا كانت نظراتنا مختلفة، كما لو كنا مراهِقَينِ.

طرقات على الباب خفق معها قلبي، تذكّرتُ طرقاتها على الباب في كل مرة دخلت عليّ أثناء مرضي. كانت مايا القادمة هذه المرة، ارتمت في حضني، لا تكفّ عن البكاء مذ دخلت أمها المستشفى.

«وأنا والله يا ابنتي، أنا أيضًا أريد أن أبكي في حضنك، ليتني أستطيع».

.....

هل هكذا هي الدنيا؟ لحظات الفرح فيها معدودة، والحزن طويل عمره؟! لماذا نفقد الناس بعد التعلّق بهم؟ هل بعد أن عرفتُ رانيا وعرفتني، أفقدها هكذا بسهولة؟!

- البقاء لله يا دكتور، المدام تعيش أنت.

صرخت مايا وسقطت على الأرض، تلقّفتها شمس باكية. زاغت عينا ابني واصفرّ وجهه، وخرجت أنا هائمًا على وجهي لا ألوي على شيء.

ماتت رانيا التي عرفتها منذ أيام، من يعيدها إليّ الآن؟ من يخبرها أن ثلاثين يومًا عشناها سويًّا، كانت بثلاثين سنة مضت من حياتنا معًا؟ من يخبرها أنّ حزني عليها لن تستطيع الأيام مداواته أو محو أثره ولو عشت مئة عام بعدها؟

من؟

راوية

فيروس لا يُرى بالعين المجردة، قلب العالم رأسًا على عَقِب. تراجع أمام طوفانه اقتصاد كبريات الدول، ومات ملايين البشر. لا قاعدة ثابتة أو منطق طبي يقود المشهد. يصاب شاب في كامل لياقته، لا يعاني من أمراض مزمنة، فيموت بعد إصابته بأيام، بينما قد ينجو مُسن أو صاحب مرض مزمن، ويُشفى بفضل الله ولطفه. لا قاعدة، حتى الأمصال لم تعد صكًّا يضمن النجاة. الشيء الأكثر إزعاجًا في هذا الفيروس هو أنه يقودنا نحو المجهول، ويبدو العالم تحت سطوته كغريق يتمسك بجذع متهالك في بحر عاصف.

ماتت والدة ميرنا، وقبلها قريبها الشاب. مات أخي سعد قبل أن تكتحل عيناه بالابن الذي عاش حياته يتمنّاه. وماتت رانيا.

رأيت يونس بالأمس في مكالمة فيديو، أجرتها ليلى للاطمئنان عليه بعد أن أخبرتها مايا أنه يغلق على نفسه، ولا يخرج من غرفته. كان كمن بلغ مئة عام يقتات الحزن والألم، بُحَّ صوته، اصفرّ وجهه، وغارت عيناه كأنهما شهدتا حياة لا تنتهي من الشقاء. الدموع محبوسة في عينيه، تحاول الهرب، لكنه لا يطلقها. انفجرت بالبكاء عندما رأيته، ولكنه راح يهدئني، ويطمئنني على آدم، وأنا التي اتصلت لأواسيه.

يرقد ابني في المشفى في انتظار مصير مجهول. قلبي المريض يكاد يتميّز من الحزن عليه. وفي الوقت ذاته أصيبت ابنة سمية أيضًا بالفيروس، رغم ذلك لم تنشغل عني، اتصلت تطمئن عليّ وتواسيني، ليتني أستطيع أن أكون معها الآن، ابنتها لم تتجاوز العشرين، كانت تشكو دائما من آلام في الصدر والجهاز التنفسي. هل يستطيع جسدها الهزيل مقاومة فيروس متوحش هزم الأجساد الأكثر قوة؟

«ليس لها من دون الله كاشفة، يا رب، ليس لها من دونك كاشفة».

عجز الطب عن إيجاد حل، عجز المال عن حماية صاحبه، وعجزت كل المحاولات البشريّة أمام قوة هذا الفيروس. انتهت حلول الأرض، ولا ملجأ لنا إلا الله، ما من باب يجب علينا طرقه سوى بابه سبحانه!

ليلة حارة، غائمة، من ليالي أغسطس. السماء تمتد كستار أبيض، تناثرت فيه نجمتان كطائرين أفلتتهما الغيوم من أسرها. قمتُ أتوكَّأ على صبري، أسبغت وضوئي، صليت ما شاء الله لي أن أصلي، ثم أمسكت بمصحفي وجلست على الكرسي في شرفة حجرتي. كلما أمسكت المصحف ورتلت آي القرآن، تذكرت خالي الشيخ سليمان ودعوت له.

اللّٰهُمَّ امنحنا من الأمان ما يكفي للتغلب على مخاوفنا، ومُدنا بالطمأنينة كي نتجاوز الأيام الثقيلة، وألهمنا الصبر على ما لا نطيق، اللّٰهُمَّ أبدِل قلقنا سكينة، وهمّنا انشراحًا، وسخطنا رضًا، وخوفنا أمنًا، وعجزنا قدرةً، وضيقنا فرجًا، وعسرنا يسرًا.

ما أهون هذه الدنيا، وما أضعف الإنسان!

ابني في المشفى، أعجز عن رؤيته، لا أستطيع أن أملأ عيني منه. تذهب ليلى كل يوم إلى هناك وتطمئنني عليه، ولكن ماذا لو..

ماذا لو حدث له شيء؟ ماذا لو رحلتُ في أي لحظة؟ وما أقربها! هل سأترك ابنتي وحيدة في هذا العالم؟!

قطعتِ جذور أبنائك واخترتِ العيش وحدك هنا يا راوية، هل ظننتِ أنكِ ستعيشين لهم العمر كله؟ ما أقرب الموت، وإن كان قبل اليوم قريبًا، فهو الآن أقرب من كل وقت مضى. مَنْ لابنتك إذا رحلتِ فجأة وتركتِها؟ هل ستظل وحيدة، مقطوعة دون أهل أو عِزوة؟

ءالآن يا راوية؟!

ءالآن تفكرين في الأهل والعِزوة؟!

.....

«عمر، انتبه، أمجد.. أمجد يا عمر، لا تأخذه معك هذه المرا! لأجل خاطري، الأفعى.. الأفعى يا عمر، البئر يا عمر، البئر..»

- ماما، لماذا تنامين هنا؟ قومي معي؟

- ليلى، ليلى يا عمر...

- ماما، أنا هنا بجانبك اهدئي ..

نمت على الكرسي، محتضنة مصحفي، زارني الكابوس مجددا بعد غياب أيام لم أذق فيها طعم النوم، استغلّ غفوتي فحضر. أطرافي ترتجف، دوار ثقيل يجذبني للأرض، كدت أسقط، أمسكت ليلى بيدي، وأوصلتني إلى السرير.

- نامي يا ماما، لأجل خاطري، ارحمي نفسك، قلة النوم ستتعبك.

- طيب، نامي بجواري يا ليلى، أم أنكِ كبرتِ على النوم في حضن ماما؟

نامت إلى جانبي، تمسّد شعري كأم، غمرتني بحنانها حتى هدأت. كأنها تعيد إليّ شعورا فقدته. حنونة كأبيها رغم عنادها، أشتمُّ فيها رائحته. في غمرة هدوئي، شعرت بها تنسلُّ من السرير، وعلى الكرسيّ الهزاز الموجود في ركن بالحجرة جلست.

في حالة بين النوم والإدراك، رأيت الأفعى التي تراودني في الكابوس دائمًا، هي بعينها، لكنها تقترب من ابنتي هذه المرة. تلتفّ حول كرسيّها، حاولت أن أصرخ، بحثتُ عن لساني فلم أجده، لا صوت يخرج من فمي رغم كل محاولاتي ..

-8-

تغسيل الراحلين في ظل ما تثيره جائحة كورونا من رعب وهلع أصبح معضلة كبيرة، لكن سالي، الفتاة التي لم تتعدَّ الواحد والعشرين ربيعًا، لم تمنعها المخاوف من تنفيذ فكرتها.

كانت البداية يوم دخلت والدتها المشفى بعد إصابتها بالفيروس، رأت سالي بأم عينها شابًّا يرفض استلام جثمان والده خوفًا من الإصابة.

خطرت لها فكرة بدأت في تنفيذها بعد إعلانها عنها عبر حسابها على فيسبوك (مباردة تغسيل الموتى)، أطلقتها سالي، وانضم إليها بداية عدد قليل. ومع انتشار الوعي بأهداف المبادرة التي استطاعت سالي توضيحها وإقناع الشباب بها، أخذ العدد في الازدياد. لم يمنعهم خطر الإصابة بالفيروس من الاستمرار حتى تمكنوا من تشكيل فِرق عملٍ صغيرة من الشباب والشابات في مختلف محافظات مصر. كانت الفرق تراعي كافة الإجراءات الاحترازية للحماية من كورونا: كمامات، ملابس واقية، دروع الوجه الطبية، بذلات عازلة، وغيرها. اتبعوا توجيهات وزارة الصحة التي نصت على بعض الإجراءات الضرورية لتغسيل موتى كورونا، كارتداء عباءة سميكة تغطي الذراعين والصدر وتمتد إلى أسفل الركبة، مع استعمال كمامات وقفازات تغطي اليدين حتى الرسغ، وغطاء رأس، وحذاء بلاستيكي

طويل الرقبة، مع الالتزام بارتداء وخلع الملابس الواقية بطريقة صحيحة، وغسل الأيدي بالماء والصابون جيدًا بعد خلعها.

انضمت مايا إلى المبادرة التي أطلقتها سالي، ولم تتردد يوم قراءتها (البوست) الذي نشرته الأخيرة على حسابها الفيسبوكي. أخبرت أباها، تردد خوفًا عليها، لكنه أمام إصرارها، لم يجد بُدّا من الموافقة.

قالت شمس:

- عمو، ما رأيك في عمل فيديوهات توعية عبر صفحتك على فيسبوك؟

قال يونس وهو يخلع نظارته:

- لم أفكر في هذا من قبل يا شمس.

- كتير يتصدرون المشهد اليوم دون وعي، حضرتك دكتور، تعطي الناس معلومات موثوقة، ستكون فكرة نافعة جدًا عمو.

قال مهاب مؤيدًا فكرة زوجته:

- وتنقل من خلالها تجربتك مع الفيروس يا بابا، فكرة رائعة يا شمس.

.....

عقارب الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا. تنوس الغرفة بضوء خافت، ليلى تجلس على كرسي، يراود النوم عينيها فتزجره. تقوم كل حين تتفقد أمها عن كثب، تراقب حركة أنفاسها فتطمئن. تنامَى إلى سمعها صوت ابن أخيها الذي دخل في نوبة بكاء لا تتوقف، وبينما تحاول أمه إسكاته، انتبهت ليلى على صوت أمها تهذي، اقتربت منها:

- الأفعى، الأفعى يا ابنتي..

- ماما..!

تستمر راوية في هذيانها، وعرق جبينها ينفجر كالينبوع. تمسك ليلى بيدها تهزّها برفق، وهي تنادي بصوت يقاوم البكاء:

- ماما، اهدئي ..

فتحت راوية عينيها الذابلتين، نظرت إلى ابنتها:

- اطمئني حبيبتي، أنا بخير.

جلست تتحسّس ذراعها الأيسر وقد آلمها النوم عليه، ثم اعتدلت تاركة سريرها. حاولت ليلى الإمساك بها لمساعدتها على النهوض، لكنها قبل الوصول إلى باب الحجرة، سقطت مغشيًّا عليها.

- ميرنا الحقيني ..

صرخت ليلي مستغيثة بزوجة أخيها.

اتصلت ميرنا بأبيها، جرس طويل ولا مجيب!

- حتى لو ردّ، عمو إما في البيت أو في المستشفى وفي الحالتين محتاج ساعة على الأقل حتى يصل إلينا.

جربت ليلى الاتصال بأحد أصدقاء آدم، وهو طبيب يقطن بالقرب منهم، لكن رقمه خارج الخدمة. ترددت في الاتصال بزين، لكنها تذكّرت أنه الأقرب إليهم، فهو يقيم في شقته بالشيخ زايد. حسمت أمرها واتصلت به، خلال بضع دقائق كان زين أمام العمارة وفي يده طبيب.

قال الطبيب إن ضغطها قد انخفض قليلًا، وإن حالتها ستكون بخير، لكن يلزمها الراحة والتغذية الجيدة.

كانت ليلى تريد أن تقول إن أمها، منذ إصابة آدم تقريبا لا تنام، ولا تأكل إلا ما يمكنها من الوقوف على قدميها، لكنها لم تقل شيئا.

بعد أن قام بتوصيل الطبيب إلى بيته، عاد زين ثانية وظل معهم حتى بدت أول خيوط الفجر، اللحظة التي استيقظت فيها زوجة عمه واستعادت وعيها.

روت ليلى لأمها ما حدث، لكنها تلعثمت حين سألتها عن الشخص الذي أتى لهم بطبيب في هذا الوقت المتأخر.

- بدون توتر يا ماما، لأجل خاطري، لم نعرف كيف نتصرف، فـ... اتصلت بزين!

- .....

- اتصلنا بعمو فوزي، كان مشغولًا، وتعرفين المسافة بيننا وبينه، ثم إني..

- خلاص حبيبتي، اهدئي.

- يعني لست غاضبة؟ حتى لوعرفتِ أنه موجود بالخارج؟!

- من؟

- زين!

- نادِه ..

فتحت ليلى فمها دهشة من طلب أمّها، التي أكملت:

- قومي قولي له زوجة عمك تريد أن تشكرك بنفسها.

دُهِش زين بدوره، ثم ارتبك قليلًا وهو يتّجه نحو غرفة زوجة عمه.

.....

بعد عدة أيام من العلاج في المشفى، تلقى فيها العديد من الأدوية كل ساعة، بدأ آدم يتحسن. اليوم، يستعد للذهاب إلى منزله بعد ظهور نتائج المسحة الثانية، التي أثبتت سلبية إصابته بالفيروس وتماثله للشفاء. ومع ذلك، أخبره صديقه الطبيب أن عليه الانتظار بضعة أيام قبل أن يتمكن من معانقة ابنه.

ذهبت ميرنا إلى المشفى لتسعد برؤية زوجها بعد فراق أذاب قلبها اشتياقًا. في السيارة، مال ناحيتها قليلًا، فتلاقت عينيه بعينيها الناعستين والتي ساهمت الكمامة في إبراز جمالهما، همس في أذنها:

- كنت مستعدًا للتّخلي عن معركتي مع المرض، قلت لنفسي، لن أقاتل بعد الآن، سأستلقي على السرير وأرحل بهدوء، لكنني تذكرت أشياء كان عليّ المقاومة من أجلها، تذكرتُ عمر، وتذكرتك.

ابتسمت ولمعت عيناها، يبدو أنها لم تستعِدْ زوجها فقط، بل استعادت حبيبها الذي ظنت أنها فقدته إلى الأبد.

.....

في المساء، كانت ليلى تشاهد على الآيباد الفيديو الذي أرسله زين عبر الواتساب، دخلت حجرتها لتستمع إليه. كان المقطع أغنية (كوني معي) لرامي محمد بعد دقائق من رفعها على قناته.

كوني معي .. إن العواصفَ لا تكفُّ عن التماسِ مسامعي.

كوني معي .. اليومُ أوله كآخره ملِلتُ مواقعي.

كوني معي .. فتضاربُ الأخبارِ رعبٌ جاثمٌ..

أترينَ ننجو أم هو الأملُ الجسور؟

راوية

«هل هذا ابن صالح وحُسْن؟» تساءلت وهو جالس قبالتي.

شاب مثقف، خفيف الظل، لعينيه البنيتين بريق ينبض بالذكاء، وما جعل قلبي يخفِق بقوّة طوال جلوسه قبالتي هو الشبه العجيب بينه وبين عمر، سبحان الخالق الذي وضع فيه ملامح عمه إلى هذا الحد! ليس فيه من أمه إلا دقّة أنفه، أما صالح فلم يكن له من ملامحه نصيب.

- اعذرنا يا ابني، أزعجتْك ليلى في وقت متأخر؟

قال وهو يبتسم موجها نظره إلى ليلى:

- ولا يهمك، أنا تحت أمر حضرتك، وأمر ليلى.

مرت نصف ساعة هي عمر جِلْسَتي معه، خلالها وضح لي جليًّا خلالها قوة شخصيته واعتداده بنفسه، وحرصه على نيل إعجابي وتقديري.

وفي المساء، جاءت ليلى لتذكّرني بتناول الدواء.

- ليلى، هل تصارحينني؟

نظرت إليَّ مستفهمة، فأكملتُ:

- ما حقيقة شعورك تجاه زين؟

لم تكن تتوقع السؤال، فتلعثمت وامتلأت وجنتاها بحمرة خفيفة، لكنها حاولت إخفاء ذلك خلف ضحكة ساخرة:

- لا تذهبين بعقلك بعيدًا، ما في شيء مما في رأسك.
- وما أدراكِ بما في رأسي؟!
- يعني، واضح من سؤالك يا ست ماما ..
- أفهم من كلامك أنه ما في شيء؟
- لا، أقصد، يعني، ما أدراني؟!
- بنت! كيف ما أدراكِ، من يدري إذن؟
- ماما.. في الحقيقة، هو لم يصرّح لي بشيء، وأنا لا أعرف حقيقة مشاعري! أيقنتُ أنها تحبّه، هذه اللعثمة وتلك اللمعة في عينيها أعرفهما جيدًا، لا يظهران إلا عندما يكون في القلب شعور بدأ للتو يزهر. لكن، هل يبادلها هذا الشعور؟ قالت إنه لم يصرِّح بشيء، إذن هناك ما يستحق التصريح، فهي ليست ساذجة أو مراهقة. إذن، هناك شيء، ربما هي الآن تنتظر تصريحه..

ماذا ستفعلين حينها يا راوية؟!

كانت فرحتي بعودة ابني إلى بيته سالمًا تفوق الدنيا وما فيها، عاد إلى حضني، وعاد إلى بيته وابنه. اللّٰهُمَّ شكرًا عدد ما في السماوات والأرض، اللّٰهُمَّ فرحًا وطمأنينة لكل أم يهاجم القلق قلبها فيجرّعه القهر على فلذة كبدها.

اتصلتُ بسمية للاطمئنان على ابنتها منة، ما أشد إحساس العجز عندما نعجز عن مساندة أحبائنا في لحظات ضعفهم! فرحتْ صديقتي بسلامة ولدي، رغم حزنها على ابنتها التي دخلت العناية المركزة بعد تطور حالتها.

الصوت الذي جاءني لا يمتّ إلى سمية بصِلة، ليس هذا صوت صديقتي الذي أعرفه. حاولت مواساتها، ولكن كم هي حقيرة كلمات التصبُّر حين تكون مصيبتك في فلذة كبدك! لم أملك الصبر أكثر، نزلت من البيت غير آبهة بتحذيرات المحذّرين، وذهبت إلى سمية، فالهاتف وسيلة غير صالحة لهدهدة أحزان الأحبة.

هل أخاف الموت؟ وما قيمة الحياة إن كسبناها وخسرنا من يهبون لحياتنا معناها؟

راوية

بعد مرور عام..

انحسر خطر الفيروس، وشرعت الحياة تستعيد أنفاسها، عائدة إلى سيرتها الأولى. فتح العالم نوافذه، وتنفّست مطارات البلاد مع شروق شمس التعافي.

عبر نافذة القطار، تتماهى وجوه الناس في عيني، تختلط كأنما هي شظايا من ذكريات الماضي، تمتزج بلحظات عابرة، بعضها دموع تُراق هنا، وبعضها ابتسامات توزع هناك. في المحطة، تتشابك مشاهد اللقاء والوداع في صورة حيّة تلخّص حقيقة الحياة في حكمة عميقة: (مسافر كان أو مقيم، الكل مفارق.)

وكأن الفراق سيف منغرس في قلوب حُرمت رفاهية االشكوى. لكل واحد من هؤلاء قصة بشخوصها وتفاصيلها، حياة مليئة بالهموم والأحلام.

جاءت سمية لتودّعني ومعها وليد، حزنها على ابنتها لا يزال ساكنًا عينيها. عام مضى على وفاتها، وهل الأعوام تُبرئ جراح الفقد مهما توالت؟!

عبر نافذة القطار، أحاول الهرب بعينيّ بعيدًا عن ضجيج المكان وضجيج آخر أقوى يملأ رأسي. أتأمل الشمس الغائبة، تتلاشى في الأفق،

تسحب معها الحرارة والأمل، تترك الدنيا لظلام لا يرحم، وتخلّف القلوب وراءها مكسورة باردة.

- كم تستغرق المسافة من القاهرة إلى قنا؟

سألت ليلى، فأجابها آدم وهو يعبث بهاتفه:

- في الغالب، من سبع إلى ثماني ساعات، لكن لو استمر القطار بهذه السرعة، أعدك أن يظل يومًا كاملًا.

ضحكت ليلى، بينما سؤال يعلو ضجيجه برأسي ولا أجيد الهرب منه:

«هل حقًا أذهب إلى هناك؟!»

نظرتُ إلى ليلى التي وضعت رأسها على كتفي:

«كل هذا لأجلك، ولأجل قلبك يا نبض قلبي.»

أخيرًا، تحرّك القطار وبدأ ضجيج آخر، مختلف. يرافق السفر في هذا الصيف، مشقة بالكاد يتحملها قلبي المتعب. انتبهت ليلى على رنين هاتفي. ناولتني الحقيبة. كان يونس هو المتصل. تذكرت أني لم أطمئنه كما طلب.

- نحن بخير يا دكتور، نعم، تحرّك القطار منذ قليل.

- تصلون بالسلامة، سألحق بكم بعد يومين.

عاودني السؤال يطنّ في أذني:

«هل حقًا تعودين اليوم إلى قنا يا راوية؟!»

نعم، يبدو أن ذلك يحدث حقًا. أعود اليوم إلى قريتي التي تركتها منذ أكثر من عشرين عامًا. آدم طفل في التاسعة، وليلى جنين بالكاد يتحرك بين

أحشائي. تركت قريتي متدثِّرة بظلام ليلها الكئيب، الذي يشبه قلوب الظالمين، كلاهما أسود، وكلاهما مخيف.

تُرى، كيف هي بعد عشرين عامًا؟ كيف أهلها، شوارعها، بيوتها؟ كيف أصبح كل من فيها وما فيها؟!

أشعر بسعادة عمر اليوم لأجل ليلى. واثقة من رضاه عن القرار الذي أخذت. في قنا كان موت قلبي، وفيها اليوم حياة ابنتي وقلبها.

تتداعى الصور بذاكرتي وتزورني الذكرى، تهزّني هزًّا، أتمايل معها كسنابل قمحنا حين يداعبها الهواء. رغم ميل آدم إلى السفر بسيارته، أصررت على السفر بالقطار، للقطار ذكريات لا تزال تنبض في روحي. به كنت أسافر من قنا إلى أسيوط حيث الجامعة، وفيه قابلت عمر لأوَّل مرة منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

يمتد الطريق بين المدينتين (قنا/ أسيوط) على طول نهر النيل كلوحة فنية تسرّ العيون وتضيء الوجوه الحزينة. جمال الخضرة يملأ النفس راحة وحياة، البيوت تعانقها أحلام الفجر، والجبل يبدو كبساط مسحور يفترش حدود الزمن، في ذرَّاته تكمن أسرار الحكايات.

كانت الرحلة بذلك القطار البطيء تستغرق أربع ساعات، قد تمتد لتصل إلى خمسة أو أكثر. ذات مرة بعد وصولنا إلى أسيوط، ركبنا معًا المواصلة نفسها من المحطة إلى الجامعة. كانت الأجرة جنيهًا ونصف، أعطيت السائق

جنيهين، وكان عمر أيضًا قد أعطاه مثلي، فناوله السائق جنيهًا وطلب منا اقتسامه:

- هل معكِ خمسون قرشًا؟

- لا.

- إذن تفضلي.

- لي نصفه فقط.

بحث مع بقية الركاب، ليجد من (يفكّ) له الجنيه فلم يجد، نظر إليَّ:

- ما العمل؟

- بسيطة، ليست شيئًا على أي حال.

- لكنه حقكِ، نحن نتقابل دائمًا، احتفظي به معكِ.

حدجته بنظرة غاضبة، ثم قلت:

- بل احتفظ به معك.

هز كتفيه:

- كما تشائين.

عدت إلى متابعة الطريق عبر النافذة، العادة التي تلازمني في كل مواصلة أستقلّها. بادرني متسائلًا:

- في أي كلية تدرسين؟

صمتُّ قليلًا قبل أن أجيبه:

- تجارة، الفرقة الثانية.

مبتسمًا قال:

- أنا معك في الجامعة نفسها، رابعة آداب.

كان هذا أول حوار دار بيننا، بعد لقاءات القطار الصامتة. عرف اسمي وبنت من أكون، وعرفت عنه كذلك.

- الشيخ سليمان الشافعي خالك؟ عليه رحمة الله! هو شيخي بالمناسبة، حفظت القرآن على يده لمّا كنت في الابتدائية.

مزّقتْ خيوط الذكرياتِ يدُ ليلى وهي تربِّت على كفي برفق. نظرتُ إلى صغيرتي، فإذا بها تغرقني في حضن ملؤه الشكر والامتنان والكثير من الحب.

-9-

أمسكتْ يده، ضغطتْ عليها، وهي تقول:

- يعني أقول مبروك؟

أجاب زين، محاولا تحاشي النظر إلى عينيها:

- ليلى جميلة ومثقفة، وابنة عمي، يعني زوجة ممتازة وتستحق.

قالت حُسْن ضاغطة على كلمة (تستحق) مع غمزة لافتة:

- طبعًا يا حبيب أمك، والفدادين كمان تستحق.

كان زين جالسًا على الدِّكة بجوار تكعيبة العنب في حديقة البيت، يسترجع حديثه مع أمه حين رنّ هاتفه. تتصل به ليلى كما طلب منها، أخبرته أنهم الآن في القطار الذي تحرّك منذ دقائق. بعد انتهاء المكالمة، ابتسم متخيّلا ملامحها وهي تغلق الخط، مؤكدا أنها قامت من مكانها لتخفي ارتباكها. وجهها الأبيض كالثلج عندما تخجل تعتريه حمرة آسرة، وفوق عينيها العسليتين ينير القمر دون نية في الأفول.

يوم صارحها بمشاعره، أخبرته بموقف أمها وجرحها النازف الذي لم تستطع السنوات تضميده:

«وما ذنبنا يا ليلى في ماضٍ ولّى، وأحداث مرت عليها عشرات السنين؟ زوجة عمي ستنسى، وتلتئم جراحها. صدقيني، عندما ترى سعادتك، ستلتئم. سأفعل المستحيل من أجل إقناعها، دعي ذلك لي.»

وافقت راوية بعد اشتراطها على زين السكن بابنتها في القاهرة، رضي بشرطها. واليوم، هي في طريقها مع ابنها وابنتها إلى قنا، لحضور حفل زواج أخته.

فرحة زين بموافقة زوجة عمه شابها الكدر بسبب أفعال أخيه أمين وأفكار أمه. قبل أسبوع، قُبِض على أمين متلبسًا بحيازة مخدر الشابو، لكنه أفلت من قبضة الشرطة وهرب موليًا وجهه جهة الجبل، حيث يختبئ بعض الفارّين من يد القانون. كان زين يشعر بالحزن على أخيه وغيره من شباب القرية، الذين تورَّطوا في مستنقع مظلم بسبب هذا المخدر القاتل.

قبل شهر، استيقظ الناس على خبر موت شابين قرب الكبري القديم، الذي أصبح مسرحًا لممارساتهم المسمومة. وقبل ذلك بأيام، ذبح شابٌّ ثلاثة من أفراد أسرته بعد أن حاولوا حبسه في البيت، وكانت آخر مأساة شهدتها القرية يوم أشعل شاب النار في نفسه وسط الشارع على مرأى ومسمع من الجميع.

حزنت حُسْن على ابنها أمين ليومين فقط، كانت منشغلة بأمر أكثر أهمية بالنسبة لها:

- زواجك من بنت راوية مصلحة، والمصلحة حكمت. نتخلص من أخيها، ونأخذ الجمل بما حمل.

- نفكر في القتل؟ هل نحن عصابة يا أمي؟ ثم إني.. ربما في البداية كنت أفكر هكذا، لكن.. لكن الآن لا.

قالت بسخرية:

- فهّمني زين يا زين، أصل أمك فهمها بطيء يا ولدي.

اعترف لها بأنه تعلّق بليلى، وأن الأمر تجاوز الطمع في الميراث. احمرّت عيناها غضبًا:

- نعم يا حيلة أمك! والله وقدرت بنت راوية (تبلِفك) أكيد طالعة لأمها، قدرت توقّع عمّك زمان .

قال محاولًا تهدئتها:

- انسي الماضي يا أمي بالله عليكِ، وفكري في القادم.

ضحكت بشكل هستيري، ثم قالت باستنكار:

- أنسى الماضي!

- انسِي أي شيء كان بينك وبين زوجة عمي زمان. هي نسيت ووافقت على زواجي من ابنتها، وراجعة البلد بعد كل هذه السنوات، تمد لك يدها بالخير وتحضر فرح ابنتك. ألا يكفيكِ؟

نظرت إليه مدهوشة والغيظ يأكل أعصابها، فقال مستعطفًا:
- أرجوكِ يا أمي، اسمعي مني. صَفِّي قلبك من ناحيتها، رحّبي بهم، وأحسني معاملتهم لأجلي.
هل يملك الإنسان تبديل القلوب؟ هل بمقدوره إكسابها مشاعر لا تتلاءم وطبيعتها؟
طلب زين من أمه حسن استقبال زوجة عمه وأبنائها، كان عليه ألا يطمع في أكثر من ذلك. حينما تخلى عن خطته للإيقاع بابنة عمه في شِباك حبّه متخذًا من وصية جدّه ذريعة، لم يكن مخيّرًا، لقد انقلب السحر على الساحر ووقع في حب ليلى. يوم أقنعته حُسْن بضرورة تنفيذ وصية جده، لم يكن همّها وصية أو جد، كانت تسعى لضمان نصيب ليلى من ميراث أبيها، وقتها كانت حُسْن تضع ميراث عمر كله نصب عينيها، فلماذا تقبل بجزء منه طالما بإمكانها الاستيلاء عليه كاملًا غير منقوص؟!

.....

ماتت زوجة عبد الناصر العمري بعد إنجابها سبع بنات. كانت الطبيبة قد حذّرتها، بعد أن وضعت ابنتها السادسة، من تَكرار الحمل بسبب مرض قلبها المتفاقم، لكنها حملت في جنين سابع سعيا وراء الولد لإرضاء زوجها. وبعد تمام الحمل، وضعتها أنثى، فضاعف الحزن من آلام قلبها المريض. غَشِيتْها الحمى، ثم لم تلبث أن ماتت، فأرضعت آمنة المولودة لتصبح أمًّا لولد وبنت في هذه السن.

استرجع عبد الناصر في أسى، وقال إنه راضٍ بقضاء الله. رضي بعد أن دفن زوجته، التي رحلت تاركة وراءها سبع زهرات يانعات، دون أن تعطيه الولد الذي سيقطع به لسان من يناديه بأبي البنات.

قال لأخيه عاصم عندما سمع بعودة راوية:

- معقول! راوية راجعة هي وأولادها؟!

- وأخيرًا يا ناصر!

- الله يرحمك يا سعد، الله يرحمك يا أخوي.

حُسْـــن

أخيرًا ستتقابل الوجوه يا بنت العمري!

أخبرني ولدي بموافقة راوية على زواجه من ابنتها. الفرحة لا تسعني، أرغب في هذا الزواج وأرجوه اليوم قبل الغد. فعلها ابن بطني وأقنع بنت العمري كما وعدني.

«راوية تحمل أمراض الدنيا، رِجْلها والقبر، ابنتها ستكون زوجتك وتحت طوعك، وها هو ابنها جاءنا حتى عتبة الباب. لماذا لا نقطع عِرقًا ونسيّح دمًا ونرتاح من وجع الرأس مرة واحدة؟»

لكن اليوم يعصيني الولد، ويريد الخروج عن طوعي. لم يعجبه كلامي، بل جعل الدنيا تسودّ في عيني بحديثه عن حبه لابنة راوية. هل ربّيته وكبّرته لتأتي هذه البنت وتختطفه مني؟ هل مكتوب عليّ أن تسلبني راوية كل شيء؟! كلامه أعادني إلى تلك اللحظة المشؤومة التي امتزجت فيها الفرحة بخيبة الأمل. يوم جاءتني أمي متهللة الوجه تخبرني عن زيارة الحاجة زهوة لنا ذات عصرية:

«جاءت تخطبكِ لابنها..»

معقول؟ هل يتحقق اليوم ما قضيتُ الليالي أحلمُ به؟

رقص قلبي قبل أن تئِد أمي فرحته بكلماتها:

«الابن الكبير لأمين الزهيري مرة واحدة! والله وباضت لك في القفص يا حُسْن!»

الابن الكبير؟!

لكنني لم أحلم يومًا بصالح! اختار قلبي أخاه منذ زمن. كان عمر يروح ويجيء أمامي مرتديًا القميص والبنطال، وفي يده حقيبة أو كتاب، لا أملك تحويل عين قلبي عنه. اليوم تطرق أمه بابي طالبة القرب، لكن ليس لعمر كما حلُمت، بل لأخيه!

هل أرفض؟

ستتهمني أمي بالجنون. الجميع سيحكم عليّ بقلّة العقل إن رفضت عريسًا كهذا. هل أقول لها:

«صالح لا يملأ عيني، أريد أخاه»؟

ربما ساعتها تجرجرني من شعري وتتّهمني بأنني أشبهتُ عماتي كما تقول دائمًا كلما أفعل ما يغضبها، أو ربما تخبر أبي فيدفنني حيّة، أو يُزوّجني لأول طارق يدقّ الباب.

إن رفضتُ، هل من ضامن يضمن لي دخول الحاجة زهوة بيتنا مرة أخري لتخطبني لعمر؟

حسبتها بالعقل، فكان ناتج حِسبتي قبولي بالزواج من صالح. كيف يمكنني رفض ابن أمين الزهيري؟ أأرفض العِز والغنى، وأبطر نعمة تحلم بها جميع بنات النجع؟

وهكذا ارتبط مصيري بصالح، بينما ظل قلبي معلّقًا بأخيه.

ويوم علمت برغبته في خطبة راوية العمري، اشتعل قلبي غيرة حقدًا. ما الذي تملكه تلك الفتاة حتى يراها ولا يراني؟ هل أجمل مني؟ مستحيل! فالناس كلهم يقرُّون أنني اسم على مسمى.

أم لأنها دخلت الجامعة بينما لا أحمل أنا من الشهادات سوى شهادة الدبلوم؟

ذهبتُ مع حماتي لرؤيتها قبل الخِطبة، كما أمر أمين الزهيري. وبعد عودتنا، حاولت أن أخلق من كل ميزة فيها عيبًا.

«طويلة مثل النخلة، أطول من عمر نفسه يا عمتي، وبشرتها؟ لا هي بيضاء ولا سوداء، لونها غريب!»

حتى (الحسنة) في وجهها جعلتها سيّئة:

«دي (السّنْطَة) في وجهها بحجم حبّة الفول!»

لكن أحدًا لم يلتفت لملاحظاتي على العروس. كان عمر قد اتخذ قراره وفرضه على الجميع.

النيران التي اشتعلت في قلبي ألجأتني للخروج قاصدة وهيبة السلمانية، عجوز اشتهرت بتدبير (الأعمال) والنّفث في العُقد. كِلْتُ لها المال، أبلغتها بمرادي، فقالت بنبرة الواثق:

«اطمئني، لن يدخل بها. لن يهنأ لهما عيش. سيطلقها بعد أيام!»

ورغم كل شيء، أغاظتني قدرتهما على كتمان أمر كهذا عن أهل البيت، حتى أمه لم تلاحظ شيئًا. لم أهدأ حتى لفتُّ نظرها:

«ألا تلاحظين يا عمّتي؟ العريس مزاجه متعكر!»

سافر بها ليلًا دون أن يعبأ بأحد. أفلح معالج (عُقْر) في إبطال سحر العجوز اللعينة التي وعدتني بالتفريق بينهما. سببتُها في نفسي ولعنتُها ألف مرة، لولا خشيتي من أفعالها الشيطانية لطربقتُ الخرابة التي تقطنها فوق رأسها، وأخذتُ ما أعطيتها من حبابي عينيها. هل دفعت ما دفعت لتحرمهما الراحة أيامًا معدودات يعودان بعدها زوجين يمارسان حياتهما الطبيعية وينجبان أيضًا؟!

ولمّا لاحت في الأفق مشكلة الأرض مع أهلها، وجدت فرصتي في إشعال فتيل الخلاف. من يدري؟ ربما هو الخلاف الذي يُخرجها من البيت ويريحني من رؤية وجهها كل صباح.

ساعة رأيت ابن عمها من شرفة شقتي يعمل في الأرض التي عليها الخلاف، لم أكذّب خبرًا. أرسلت من يخبر أحد أبناء العمدة، شاب متهور، يكفي لاستفزازه كلمة واحدة، وربما نصفها!

لم ينتهِ الأمر بخروجها فحسب، بل انتهى بمقتل عمر الذي حزنت عليه حزنًا دفنتُ مراسمه بقلبي. وظلّت راوية في نظري الغريم الذي لا تجوز مهادنته مهما مرت السنون. ما في القلب يبقى في القلب. اليوم سَنَحت الفرصة كي أتخلص من ابنها، لكن غضب ابني ورفضه القاطع جعلني

أتروى وأنتظر ما تجود به الأيام. لم أكن أعلم أن ما طلبته سيأتيني على طبق من ذهب دون سعي مني.

«لا أتخيل حياتي بدون ليلى يا أمي.»

قالها ابن بطني، فندبت حظي في ولدي الوحيد الذي علّقتُ عليه الآمال حتى اليوم. شعرت أنني أفقد ما عشتُ لأجله.

تحملتُ حياتي التعيسة مع أبيه، بل استمعت لنصيحة أمي بالسعي نحو تمكين أقدامي في بيت الزهايرة، ولن يكون ذلك إلا بالولد. سيكون الحفيد الأول وأنال به حظوة لدى أبيه ومكانة لدى الجد والجدة. أي تمكين أقوى من هذا؟

قرّرت فكان (عليٌّ) سِكينا ثَلِمًا غُرست في قلب رغبتي، فالولد لا يشبه أولاد الناس..

«الولد تأخر في الكلام..»

«ابن فلانة أصغر منه يرطن بمئة لسان..»

«ابن علّانة نديده يعرف الكُفْت.»

كنت أسمع كلام النسوة فأحترق غضبًا. أتمنّى لو أستطيع البصق في وجوههن، أقطع ألسنتهن التي لا ترحم، وأقص أنوفهن التي تتدخل في أمور الخلق.

«العِرْق دسّاس.. كيف فاتني هذا الأمر؟»

عندما سمعتُ الحاجة زهوة تقولها، امتلأ قلبي كرهًا على كره. هي تقصد بكلامها أحد أخوالي، كان تمتامًا ثقيل اللسان، يغلبه الكلام، لا ينطق إلا أشباه حروف إذا تحدث.

عندما نبتت البذرة الثانية بين أحشائي، كانت راوية قد وضعت ابنها أمجد منذ ثلاثة أشهر. شرعت نار الغيرة تشوي أطرافي. حين رأيت لهفة الكبار واحتفاءهم بالمولود الجديد، فرحتُ بالحركة التي دبّت في رحمي. سألت الله أن يعوّضني عن خيبة أملي في ابني البِكْرِ. لكن الحمل لم يتم. تكرّر الحمل، وتكرر موت الجنين في بطني حتى جاء الحمل الذي كُتب له البقاء.

«أمين، نسمّيه أمين.. على اسمك يا عمي.»

بعد أن كبر أمين وخرج عن طوعي وطوع أبيه، وسار في طريق مظلم، ألقيت الذنب على عاتق أبيه:

«أنت السبب، لولا قسوتك ما كان ولدي طَفَش، وترك البيت!»

عندما أنجبتُ زين، آخر العنقود، عندها فقط فرح قلبي وشيَّدتُ أحلامي. لمّا بدأ يكبر أحسستُ أنه يأخذ ملامح عمه عمر. كتمتُ إحساسي حتى أصبح حقيقة واضحة أقرّها الجميع.

«الولد فيه كثير من المرحوم عمه.»

كان في الإعدادية يوم أتاني فَرِحًا يقرأ عليّ قصيدة كتبها وقد كافأه معلمه عليها وأخبره أنه سيكون شاعرًا كبيرًا عندما يكبر. أمسكته من يده

ودخلت به حجرة مغلقة لا يدخلها أحد. فتح فمه دهشة من الكتب المتكوّمة فوق بعضها.

«مكتبة المرحوم عمك، كان يحب القراءة ودائمًا يشتري الكتب.»

«هل ستكون مِلكي ذات يوم؟»

«طبعًا، أنت الغالي وآخر العنقود.»

ها هو الغالي يفكّ القيد، يخرج عن طوعي ويخالف المدار الذي رسمته بدقة حتى اليوم!

يوم إصابة ابن راوية بعيار طائش من الأعيرة التي أطلقها الشباب في الفرح، صرخ زين والغضب يأكل جسده:

«لو عرفت أن لكِ يدًا فيما حدث، أنا من سيبلغ عنكِ.»

معقول؟ هل هذا ابني الذي يحلو لي مناداته بابن حُسْن؟ تغيّر الولد كثيرًا، لكن.. هل حقا غيَّره الحب؟

وهل يغيّر الحبُّ طباع الناس إلى هذا الحد يا حُسْن؟

طبعا يغيّر.

ألم يغيّر الحب قلب عمر فجعله يفعل ما لم يفعله غيره من رجال العائلة؟ فسمح لراوية باستكمال دراستها والسفر كل أسبوع إلى أسيوط، ثم سمح لها بالخروج إلى العمل، بل وافقها على الخروج دون نقاب وهو ما لم تفعله واحدة من نساء العائلة وقتها.

ألم يغيّر الحب راوية المتمسكنة التي كانت تقول عنها الحاجة زهوة: «تاكل عشاها البسّة» وجعلها تتحمّل كل ما فعلتُه معها، مما لا تتحمله امرأة؟! ثم تسافر وحدها إلى القاهرة، تتحدى الجميع وتبني لها ولأولادها حياة كاملة هناك.

بل وغيّرهما الحب معًا، فاستطاعا التغلّب على السحر.

«وأنتِ يا حُسْن، لماذا لم يغيّركِ الحب؟!» سألتُ نفسي.

«لأنني لم أذق إلا ناره وعذابه. كان حبًّا ناقصًا من طرفٍ واحد، وربما رغبتي في عمر لم تكن حبًا من الأساس.»

تعجبت وأنا أجيب نفسي.

منذ أسبوع، نقلوا راوية وابنها إلى مشفى كبير في القاهرة، تركت راوية القرية بعد أيام من دخولها، سافر الجميع خلفها إلاي.

عاد ابني من القاهرة أمس رفقة والده. قال إن صحة أبيه لا تسمح بتركه يعود وحده، لكنني أعرف أنه عاد ليتابع نتائج التحقيق في قضية إصابة ابن راوية.

- هل صدّقت الآن براءة أمك؟
- .....
- ساكت يعني، أكلتَ لسانك؟
- صدّقت يا أمي، صدقت.
- لا يبدو عليك.

قال بنفاد صبر:

- ما المطلوب يا أمي؟!

- مطلوب تصدّق أن أمك لا علاقة لها بما حصل.

- .....

- هل ستترك ليلى وحدها، وتجلس هنا؟

- مسافر الفجر.

- سأسافر معك.

اتسعت حدقتا عينيه وهو ينظر إليّ مُتعجِبًا، فقلت:

- ألا أطمئن على سِلْفَتي وحماة ابني؟!

ازداد عجبه، قام وهو يضرب كفًّا بكف.

راوية

عند البئر التي جفّت ماؤها وأضحت بُعْبُعًا يُخوّفون به الصّغار، لا تزال الأفعى قابعة تحدّق بعينيها الحمراء. كانت تلتفّ حول أبنائي الثلاثة هذه المرة.

شعرت بيد رقيقة تحتضِن كفّي، يدٌ أعرفها جيدًا ولا أخطئ ملمسها. سمعتُ تمتمات صاحبتها فصدق إحساسي.

«ماما، أفيقي، لأجل خاطري، وحشني حضنك، وحشني صوتك.»

اختلط صوتها بصوت خالي يرتل القرآن بصوته الحنون:

«قَالَ كذلكِ قالَ ربّكِ هُوَ عليَّ هيّن..»

بين الإغماء والإفاقة، لم أدر إلى أي العالمَينِ انتهيت. عالم الأحياء أم عالم الأموات؟ هل أجرب فتح عيني لأرى ما ينتظرني خلفهما؟ ثَقُلَت أجفاني، لم تطاوعني، حاولت مرارًا حتى فعلتها.

- ماما حبيبتي، دكتور.. يا دكتور..

صاحت ليلى وهي تجري خارج الحجرة.

على إثر صرختها، كان الجميع فوق رأسي؛ ميرنا، والدها، يونس، وزين. لم أصدق، حُسْن أيضًا هنا؟

- دكتور يونس، لا تؤاخذني، لكن هذا غير ممكن.

قالت الطبيبة الشابة وهي تشير بيدها إلى الموجودين في الحجرة.

- عذرًا دكتورة، تفضّلوا يا جماعة، لا يصح أن يدخل الجميع دفعة واحدة.

لم يكد يونس ينتهي من جملته حتى تناهى إلى أسماعنا صوت جلبة قادمة من الخارج، اقترب الصوت حتى اخترق الحجرة. كان إخوتي قد رفض الأمن دخولهم، لكنهم نجحوا في التسلل بطريقتهم.

خرج الجميع، وبقي ناصر وعاصم، وابنه معاذ.

- حمدًا لله على سلامتك يا عمتي.

عمتي! كم كانت الكلمة عذبة من فمه.

معاذ في عامه الثاني من كلية الطب، فيه الكثير من ملامح أبيه؛ استطالة وجهه، وأنفه الأشمّ كحدّ السيف، الشّامة في وجهه تبدو كنجمة نَسِيها الليل فظلّت مكانها لم تبرحه. صوته ينساب كنهر، لمستُ فيه نبرة خالي المميَّزة. أتمّ معاذ حفظ القرآن منذ عامين، أخبرني أبوه يومها:

«الولد طالع لعمّته، لكنّكِ أشطر، كنتِ أصغر منه يوم ختمتِ.»

لدى نزولنا في محطة القطار، كان عاصم في انتظارنا، وفي بيت أهلي، رحّبت بنا آمنة وهدى- زوجة عاصم- أبلغ ما يكون الترحيب.

«هل السنوات تُغيّر المرء إلى هذا الحد؟»

سألت نفسي بينما عيني تتفحّص آمنة، غزت التجاعيد وجهها المستدير كقرص الشمس، اختفت الحِدّة التي كانت تغلّف صوتها، رأيت الصدق في

حركاتها وسكناتها. لم يكن التغيّر إذن شكليًا فقط، وهي تحمل طفلها بدت لي كجدة تحمل حفيدها.

شجرة النبق.

لاحت لي فروعها من خلف حائط طيني يفصلها عن المكان الذي نجلس فيه، ساقتني قدماي إليها. رؤيتها كانت كافية لأن تردّ إليّ مذاق الماضي. أيام كنت أركضُ تحت فروعها رفقة زينب، تتناثر الثِّمار تحتها. انحنيت أمسك بإحداها، طازجة كانت، لكنّ الدود ينخر أعماقها. عندما كنّا صغارًا، لم يعرف الدود طريقًا إلى ثمارها، اهتمام جدتي حالَ دون ذلك. كانت تكلّف أخي بشراء عشبة من السوق لم أعد أذكر اسمها. تأخذ حفنة منها، تربطها في قطعة قماش صانعة صُرّة صغيرة، فتتسلّق زينب الفروع في لمح البصر وتعلّق الصُّرَّة في أحد الأغصان، وتكرر ذلك كل بضعة أشهر.

- تحبين النبق؟ ثمارها مُدَوّدة للأسف! غدًا نشتري لك من السوق.

قالت هدى بصوتها المبحوح، سُمرتها الصافية تشبه تربة أرضنا العفيَّة، طيّبة كعاصم. لم يكن الأمر اشتياقًا للنبق بقدر ما هو حنين للمكان وعبق ذكرياته.

- هنا عاشت أمك أحلى ذكريات الطفولة يا ليلى.

قلت لابنتي التي راحت تتأمل الشجرة العملاقة بفروعها المتشعبة وثمارها المنثورة في كل مكان.

ذهبت إلى بيت عمي، وحدها زوجة عمي كانت بالبيت الذي أضحى فارغًا إلا منها وزوجة ابنها الأصغر. تجاوزتْ السبعين بسنوات خمس، انحنى ظهرها بصورة مؤلمة، ثَقُل سمعها وانطفأ النور بعينيها. احتضنتني، وهي تقول:

«زينب، وينك يا بنتي، تركتِ أمّك بدري.»

انهمرت دموعي وأنا أقبّل رأسها، قال عاصم بصوت عالٍ مقربًا فمه من أذنها:

«راوية، راوية يا امرأة عمي.»

عاودت احتضاني، ثم قالت وهي تتحسّس وجهي بكفها المتعرّق:

« راوية وزينب واحد، طول عمرهم واحد.»

طلبتُ من عاصم أن يأخذني إلى الجبّانة لأزور قبور الأحبة، أخذني إلى هناك بعد صلاة العصر. فوجئت بازدحام شديد، أفواج من الناس جاءوا لزيارة موتاهم. تذكرت أن اليوم جمعة، وفيه اعتاد الناس زيارة القبور، يقرأون الفاتحة لموتاهم ويوزِّعون الصدقات على أرواحهم.

أيقظني من شرودي صوت معاذ يُعيد جملته، فأجبته:

- بخير يا قلب عمتو، كيف حالك أنت ؟ وأخبار دراستك؟

.....

جاءتني سمية، ارتميت في حضنها الآمن، فيه أسترد روحي الغائبة في سراديب الألم. كان معها وليد، رؤيتي لهما معًا تروي بذور الحنين في قلبي فتطرح أُنسًا وطمأنينة.

.....

سألت يونس:

- هل تابعت التحقيق؟

صمت قليلًا، ثم خلع نظارته، مسح عينيه، وقبل أن يتحدث رنّ هاتفه، كان المتصل ابنه مهاب، أعطاني يونس الهاتف، شمس ومايا أيضًا تحدثتا إليّ. بعد انتهاء المكالمة، أعدتُ السؤال، فأجاب:

- تابعته يا راوية، ما قيل في البداية هو الصحيح، مجرد عيار طائش من الأعيرة التي أطلقها الشباب في الفرح.

- قلبي يقول غير ذلك.

- وهل كل ما تخبرنا به القلوب صادق يا راوية؟!

أرجو أن يكون قلبي كاذبًا يا يونس، بل إني أتضرع إلى الله أن يخيب ظني، لأنه لو لم يخب هذه المرة سألعن نفسي ألف مرة.

.....

ميرنا زوجة ابني وحبيبته، وأم عمر قلب جدته. لا أستطيع رؤيتها إلا دعوة مستجابة كانت في جوف الليل، سألتها عن ليلى وقبل أن أتم السؤال، دخلت ليلى تحمل حفيدي. لم تكن وحدها، تبعها زين، ثم دخلت حُسْن. أحسست بشيء غامض في نظراتها، كأنما تريد أن تقول شيئا ولا تجرؤ على النطق به!

عندما دخلتُ بيت الزهايرة بعد كل تلك السنوات، رأيت كيف غيّرت حُسْن معالمه وِفق مِزاجها، رغم هذا، فإنّ للذكريات رائحة تفرض نفسها.

جرَّتني الذاكرة كعادتها فتُهت في دهاليزها. أما حُسْن، فرغم التغيير الذي طال شكلها، إلا أن نظرة اللؤم في عينيها لا تزال طازجة كأنّ السنوات لم تمر. سألت نفسي:

«هل ما كان في القلب لا يزال في القلب، أم طالته رياح التغيير التي طالت كل شيء؟»

الآن أرى عينيها تهربان من ملاقاة عيني، لا أدري هل كان ذلك حقيقة أم خيالًا؟! انسحب الأولاد واحدًا تلو الآخر لأجد نفسي معها وحدنا، وكأنّها ارتبكت، لا أدري، يبدو أنني لم أُفق بعد من غيبوبتي بالدرجة التي تمكِّنني من الحكم على انفعالات الناس.

- ما شاء الله على عروسة ابني، الله يحفظ ويخلي.

قالتها حُسْن بينما عيناها تشيّعان ليلى، هززت رأسي وشبح ابتسامة يصارع كي يرتسم على شفتيّ الباهتتين.

حُسْـــن

تتفحّصني عين راوية، كأنما تحاول استنطاق دواخلي. تُرى، هل تشك في علاقتي بما حدث لولدها؟ أم أن البطحة التي على رأسي هي مصدر هذا الشعور؟!

لم يكن ما فعلتُه معها في الماضي سهلًا حتى يُنسى. يقول ابني إنها نسيت، وإنها عادت لتفتح صفحة جديدة. هو لا يعرف شيئًا، هل النسيان سهل هكذا؟!

أردت أن أهدم حاجز الصمت الذي ارتفع حال وجودي معها وحدنا في غرفة المشفى:

- شدّي حيلك وقومي من رقدتك لنفرح بالأولاد يا راوية، اطمئني، سأضع ليلى في عيني.

قلت وأنا أشير بإصبعي نحو عيني. ابتسمت ابتسامة صفراء قبل أن ترد:

- سكنها هنا بالقرب مني سيطمئنني عليها.

نظرتُ إليها مستفهمة:

- يسكنون هنا! كيف يعني؟

ببساطة وهدوء قالت:

- هذا شرْطي الذي وافق عليه زين.

شرط!

لم يخبرني الولد بشروطٍ أمْلتها عليه بنت العمري. تشترط عليه السكن مع ابنتها هنا، ويوافق دون إخباري. أخفى عليّ الأمر لعلمه أني (سأطربِقها) فوق دماغه، ودماغ أبيه.

واجهته والغضب يزلزل دواخلي:

- تترك البلد وتقيم هنا؟ هل تترك أمك يا زين؟

وهو يتحاشى النظر في عيني:

- هذا الكلام سابق لأوانه.

صحتُ بنفاد صبر:

- هل تنوي الإقامة هنا، أم أنك تجاريها حتى توافق؟ أجبني!

رد متلعثما:

- الحياة هنا أفضل وأيسر يا أمي و.. تعلمين أن هذه رغبتي من البداية.

- رغبتك يا ابن بطني، أم رغبة بنت العمري؟

يسكن هنا ويتركني! يتركني الولد الذي عشت عمري أنتظر أن أثأر به لصبري. هل كنت أربّيه لراوية وابنتها؟

راوية!

مرة أخرى تظهر أمامي. قديمًا سلبت مني الرجل الذي أحببته، واليوم هي وابنتها تريدان أخذ الرجل الوحيد الذي أملك.

هل ينفلت اللجام من يدي؟ هل أقف مكتوفة اليدين عاجزة؟ كلا، لا أكون حُسْنًا إن لم ألفّ هذا اللجام حول رقبتك يا راوية. هذه الزيجة أصبحت وبالًا عليّ، لن تتم. نعم، أعدك يا زين أنها لن تتم.

اتصلت بأخي علام، من حسن الحظ أنه في القاهرة هذه الأيام، ومن حسن الحظ أيضًا أن ابني لم يكن في البيت لحظة وصول خاله. أصبح الولد يرتاب من كل تصرف أقوم به.

- هل جننتِ يا حُسْن؟ تقتلين زوجة ابنك!

- لا تقل زوجة ابنك، لن يتزوجها، ولا تناقشني. أنت لا تعلم شئيًا عن النار التي تأكل قلبي؟!

طلب مني الهدوء ومراجعة نفسي، لكن غضبي كان أقوى من أن يحتويه أحد.

- هو أنا عشماوي يا حُسْن! هذا قتل، قتل!

- اسمع آخر كلام عندي يا ابن أمي وأبي. ابني يضيع من بين يديّ، لن تساعدني دون مقابل. أما لو رفضت، ساعتها سأتصرف من رأسي بعيدًا عنك، وأنت تعرفني..!

أعلم أن أخي بإمكانه مساعدتي، تمامًا كما أعلم أن عمله في السياحة مجرد واجهة تخفي وراءها حقيقته. صالح، زوجي الأهطل، لم يكن موفّقا حين شبَّه ابنه بأخي. أخي الآن يملك الجاه والوجاهة. يلعب بالمال لعبًا، رغم أعماله المشبوهة. لكن يُقسم كل من يراه أنه أمام رجل بدأ من الصفر وبنى نفسه بنفسه. أما ابني الخائب كأبيه، فمطارد في الجبال هارب من مصيبة لا ندري إلى أين ستذهب به.

وعدني علام أن يفعل ما طلبت، لكن عليّ أن أصبر. ليكن، سأصبر.

ولنتقابل يا راوية!

-10-

في طريقها من المشفى بمدينة نصر إلى بيتها في السادس من أكتوبر، كان الهاتف بين بيد يدي ليلي تتحدث مع أمها، قالت الأخيرة:

- تعودين وحدك.. قلتِ إنّ زين سيمر عليكِ.

- السّيارة معي والوقت لا يزال باكرًا.

- على مهلك، واحدة واحدة، سمعتِ؟

لكن ما إن انطلقت ليلى بسيارتها حتى لاحظت سيارة تتبعها تقترب وتبتعد ببطء. تسلّل الخوف إلى قلبها كلِصٍّ، لكنها سرعان ما طردته متّهمة نفسها بتخيّل أشياء لا وجود لها، وبرّرت ذلك بالضغط النفسي الذي يلازمها منذ رحلة الصعيد وما حدث فيها.

السفر إلى الصعيد كان قرارها، رغبتها التي أقنعت الجميع بها. لكن بعد كل ما حدث، لم تستطع التخلصمن شعور الندم، وتمنّت لو لم تكن هذه الرحلة من الأساس. لكن لكل تجربة فوائدها، هكذا قالت لنفسها حين تذكّرت زين. الأحداث الأخيرة قوّت علاقتها به، كان إلى جانبها دائمًا، عرفت إلى أي مدى يمكنها الاعتماد عليه. جرَّبت معه شعور ابن العم، السند، والحبيب الذي لم يتوان لحظة في الوقوف إلى جانبها.

في مرآة سيارتها، تلاقت عيناها بعيني الرجل في السيارة التي تتبعها. فزع مفاجئ اجتاح قلبها. نظرت إلى الساعة، الحادية عشرة مساءً ليس وقتا

متأخّرًا على أيّ حال، حاولت تهدئة أعصابها بهذه الجملة، لكن الأدرينالين الذي ارتفع فجأة دفعها للإمساك بالهاتف والاتصال بزين.
جاءها صوته غاضبًا:
- أيّ سيارة، ولماذا عدتِ وحدكِ؟ ألم أقل لكِ إني قادم؟ أين أنت الآن؟
- بالكاد خرجتُ من مدينة نصر، على أول طريق السويس.

.....

في حجرة المشفى، كانت ميرنا تجلس متأمّلة زوجها المستلقي فوق سريره. بات خروجه من المشفى وشيكًا بعد تحسّن حالته. سعادتها بسلامته أَنْسَتها الألم الذي عاشته منذ اللحظة التي سمعت فيها خبر إصابته. عندما سافر آدم رفقة أمه وأخته إلى الصعيد، رفض اصطحاب زوجته وابنه في رحلة غير راض عنها تمام الرضا. قال إن أجواء الصعيد لن تناسب ابنه الذي يتحسس من أي تغيّر في الجو، وهي الحجة القوية التي أقنعت راوية.
استفاق آدم من نومه مع دخول الممرضة حاملة الطعام المسموح به. شكرتها ميرنا وتولّت هي أمر مساعدته. قال آدم بينما يقبّل يدها:
- بهذا الشكل سأعتاد، كيف سآكل وحدي بعد ذلك؟
قال الدكتور فوزي الذي دخل الحجرة لتوّه:
- الله، الله، راحت عليك يا دكتور فوزي!

ابتسامة خجلة نبتت على شفاه ميرنا. بينما قال والدها وهو ينظر إلى الأوراق بيده:

- تقاريرك عشرة على عشرة يا دكتور، استعد للعودة على رأس عملك بعد يومين.

قالت ميرنا:

- بابا، حرام عليك، أين فترة النقاهة؟!

ضحك ثلاثتهم، ثم قال دكتور فوزي:

- يتعافى أولا، ويفعل بعدها ما يحلو له.

.....

قبل اتصال ليلى، كان زين في طريقه إلى المشفى. لكنه غيّر وجهته فور اتصالها عائدًا إلى طريق السويس، كما قالت. كاد يصل إلى تقاطع القاهرة/إسكندرية الصحراوي، ولم يَجد بَعدُ أثرًا لسيارتها. لكنه لم يكد ينعطف يمينًا حتى رأى سيارة آدم التي تستقلّها ليلى. فطلبها على الهاتف، ثم توقفا على جانب الطريق.

فور نزولها من السيارة، اقتربت منه وقالت بصوت منخفض، يختلط فيه القلق والحيرة:

- لا أدرى إن كان خيالًا أم حقيقية، لكن .. السيارة كانت تتبعني! الرجل نظرته لم تكن عادية أبدًا، لكنه فجأة تخطّاني وانطلق.

قال بحدة وهو يقترب منها:

- كدت أفقد أعصابي يا ليلى، قلتُ لكِ إني آتٍ، لماذا لم تنتظري؟

سألَتْه مازحة لتخفف انفعاله:

- إلى هذه الدرجة تخاف عليّ؟

أمسك يدها، ناظرًا إليها بكل ما في قلبه من حب:

- وأكثر.

اكتست وجنتاها بحمرة رقيقة، وسحبت يدها من بين يديه. كان يريد أن يقول شيئا، لكنها انطلقت مسرعة إلى سيارتها، فلحق بها.

عندما وصلا إلى بيتها، دعته للدخول، لكنه اعتذر. قال إن الوقت متأخر وإن أمه في الشقة وحدها منذ الصباح. وهي تلوّح له مودّعة نظر إلى ساعته، وكانت ثلاث دقائق لا تزال تزحف في طريقها نحو الثانية عشرة.

قبل يومين، قرر مفاجأتها، توقّع أن أحدًا لن يتذكر عيد ميلادها في ظل هذه الظروف، وحده سيصنع بهجتها في بداية عامها الجديد، ولن يشاركه في إسعادها اليوم أحد.

قبل أن تستدير متّجهة نحو مدخل العمارة، وقفت ليلى تلوح له مودّعة. وفي لحظة خاطفة، صاح:

- ليلى!

ترجل من سيارته حاملا في يده علبة صغيرة وباقة ورد حمراء. أمامها، جثا على ركبتيه في مشهدٍ رومانسيّ، فوجئت به ليلى. حاولت التراجع خطوة

للوراء، خاف أن يكون تصرفه قد أزعجها. فقام مُنهيًا الموقف بابتسامة خجولة.

- كل عام وأنتِ معي ..

وقبل أن يتم جملته أو تستوعب ليلى المفاجأة، وئد المشهد الرومانسي في مهده.

اخترقت الرصاصة الجسد، نفذت إلى القلب مباشرة. رأت شفتيه تتحركان، تهنئة مبتورة خافتة بالكاد وصلت إلى سمعها كالقادمة من بئر عميق، وسمعت (أحبك..) ممزوجة بالدموع. كانت كنغمة موسيقية حزينة تتردد في أعماق الروح وتعلق بأذن الشعور. ألم، ذهول، فزع وحسرة، مشاعر لا تقوى على وصفها الكلمات، فتتنحّى جانبًا تاركة الساحة للصمت، أبلغ واصفٍ حين يعجز اللسان عن وصف لحظة امتزاج الدم بالدموع وبينهما باقة تناثرت ورداتها الحمراء ..

-11-

عندما كانا واقفين أمام العمارة، لم يشعر أي منهما بالعين الخفية التي تراقبهما بصبر، عين الرجل الذي كُلّف من قِبَل علّام بقتل ليلى. كقنّاص محترف، لم تغفل عينه عن فريسته. بعد أيام من مراقبتها، كان قد حفظ تحركاتها كما يحفظ سلاحه. ولكنه لا يزال مستاءً من شيء يعوقه عن تنفيذ مهمته.

«شاب لا يفارقها، دائم التواجد معها في كل مكان.» قال الرجل، وهو يضغط على فكّه بقلق.

«لا تنفذ إلا إذا كانت وحدها.» ردّ عليه علام بتعليمات حازمة.

اليوم، حانت الفرصة أخيرًا. أثناء عودة ليلى وحدها من المشفى، وعندما وجد الطريق ليس آمنا لتنفيذ الأمر، سبقها إلى البيت. اختار موقعًا مثاليًّا، بعيدًا عن الأنظار، لكنه قريب بما يكفي ليضمن إصابة دقيقة. فوجئ عند وصولها بوجود زين معها. رغم ذلك صمّم الرجل على التنفيذ ليتخلّص من مهمة امتدت أكثر مما ينبغي.

كان الرجل يتلفّت حوله بحذر وهو يتأكد من عدم وجود من يراه في موضعه. يكتنف الظلام وجهه، وتتعارك الأفكار في ذهنه، منتظرًا اللحظة الحاسمة ليطلق العنان لرصاصته. تلتهم عيناه ليلى وتركزان النظر عليها فيما يزعجه وجود زين، لكنه اتخذ قراره، سيُنفّذ الآن على أية حال.

أثناء اقتراب ليلى من مدخل العمارة، كان التوقيت المثالي للتنفيذ، بدأ القاتل يستعد. يده تقبض على الزناد، وعيناه مثبَّتتان على الهدف. لكنه فوجئ بعودتها وتقدُّم زين نحوها بخطوات سريعة. كان يركض باتجاها وكأنه خائف من أن تفلت منه. امتلأ قلب الرجل بالغضب، لكنه لم يفقد السيطرة. استجمع نفسه بسرعه، أحكم قبضته على مسدسه، وأدرك أن الفرصة لم تضع تمامًا.

عند المدخل، توقّف زين أمام ليلى، وبدا أنه يقول شيئًا. كان حديثا قصيرًا في ختامه جثا زين على ركبتيه أمامها.

ابتسم الرجل ابتسامة باردة. لحظة مثالية، فكر. وضع إصبعه على الزناد بحذر. ولكن في اللحظة التي ضغط فيها لإطلاق الرصاصة، حدث ما لم يكن في حسبانه.

عندما انطلقت الرصاصة بسرعة البرق، كان زين يعتدل واقفًا، وفي حركة غير متوقعة، التفَّ جسده ليواجه ليلى بالكامل. الرصاصة التي كانت موجَّهة إلى قلبها اخترقت ظهره.

سقط زين على الأرض، وسمعت ليلى صوت الارتطام قبل أن تدرك ما حدث. عيناه لا تزال تلمعان بالدهشة وشفتاه تتمتمان بكلمات مبتورة..

تجمّد القاتل للحظة، لكنه أحكم القبض على مقود السيارة منطلقًا بسرعة دون تردد.

في المشفى، صرخت حُسْن في وجه ليلى، اتهمتها بأنها السبب فيما حدث لابنها. كانت كلماتها مثل صخور تتساقط على رأس ليلى، التي لا ترد.
نطق بها الطبيب جافة باردة:
- البقية في حياتكم.

عجزت ليلى عن إظهار أي ردة فعل. كانت صامتة كالموت، الدموع محتجزة في عينيها، لا تتكلم ولا ترد على سيل الأسئلة المتساقط فوق رأسها. كانت يديها مشدودتين إلى العلبة الصغيرة وبقايا الورد المختلط بالدم!

أما حُسْن، فكانت صدمتها أكبر من أن تتحملها مصلوبة الظهر واقفة. دخلت المشفى على قدميها وخرجت محمولة على كرسيّ متحرك بفمٍ ملتوٍ ولسان عاجز عن النطق!

عاد بها صالح إلى قنا. وفي حجرة متطرفة تجاور حجرة ابنها عليّ، تحولت حُسْن إلى أسيرة سرير لا تفارقه إلا على كرسي متحرك.
أما عليّ، الذي عاش حياته في عزلة، كأنما شُفي فجأة من كل شيء. عشرة أيام كاملة انقضت دون أن تعاوده الحالة التي تغشاه كل يومين أو ثلاثة.

وفي أحد الصباحات الباردة، دخلت الخادمة إلى غرفة علي لتضع صينية الطعام أمامه. منذ أسبوع مضى لم تمس يده الطعام؛ تعود الخادمة بعد ساعات لتجده كما هو. دخلت في ذلك الصباح حاملة الصينية، لتنطلق صرخاتها مُدوّية حتى أسْمعَتِ الأنفار الذين يملؤون الأرض غربي الجسر. مات عليّ الذي قضى حياته مخبّأً في حجرة منعزلة.

في تلك الحجرة، حيث عاش عليّ بين جدران صمتها البارد، نقل صالح زوجته، وقال لابنته:

- لا تخرجيها من هنا، سمعتِ، ستظل فيها حتى يأخذها المولى.

اتصلت البنت بزوجة عمها تشكو قسوة أبيها على أمها المريضة. هاتفته راوية، وطلبت منه أن يُدخل زوجته المشفى لتتلقّى الرعاية الملائمة لحالتها.

- هذا جزاؤها يا راوية، بل أقل مما تستحق.

تساءلت راوية:

«عن أي جزاء يتحدث صالح؟ لم يكن يومًا على خلاف مع حُسْن، بل كانا يشبهان بعضهما إلى حد كبير!»

.....

كل شيء حول ليلى يذكّرها بزين. الناس والأشياء، حتى الهواء المحيط بها ممزوج بأريج رائحته. عندما فتحت حاسوبها لأول مرة بعد الحادث، وصلتها رسالة كان زين قد جدولها لتصلها في عيد ميلادها. وصلتها الرسالة التي اختفى مُرْسِلها إلى الأبد.

(ما أصعب أن تقرأ رسالة من راحلٍ لم يعد الوصول إليه متاحًا. تشعر بوخزة في منتصف قلبك تسحبك إلى بئر مظلم. وكأن الكلمات سهامٌ متقنة تخترق الروح فتترك آثارًا عميقة لا يوقفها زمان أو مكان. جروح لا يُجدي معها ضماد أو دواء. تصرخ بالرد على حرفِه تتمنّى لو كان بإمكانه سماعك، فلا تجد إلا رجْع صوتك يقرع مسمعك..)

عندما قرأت راوية هذا الكلام في (بوست) شاركته ليلى على فيسبوك، تمنّت لو كان بإمكانها انتزاع الحزن من قلب صغيرتها.

صالح

خلال أقل من ثلاثة أشهر دفنت اثنين من أولادي بيدي، بينما لا يزال مصير الثالث مجهولا، لا أدر عن حاله شيئا! ضربة ثقيلة على عجوز مثلي، لكنني رغم ذلك لا أزال واقفًا مصلوب الظهر كما لو أن مصيبة لم تعصف بي. كيف لكبير الزهايرة أن (يَنِخّ) أو يضعف؟ إن سمحت أبوَّتي المكلومة، فلا يسمح وضعي بين رجال العائلة.

مات علي، أكبر أولادي، فرحتي الأولى التي لم تكتمل. انتظرتُ طويلا سماع كلمة (أبي) منه، لكنّ لسانه بَخِل بها كما بَخِل بغيرها. ولمّا نطق قال تمتمات غير مفهومة. كان ابني أبلهًا صاحب إعاقة ذهنية، حقيقة كان عليّ تقبُّلها. حاولت، لكن أبي وحُسْن كان لهما رأي آخر.

«هل تدري ماذا سيقول النّاس؟ حفيد أمين الزهيري دخل مستشفى المجاذيب!»

«عمي على حق، ستفرح فيّ النسوة، زوجة أخيك أول من سيشمت فيّ.»

حُسْن تعامل زوجة أخي معاملة الضرائر، رغم أن زوجتي هي الأجمل، وفوق ذلك هي زوجة الابن الأكبر. لكن قلب حسن ممتلئ بالغيرة من راوية، لا تطيقها في أرض أو سماء.

ابني الذي دفنته للتّو، ألومُ أبي وزوجتي، وأحمّلهما مسؤولية عدم إدخاله المستشفى أو حتى المدرسة الفكرية، ولكن.. هل أردتُ ذلك حقًا؟

أتذرّع برفضهما، لكنني أيضًا خشيتُ أن يقال عني: (أبو المجنون). لم يجرؤ أحد على قولها وهو ينظر في عينيّ، لكنني رأيتها في غمزهم ولمزهم.

أخي عمر أنجب ولدًا كالقمر، كبر وصار يجري وينطق، كل الكلمات نطقها، وابني عاجز حتى عن قول: (أبي).

أخي عمر، الذي يصغرني بعامين، سويًّا ركضنا في طفولتنا ومعنا يونس، (نديدي)، لكنه يفضِّل اللعب مع عمر أكثر مني. نعم، كلاهما كان يفضّل الآخر، حتى أبي كان يفضلّهما، الجميع كان يُثني عليهما، ألأنهما كانا متفوقين في المدرسة وكنت كثير الرسوب لا صبر لي على الدراسة؟ أم لأنهما كانا طفلين هادئين وكنت مشاغبًا أُثير المشاكل معهما ومع غيرهما؟

لا أدري، لكن ما أدريه يقينًا هو أنني كنت رقم ثلاثة عند العائلة كلها رغم أني، بالنظر إلى تاريخ ميلادي، رقم واحد.

عمر كان الأقرب إلى أبي، ويستأثر بنصيب الأسد من دعوات أمي منذ طفولتنا، وبعد دخوله الجامعة ازداد الأمر تأكيدًا. أبي لا يستمع إلا إليه، رأيه جدير بالتقدير دائمًا، فهو المتعلم خِرِّيج الجامعة.

«التعليم حلو يا ولدي، ينير عقل صاحبه».

يوم الخميس، يعود من أسيوط كل أسبوع، فتعلن أمي حالة الطوارئ بالبيت. تقوم من بعد صلاة الفجر، تغسل ملابسه بنفسها، وتخبز

الفطير الذي يحبه، وتطبخ ما يُفضّل من الأطعمة. تفعل كل ذلك بيدها رغم وجود من يفعلنه نيابة عنها. تنسى شكوى عظامها، ينضبط سكرها وينتظم ضغطها طالما أن ابنها عاد إليها سالمًا من أسيوط. يتسامران معًا طوال الليل، يحكي لها عن الجامعة وعن أسيوط وناسها. في حضور عمر كانت أمي مختلفة، مختلفة في كل شيء.

هل كنت أغار من أخي؟

كنت أنا أيضًا أحبه وأفضّله ـ كما يفضّله الجميع ـ على نفسي. كان طيّبًا، لا تعرف الكراهية طريقًا إلى قلبه، في طبعه لِينٌ يجبر الناس على حب مجالسته والتعامل معه. وكان هذا أكثر ما أكرهه فيه!

لماذا استمعت إلى وسوسة حُسْن وفحيحها في أذنيّ كأفعى؟

«أبوك يفضّله عليك في كل شيء!»

«انتبه لحالك، من يدري؟ ربما يكتب له أو لأولاده شيئًا من أملاكه وأنت نائم على أذنيك، غدًا تقول: حُسْن قالت.»

بفضل زنِّها على أذني، فكرت في الحديث مع أبي حول عدم اهتمام عمر بالأرض أو على الأقل انشغاله بهمّها والسؤال عن أمورها، لكن عليَّ أن آخذ حذري حتى لا أُشعِل جذوة غضبه. سيكون كلامي غير صريح، نعم.. لن أسلك طريقًا مستقيمًا، سألف وأدور حتى أجد الثغرة التي ألقى عبرها اعتراضي في روعه دون إصدار ضوضاء. لكن على من تنطلي هذه الألاعيب؟ إن (خالت) على الناس جميعًا، لن (تَخِيل) على أمين الزهيري!

أتذكّر جيدًا يوم تحدثت معه، غَضِب، وما أكثر غضباته. كان غضبه كهِزّة أرضية عنيفة تسري في جنبات البيت. رفع عصاه في وجهي، وصاح بصوته الغليظ:

«أبوك يفهمك يا صالح. وماذا تفعل أنت زيادة عنه؟ تراقب العمّال وتحاسبهم؟ أستطيع أن آتي بمن يفعلها بدلًا منك!»

أعلم أنه جاد في قوله. كان أبي ذا قلب حديدي لا يعرف اللين، ليس بمقدور أحدهم أن يلوي ذراعه، وإن كان ابنه الذي من صلبه.

ولمّا تسعّرت جحيم الثأر بيننا وبين آل العمري، كان عمر هو الصوت العاقل الذي يدعو للصلح، دور يليق به، لذلك اتخذت أنا الدور الذي يليق بي. أخشى، وأنا أتذكر الآن ما حدث، أن أقول إن الموقف الذي اتخذته، كان فقط لمجرد الاختلاف مع عمر.

للمرة الأولى، منذ وعيت على الدنيا، لا يتفق رأي عمر وهوى أبي. للمرة الأولى لا يقتنع أبي برؤيته، للمرة الاولى يُخَطّئه. هل كنت لأضيع الفرصة؟!

هل لا زلتُ أُدينُ زوجتي؟

هل لا زلت أتهمها، وأبرئ نفسي الأمارة بالسوء، وكأنني ملاكا؟

هل أحببتُها حتى تشابهت طباعنا؟

كنت ضعيفًا أمامها دائما، أخشى غضبها. عليّ الاعتراف الآن، كنت أقف معها ضد أمي، وفي كل مشادّة بينهما أُخَطّئ أمي.

شيء مجهول يجذبني نحوها ويجعلني أبالغ في إرضائها، أتكون قد عملت لي عملًا كما كانت تقول أمي دائما؟

ربما!

كل شيء جائز في قانون حُسْن، زوجتي التي لم أستطع رؤية مساوئها إلا بعد وفاة أمي. كأن غِشاوة انقشعت عن بصري، فرأيت حقيقتها.

عدت إلى إدانة حُسْن مرة أخرى!

هل هي فقط من تحمل قلبًا أسود؟ أعاقبها بحبسها في حجرة ابنها. يا لحماقتي! وأنا؟ مَن يعاقبني على فعلتي؟!

في الحجرة التي قضى فيها ابنى حياته، دخلتُ أنظر إلى زوجتي المشلولة، أصبحت كتلة لحم متكوِّمة لا حول لها ولا قوة، تنظر إليّ بعينين قاسيتين رغم انكسارهما، تقول لي عيناها:

«هل تنتقم مني؟ هل وحدي المجرمة؟ بل أنت مجرم بقدري!»

هل لا زلت أذكر فعلتي؟ أم أنني نسيتها ولم أعد أذكر سوى الرواية التي روّجت لها؟

لكن زوجتي الملعونة، بسببها مات ابني زين، زينة شباب الزهايرة، المجرمة (تَكْرِي) رجلًا ليقتل ابنة أخي، فيقتل الرجلُ ولدي بدم بارد. أي دناءة هذه؟! أيُّ دمٍ يسري في عروقها؟ أيّ قلب ينبض بين ضلوعها؟ أريد عقلًا فوق عقلي كي أتصور ما فعلَتْه.

أراني أهرب من ذكر فعلتي. لكن هل هروبي يغيّر من الحقيقة شيئًا..؟

«وهل تتذكر ما فعلتَ أنت بابن أخيك يا صالح؟ الولد الذي كالقمر، الذي كبر وجرى ونطق كل الكلمات»

سألتني عينا حسن دون كلام، فأجبتها:

نعم أذكر.. أذكر كما لو أن ما حدث قد حدث الآن، وهل ذلك اليوم يُنسَى؟

ساعة خرج علينا سعد وابن عمه عامر، يتطاير الشرر من عينيهما. يوم فَدَاني أخي بنفسه، قدّم روحه نظير خلاصي عن طيب نفس، وتلقّى الطلقة بدلًا مني بصدر مفتوح.

ماذا فعلت أنا في المقابل؟

لكم سألتني راوية، ظلت لأيام تعيد وتزيد. تسأل بحرقة وتطلب مني حكاية ما حدث. حفظتُ ما أقوله لها عن ظهر قلب حتى لا أضيف أو أحذف دون قصد، اكتفيت بالاختصار؛ رأفة بحالتها..

«هل تكذب ثانية؟ لم تختصر التفاصيل رأفة بزوجة أخيك، اختصرت حتى تُخفي فعلتك!»

صرخت عينا حسن في وجهي، فعدلت عن قولي.

نعم فعلتها إخفاء لفعلتي ..

غضبتُ من عمر الذي ظلّ يرجوهما بلا فائدة، يذكّرهما بالنسب الذي بيننا:

«بالله يا سعد، بحق ما بيننا من صلة، عد إلى رشدك، لا تفعلها يا أخي بالله عليك.»

رفضت توسّلات أخي، رأيتُ فيها خنوعًا لا يليق بنا:

«لا ترجُه يا عمر، هؤلاء جبناء لا يقدرون على المواجهة، خدعوا الناس بهدنة كاذبة، والآن يطعنون في الظهر.»

أثار قولي غضب عامر. انطلق الرصاص فتلقّاه صدر أخي، فقدت صوابي، انتزعتُ الصغير من حضن أبيه الممدّد أمامه غارقًا في دمه واتخذته درعًا أحتمي به، قلت لنفسي: سيجبن أخواله عن إطلاق النار في وجهه.

أطلق عامر الرصاص بيد ثابتة لا تعرف التراجع، فيما انقض عليه سعد محاولًا إيقافه، لكن بعد فوات الأوان.

فَدَانِي أخي بروحه، فرددتُ له المعروف سريعًا إذ جعلت ابنه يلحق به!

نعم، أقرؤها في عينيكِ يا حُسْن، تقولين:

«أيّ دناءة هذه؟

أيُّ دم يسري في عروقك؟

أيّ قلب ينبض بين ضلوعك؟

أريد عقلًا فوق عقلي كي أتصوّر ما فعلتَ!»

راوية

هل أخطأتُ حين قررت العودة إلى قنا؟
كل شيء في الحياة نصيب، وكل شيء مقدّر. وقدر الله كلّه خير، أعرف هذا. لكن لحظات الضّعف التي تعترينا أحيانًا تكون كغيمة سوداء تحجب عن أرواحنا شعاع الأمل.
فكّرت في أولادي، لأجلهم تركت قريتي يوم تركتها، ولأجلهم عدت. يقول لي يونس:
«لا تندمي على شيء، كله مقدّر ومكتوب.»
يكفي أنني رأيت إخوتي، وتحسّنت علاقتي بهم قبل الموت.
الموت!
قلب ابنتي ينزف وجعًا على موت من أحبّت.
لم يكن ما مرّت به سهلًا، مات زين بين يديها برصاصة من مجهول.
آه يا ابنتي، مكتوبٌ عليكِ معايشة الفراق كأمكِ، ولكن ربما كان حظّك أفضل إذ فارقتِ مبكرًا قبل تورّط قلبك في علاقة أعمق. لكن هل ثمة فرق؟
أعلم أن كلماتي مهما بلغت قوّتها، تظلّ كلمات. كلمات لا يترجمها القلب ساعة نكبته، ولا تؤتي أُكُلها. جزء من العقل يكون معطلًا فلا يعي

نصحًا أو عظة. قلب ابنتي ينزف، وأشعر بنزفه داخلي. كيف لا وقد شربتُ من ذات الكأس يوم مقتل أبيها؟

الفقد جنون لولا لطف الله بنا. لطفه يمسُّ الجراح فتبرأ.

.....

يوم اتصلت بي سالي، ومن بعدها مايا، تقترحان عليّ الخروج في نزهة؛ رغبة منهما في مساعدة ليلى على التخلص من حالة الحزن التي استغرقتها، وافقتُهما. وإذ بالجميع يحتاج إلى هذه النزهة!

خرجنا جميعًا، سالي ومايا جاءتا مبكرًا أخذتا ليلى وسبقْنَنا إلى هناك. لحقنا بهن، آدم وميرنا، حفيدي وأنا، مهاب وشمس، يونس أيضًا خرج معنا. كانت هذه أول مرة أتعامل فيها مع شمس عن قرب. فتاة جميلة، رِقتها الطاغية تأسر من يتعامل معها، وتجعله لا يملك إلا أن يحبها. البنات اندمجن معها سريعًا وكأنهن يعرفنها منذ زمن.

- فعلًا، القلوب الطيبة تنادي بعضها البعض.

نظر إليّ يونس، ثم قال:

- طبعا، لكن حتى الطيبين يغشاهم، أحيانًا، طيف من القسوة والعند!

- الحب كفيل بأن يداوي كل شيء.

ندمت على جملتي التي خرجت بعفوية دون انتباه، ارتبكت قليلا بينما استطرد يونس:

- هو لا يداوي فقط، بل يصنع المعجزات، لكن تعرفين ما المشكلة يا راوية؟

ابتلعت ريقي بصعوبة قبل أن أنظر إليه متسائلة؛ فأكمل:

- المشكلة أن حظوظ المحبين قليلة، فإما أن يعثر المحب على محبوبه متأخرًا، أو يكون بين يديه، لكنه يعمى عن رؤيته، يعمى عنه حتى يخسره إلى الأبد.

قلتُ:

- أو قد يجده في أوانه تمامًا، لكنه يمر كحلم، فلا يكاد يتذوّق سعادته حتى يُحرم منه.

شرد يونس بعيدًا، ثم عبث بنظارته:

- ربما .. ربما؛ لأن سعادة الحب فيها شيء من نعيم الآخرة، نعيم لا يليق بالدنيا.

أعجبتني جملته جدًا، في الحب شيء من نعيم الآخرة، وأي نعيم يعادل عثورك على قلب يقاسمك الحياة، الحياة بكل ما فيها من مِحَن ومِنح؟!

راوية

بعد بضعة أشهر

يوم جديد أشرق نوره بفضل من الله. لا أصدق أنني أخيرًا استطعت النوم دون أن يُقلِقني الكابوس. راحة لم أستشعرها منذ سنوات. أي عطاء يعادل عطاءك يا الله؟!

متى كانت آخر مرة تأملت فيها الشروق من نافذة غرفتي؟

لا أذكر!

يأتي وقت يتمنى فيه الواحد منّا العودة إلى الروتين اليومي الذي طالما ضَجر منه، عندما يقضي فترة قاسية، سلسلة من الأحداث الصعبة والمتلاحقة، حتى لا يكاد يلتقط أنفاسه.

الشروق بوابة أمل تفتح نوافذها ببطء، قصيدة تحكي تفاصيل البدايات الجديدة. تبدأ السماء بتغيير ألوانها تدريجيًّا، يمتزج الأحمر الدافئ مع البرتقالي والأصفر في لوحة بديعة تلوّنها الأشعة البكر لشمس الصباح. بديعٌ منظر الشمس وهي تولد قطعة قطعة حتى يكتمل قرصها، يسطع في السماء، فيوقظ العالم من سُباته. تطلّ اليوم مشرقة دافئة، صافية كضحكة طفل. تذكرت أبياتًا لعمر، وتذكرتُ حوارنا يوم سمعتها منه أول مرة.

أراقبُ الشَّمسَ وحدي ثمّ أسمَعه صوتًا جميلًا كفيضِ الماءِ ينهمرُ
صوتُ الشّروقِ له الأشواقُ مصغيةٌ فيه الجمالُ وفيه الرّوحُ تنصهرُ

«هذه أول مرة أسمع شعرًا يتغزّل في منظر الشروق، غالبًا ما يتغنَّى الشعراء بالغروب.»

قال ضاحكًا:

«قلتُ على سبيل التغيير.»

ثم التفت إلى كتاب العَروض الموضوع على الطاولة أمامه:

«تعرفين على أيُ بحر كُتِبت هذه الأبيات؟»

دندنت بكلمات البيت الأول بطريقة عروضية علمني إيّاها، ثم قلت:

«البسيط.»

«براڤو! تلميذة متميزة.»

ضحكتُ:

«بل أستاذي هو المتميز..»

«لنرى إن كان كذلك أم لا، قولي بيتًا على البحر نفسه والقافية؟»

«لا.. ليس إلى هذا الحد!»

«حاولي، إن فعلتِها لكِ عندي هدية مميزة.»

بعد محاولات عدة، كتبت:

كـــــوني بخيرٍ فـإنّ اللّهَ يعلمُه دومًا دعاكِ بعونِ اللّهِ يزدهرُ[9]

فَرِح بما كتبتُ، شجّعني وقال إنني قريبًا سأتفوّق عليه وأقرض من الشعر أعذبه. هو لا يعلم أنني أحببت الأدب وعالمه بعد حبي له، وأن هذا الإقبال الذي يمتدحه مرتهنٌ بوجوده.

انتزعني الهاتف من سطوة الذكريات التي تلازمني كظلي. جاءني صوت عاصم تتراقص الفرحة على موسيقى حروفه:

- سيف ابني نجح في الثانوية العامة، بمجموع 99٪.

هنأته وهنأت زوجته. سألني عاصم إن كان بإمكاني القدوم إلى البلد. قال إنه سيكون سعيدًا إن شاركتهم الاحتفال بنجاح سيف، سيقيم ليلة يُقرأ فيها القرآن ويُطعم الطعام شكرًا لله على كرمه.

أرغب في السفر ورؤية إخوتي وأولادهم ومشاركتهم الفرحة، لكن لا أدري إن كنت مستعدة نفسيًا للسفر أم لا؟

وليلى! هل ستوافق على السفر معي؟

راسلني يونس، فحكيت له:

إذن نسافر معًا، صالح مريض، اتصل بي أمس وطلب رؤيتي.

الله يعافيه يا رب، مم يشتكي؟ ✓ ✓

[9] كل الأبيات الواردة في الرواية للكاتبة إلا ما تمّ التنويه عن قائله.

من بعد موت علي وحالته الصحية في تدهور..

متى ستسافرين؟

لم أقرر إن كنت سأسافر أم لا. ✓ ✓

لماذا؟ دعكِ مما حدث، زيارتك للبلد لا بد أن تتكرر.

أيضًا الزيارة مهمة لليلى.

ليلى قوية ستتخطى ما حدث.

المسألة فقط مسألة وقت.

أتمنّى ذلك. ✓ ✓

أما أنا فمتأكد من ذلك، فاتحيها في الموضوع وبلِّغِيني.

اطمئني يا راوية.. ستدخلين البلد معي هذه المرة.

فاجأتني جملته الأخيرة، أربكتني كمراهقة، فأنهيت المحادثة بإرسال تعبير الوجه المبتسم. تحدّثت مع سمية، هي بوصلتي، بعد الحديث معها أُدرك إلى أي الشِّقين أميل. هي أيضًا شجعتني على فكرة السفر، بقي أن أتحدّث مع آدم، ثم أفاتح ليلى في الأمر.

.....

- حبيبتي، الدراسة على الأبواب، ولا أراكِ تستعدين!

ارتمت في حضني، في حضنها الصغير اتّساع العالم. بدأت بفضل الله تتعافى من حزنها تدريجيًا، لمايا وسالي دور كبير في هذا التعافي. لم تتركها

سالي لحظة، كانت بجانبها طوال الوقت. شعور بالطمأنينة يلازمك عندما يهبك الله صديقًا يكون لك كالأخ بل هو أقرب.

مسحة حزن كست وجهها عندما فاتحتها في موضوع السفر إلى قنا، لكنها طوَّقتني بذراعيها وهي تقول:

- معكِ أذهب إلى أي مكان في الدنيا يا رورو..

قررت التفاؤل، بداية طيبة ليوم يبدو أنه سيكون جميلًا.

عبر الواتساب أرسلت ميرنا رسالة صوتية تتحدث فيها مع آدم، وعمر بجوارهما يناغياه فيصدر موسيقاه المحببة لديّ.

«هيا قل الخبر لتيتة يا عمر، قل..»

يناديني الولد بتكرار حرف التاء، فيعزف على أوتار قلبي، ثم يقول آدم:

«هيا قل لها يا عمر: إن حفيدًا آخر سيأتيها قريبًا، وينافسك على حبها.»

كلما رأيت ابني وزوجته امتلأ قلبي سعادة بهذا الحب المزهر بين جوانحهما، استطاع حبهما قهر الظروف التي مرَّا بها، أثبت أنه الأقوى والأبقى. سيأتيني حفيد جديد، يا للفرحة حين تأتينا على عطش فتروي ظمأنا!

يبدو أنني كنت محقة عندما قررت التفاؤل اليوم. يبدو أنه يوم البشريات كما كانت تقول سمية عندما نسمع أخبارًا سارّة دفعة واحدة.

كعادتها تأتي صديقتي (على السيرة)، رنَّ هاتفي وعلى شاشته أنار اسمها ظلمة الليل.

- هل بدأتِ البيات الشتوي من الآن؟ يا بنتي الشتاء لم يبدأ بعد، صدقيني..

سعلتُ وأنا أقاوم الضحك:

- تصدقي لو قلت لك إنني لا أسمع صوت ضحكتي إلا معك؟

- أصدّق طبعًا، يا بنتي أنتِ بدوني ما تعرفي تعيشي.

انفجرت ضحكاتنا معًا. هي تظن أنها تمزح، لكنها ـ والله ـ تقول الحق، بدون سمية ينقصني الكثير، أنا بدونها لست أنا.

- اشتقت للخروج معكِ، لن أقبل أعذارًا، سأهرب من وليد غدًا ونحيي أمجاد الماضي في التنقُّل بين محلات وسط البلد، وبالمرة تشترين ما يلزم رحلتك إلى الصعيد، اتفقنا؟ اتفقنا، سلام.

مجنونة لا زالت، أحبُّ جنونها لأنه يحييني، ينتزعني من فم الملل انتزاعًا. ما أجمل أن يكون الجبر أرواحًا تبثُّ فيك الحياة، تجدد باقات الحمد في دواخلك، تحرّك ركودًا كادت غشاوته أن تخنق عصافير الأمل بين جوانحك! إذن أهيئ نفسي غدًا لجولةٍ طويلةٍ من المتعة والمشقة معًا.

أسماء عبد الراضي
حجازة/ ديسمبر 2023م

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.